
إلى
فرسان المنابر
لفضيلة الشيخ عبد الحميد كشك
قولة الحق

اهداءات ٢٠٠١

صيدلي/ حسن سعد الدين حجازي

الإسكندرية

إلى فرسان المنابر

لفضيلة الشيخ عبد الحميد كشك

للطبع والنشر والتوزيع
١٦ شارع بن مطيع خلف جمعية الرعاية الإسلامية بميدان الجيش
ت ٢٨٤٦١٠١٨ ف ٢٧٧٥٣٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

بقلم الاستاذ/ محمد عبدالله السمان

• « فرسان المنابر » كتاب جديد للعالم الجليل فضيلة الشيخ عبدالحميد كشك ، الذى طال امتحانه زهاء تسع سنوات ، بعيدا عن منبره الخشبى ، وبقى له منبره الروحى ، وهو منبر من نور ، تقف عاجزة حياله كل قوى البغى والشر عن أن تمسه من قريب أو بعيد .. هذا المنبر وثيق الصلة ، وقوى الارتباط بتلاميذ الشيخ ومحبيه ، هؤلاء الذين كانوا يفدون إلى مسجد الشيخ كشك صباح يوم الجمعة مبكرين ، وقد تحملوا عناء السفر ، فى سبيل أن يستمعوا بآذان مصغية وقلوب واعية .

ما من مؤتمر إسلامى شهدته فى شتى البلاد ، إلا سئلت عن الشيخ الممتحن ، وكان يدهشنى أن أكثر السائلين من الشباب المقبل على الحياة ، والأسئلة ليس منها كيف يعيش ؟ لأن هذه مسألة مفروغ منها مع قوله تعالى : ﴿ وفى السماء رزقكم وماتوعدون ﴾ . ولكن الأسئلة يقصد منها الاطمئنان على الروح المعنوية للشيخ ، وتشرق الابتسامة على الشفاة وهم يسمعون منى : أن العالم الجليل يتمتع ــ والحمد لله ــ بروح معنوية قوية ــ بل أبلغ درجات القوة .

لقد امتحن الأئمة : أبوحنيفة ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، ثم ابن تيمية الذى لقى ربه فى سجنه ، فلم تلن لهم قناة ، ولم تهن لهم عزيمة ، ولم يضق لهم صدر ، ولم يهتز لهم صبر ، كانوا بإيمانهم شوامخ ، وكانت ثقتهم فى الله ــ عزوجل ــ أقوى من أن يصدعها ابتلاء ، وأمتن من أن يهزها إيذاء .. ومضى الجلادون غير مأسوف عليهم ، وبقيت صفحاتهم السود فى التاريخ للعظة والاعتبار .

• قالوا للإمام الشافعى : « إذا عزمت على الرحيل إلى مصر ، فلابد لك من عمل تتقوت به ، ومجلس سلطان تعتز به » .

فأجابهم : « لقد ولدت بغزة ، وربيت بالحجاز ، ولم يكن عندنا قوت يوم واحد ، ومابتنا جياعا قط ، ومن لم تعزه التقوى فلا عزة له ! » .

•• وبين يدى كتاب الشيخ الجديد : « فرسان المنابر » وكلمة « الجديد » هنا لاتعنى الزمن — فحسب — بل تعنى كذلك الموضوع ، ولن أكون مبالغا إذا قلت : إنه لاغنى عنه لعالم أو طالب علم ، داعية أو خطيب منبر ، لقد أفاض الشيخ فى الدراسة عن الخطبة والدرس والمحاضرة والفرق بينها ، كما أفاض فى شرح الدعوة وأصولها ومنابعها وركائزها ، وفى الحديث عن الدعاة ومكوناتهم ومقوماتهم ، والأساليب المنتقاة التى تؤتى ثمارها ، ثم كيفية إعداد الدعاة حتى يكونوا أهلا لرسالتهم .

يرى الشيخ الجليل : أنه ليس كل من اعتلى المنبر فارسا من فرسان المنابر ، قد يكون خطيبا بل وخطيبا مفوها ، ولكن كلماته قد تصل إلى الآذان ، وتستجيب لها مصمصة الشفاة ، وفى نفس الوقت لاتصل إلى القلوب ، ولا تمس الوجدان ، أما الفارس فكلماته من صنع إيمانه بالله ، فتمس شغاف القلوب ، وتمتزج بنبضات الوجدان ، وتترك أثرها فى النفوس إلى ماشاء الله .. والفارس لايقول إلا حقا ، ولاينطق إلا صدقا ، لأنه لايحابى ولايجامل ولايخاف فى الحق لومة لائم .

وقد أثار الشيخ قضية غفل عنها الكثير من الخطباء ، وهم الذين لايعيشون واقعهم ، فالإسلام ليس تاريخا مضى ، ولكنه حاضر ومستقبل معا ، ومثل هؤلاء هم ومن يحرثون فى البحر سواء .

••• وأخيرا .. وليس آخرا :

أقول للذين يظنون أن عزل العالم الممتحن عن منبر خشبى ، وإبعاده عن مسجد من حجارة وطين ، يعنى عزله عن الحياة : إن الشيخ والحمد لله بآثاره القلمية والصوتية ملء الحياة سمعها وبصرها .

وأقول للذين يشفقون على الشيخ ، وقد طالت محنته : إن الممتحن فى الله ، يعيش بإيمانه فى لذة لاتدانيها لذة .. لذة لاتحجبها الأسوار ولاتنالها الأوامر والأحكام .. ولكن أنّى للغافلين أن يدركوا ذلك : وأفئدتهم هواء !!

محمد عبدالله السمان

القاهرة
ص . ب ١٦٢١
ت : ٩٨٤٢٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عدداً . اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم .

وبعـد ...

فإن مما يسعدنى ويثلج صدرى ، أن أهدى كتابى هذا إلى فرسان المنابر ، ودعاة الحق ، وحملة المشاعل ، الذين يبددون بنور الحق غياهب الظلمات . أهديه إلى الذين قال الله فيهم **﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولايخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيبا ﴾**[1] وإلى الذين قال الله فيهم **﴿ قل هذه سبيلى أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وماأنا من المشركين**[2] وقال لهم **﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾**[3] . **﴿ واصبر وماصبرك إلا بالله ولاتحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾**[4] . إلى الذين تمثلوا قوله تعالى **﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾**[5] فاتخذوا من رسول الله قدوة ، ومن سلوكه أسوة ، ومن

---

(١) سورة الأحزاب (٣٩) .
(٢) سورة يوسف (١٠٨) .
(٣) سورة النحل (١٢٥) .
(٤) سورة النحل (١٢٧ – ١٢٨) .
(٥) سورة الأحزاب (٢١) .

كلماته عقيدة وعملاً ، فوقفوا عند محراب قوله جل شأنه ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين** ﴾[1] فكانوا مع الناس كالشجر يرمونه بالحجر فيرميهم بأطيب الثمر .

أهديه إلى دعاة الحق ، وحراس العقيدة ، إلى حماة الإسلام .. إلى المسلمين الذين فهموا الإسلام عقيدة وسلوكاً ، وديناً ودولة ، مسجداً ومصنعاً ، مصحفاً وقوة ، فكانوا منارات الهدى يهتدى بهم كما يهتدى بالكوكب الدرىّ ، فى لجج البحار .

أسأل الله لى ولهم التوفيق والسداد والهدى والرشاد ، فى رحاب الداعية الأول مبعوث العناية الإلهية ، وشمس الهداية الربانية ، الأمي الذى علم المتعلمين ، وأحيا الأمل فى قلوب البائسين ، وقاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط الصاخب إلى شاطىء الأمان وبر السلام ، ففتح الله به أعيناً عميا ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، ويرحم الله أمير الشعراء الذى خاطب أمير الأنبياء بقوله :

وإذا خطبت فللمنابر هزة ... تعرو النَّدِىَّ وللقلوب بكاء
وإذا غضبت فإنما هى غضبة ... للحق لا ضغن ولا شحناء

صلى عليك الله ياعلم الهدى ، ماهبت النسائم وماناحت على الأيك الحمائم .

المؤلف
الشيخ / عبدالحميد كشك

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٥٩) .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، وأصلى وأسلم صلاة وتسليماً يليقان بمقام أمير الأنبياء وإمام المرسلين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين .

صل اللهم وسلم وبارك على هذا النبى الأمين وعلى آله وصحابته الغر الميامين ، وارحم اللهم مشايخنا ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين .

اللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ، ونتوب إليك ، ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله نشكرك ، ولانكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك . اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أمـا بعـد

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

هنا مدرسة محمد صلى ﷺ شعارها ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى ، ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** ﴾ صلى عليك الله ياعلم الهدى ، ماهبت النسائم وماناحت على الأيك الحمائم .

ياسيد العقلاء ياخير الورى ... يامن أتيت إلى الحياة مبشرا
وبعثت بالقرآن فينا هاديا ... وطلعت فى الأكوان بدراً نيراً
والله ماخلق الإله ولا برى ... بشراً يرى كمحمدٍ بين الورى

وبعـد

سبحانك ربي جعلت مع الصبر نصراً ، ومع الضيق فرجاً ، ومع كل شدة مخرجاً ، ومع العسر يسرا ، وجعلت لكل بداية نهاية . فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر .

وأشهد أن لا إله إلا الله.. من اعتز به ألبسه ثوب العزة ، وأغناه عن الناس .. قيل لتقي الدين الحسن البصري ـــ رضي الله عنه ـــ ماسر زهدك في الدنيا ؟ فقال : أربعة أشياء : علمت بأن رزق لايأخذه غيرى فاطمأن قلبي ، وعلمت أن عملي لايقوم به غيرى ، فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع عليّ ، فاستحييت أن يراني على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء الله .

ياأخا الإسلام :

سهرت أعين ونامت عيون   في شئون تكون أو لاتكون
إن ربا كفاك بالأمس ماكان   سيكفيك في غد مايكون

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله . وقف مواقف الأبطال في ساعات الشدة ، لعندما صمتت الألسنة وتطقت الأسنة ، وخطبت السيوف على منابر الرقاب وقف في حومة الوغى يدفعه إيمانه ، وتحفزه عقيدته يقول :

(أنا النبي لاكذب أنا ابن عبدالمطلب) .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

الحق أنت وأنت إشراق الهدى   ولك الكتاب الخالد الصفحات
من يقصد الدنيا بغيرك يلقها   تيها من الأهوال والظلمات

صلى عليك الله ياعلم الهدى ماهبت النسائم وماناحت على الأيك الحمائم .

أمـا بعـد :

فقد ألقيت نظرة في رحاب الكون ، وطاف الفكر بأرجاء الحياة ، فوجدت هذه الدنيا مليئة بالزخارف البراقة التي تخدع النفوس ، ورأيت لماديات الحياة تأثيراً قد بلغ مداه في الأعماق ، فانصرفت بعض النفوس عن طريق الجادة ، وتنكبت نفوس أخرى الصراط السوى ، فاهتزت هذه وأضربت تلك .. ذلك لأن الدنيا إذا تملكت النفوس

وتربعت على عرش القلوب ، حجبتها عن رؤية الحقيقة العليا ، فترى هذه النفوس حائرة مرة تتخبط في دياجير الظلام ، وتراها يائسة مرة أخرى فهي في حالة السراء جاحدة ، وفي حالة الضراء يائسة ، وكلا الأمرين أحدهما مر . ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا** ﴾[1] ثم استثنى الله جل شأنه من هذا النوع نوعاً جديراً بالسعادتين الدنيوية والأخروية . فقال في شأنه ﴿ **إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم والذين يصدقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون إن عذاب ربهم غير مأمون والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون والذين هم على صلاتهم يحافظون أولئك في جنات مكرمون** ﴾[2] .

ياأخا الإسلام :

قد يكون بناء القصور وتشييد البروج وناطحات السحاب أمراً سهلاً يرجع إلى المهارة في فن العمارة ولكن ماأصعب بناء النفوس . فإن بناءها سر من الأسرار الذى لايقوى عليه إلا الذين صبروا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله . إذ أن هذه رسالة الأنبياء ، وغاية المخلصين ، وتجارة مع الله لكل من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين .

ولذلك فإن بناء النفوس وتشييدها على أساس الحق ، وتزكيتها بالصلاح والطهر مطلب عظيم ، وغاية عليا ، وهدف من الأهداف .

وقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ في مسجد النبي ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ يقول لبعض الصحابة : ليذكر لي كل منكم أعظم شيء يتمناه ؟ قال أحدهم : أتمنى أن يكون لي مثل أُحد ذهبا أنفقه في سبيل الله . وقال آخر : أتمنى أن يكون لي ملء المدينة خيلاً أغزو به في سبيل الله . وقال ثالث : أتمنى أن يكون لي ألف عبد أعتقهم ابتغاء مرضاة الله . وأخذ كل منهم يذكر مايتمنى ، وأمير المؤمنين يدير النقاش بينهم ، ثم توجهوا إليه قائلين : فماذا تتمنى أنت ياأمير المؤمنين ؟ قال عمر : أتمنى ملء هذا المسجد رجالاً أمثال أبي بكر الصديق ـــ رضى الله عنه .

(١) سورة المعارج الآيات ١٩ : ٢١ .
(٢) سورة المعارج الآيات ٢٢ : ٣٥ .

طيب الله ثراك ياعمر ، فقد أصبت كبد الحقيقة ، وتمنيت المطلب الأعظم ، فأمثال أبى بكر من ذوى النفوس المطمئنة والأفئدة البصيرة ، هم الذين يملئون الكون أمنا وسلاماً ، ورحمة ووئاماً ،وإعزازاً ، وإكراماً، لأنها نفوس كان الحق هدفها ، والخير غايتها ، والقرآن إمامها ، والرسول أستاذها ، نفوس كان أساسها توحيد الله وسلوكها طاعة لله .

إنه اليقين إذا عمر القلوب ، والإخلاص إذا أضاء النفوس ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً** ﴾[1] .

ماأعظم الإيمان فى بناء النفوس ، وماأجمل رسالة التوحيد فى تقويمها ﴿ **ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾[2] .

وهل يبنى النفوس إلا الدعاة ؟! إنهم أصحاب رسالة وليسوا عبيد وظيفة ، إنهم الذين يرتفعون بالنفوس من غياهب الظلمات ، وفلول الدجى وحضيض الغبراء إلى بازخ العلياء ، إنهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء لم يورثوا درهما ولاديناراً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وفير ، إنهم أصحاب المنطق الرشيد ، إنهم أصحاب العقول الراجحة .

وفى هذا الكتاب سنضع النقاط على حروفها ، ونسمى الأشياء بأسمائها ، عندما يرى الأخ المسلم المعالم، تتجلى فى طريق الدعوة والدعاة ، وليس هذا الكتاب رواية تقص ، أو قصة تروى إنما سنحاول جاهدين أن نأخذ على أنفسنا ، أن نكون موضوعيين بحيث نمركز العناصر الأساسية ونعتصر المراكز الأصيلة فى طريق الدعوة ، حتى يكون الداعية على بصيرة ، وذلك بما تيسر من التقدير وتقدر من التيسير ، والله المستعان وعليه التكلان .

---

(١) سورة الاسراء الآية ١٩ .
(٢) سورة الشمس الآيات ٧ : ١٠ .

الفصل الأول

مفاهيــم وتعريفـات

﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد ﴾[1]

لابد لنا أن نتحدث عن موضوع الدعوة والدعاة . لابد أن نعرض لتلك المفاهيم والتعريفات التى تتعلق بالمحاضرة والدرس والخطبة والمقالة والحديث العادى .

وقد أفاض الأستاذ الشيخ البهى الخولى ـــ رحمه الله تعالى ـــ فى هذا الموضوع فى كتابه تذكرة الدعاة .

قال رحمه الله تعالى :

الداعية فى كلماته

(١) المحاضرة (٢) الدرس (٣) الخطبة (٤) المقالة (٥) الحديث العادى .

ليس هناك ـــ فيما أرى ـــ فرق بين المحاضرة والدرس ، ولكنهم درجوا على أن تكون المحاضرة أكثر استيعابًا لعناصر الموضوع وأوسع تفصيلاً وإفاضة فى معانى هذه العناصر وأن تكون عناية المحاضر أتم وأوفى وأن يحاط السامع بما يجعله يتهيأ لتلقى معلومات ممتازة ، وتوجيهات قوية صالحة ، وأن يلتزم الترتيب والنظام فى المحاضرة ، فلا يكثر المحاضر الانسياق مع عواطفه ، والاستطراد مع الخواطر الطارئة ، مما يبعد بالسامعين عن الموضوع الأساسى ، بينما الدرس قد يقبل شيئاً من هذا ويعذب به .

---

(١) سورة آل عمران الآيات ١٩٣ ـــ ١٩٤ .

هذا كله مع ظهور الصبغة الربانية فى الحديث ، فليس فى الكون موضوع أو شأن غير متصل بالله ، وظهور الصبغة الربانية فيه ، هو المقتضى الضرورى أو المقتضى الحتمى لهذه الصلة .

أما تجريد أى موضوع عن الصبغة الربانية فهو شأن الذين يعزلون الحياة عن الله ، أو يعزلون الله ـــ حاشاه ـــ عن الحياة فتكون الحياة بذلك زيفا فى زيف ، ويكون الكلام عنها غير ذى موضوع لابركة له ولا علم فيه .

ولتحقيق هذه الصبغة فى كلمات الداعية نسوق بعض التوجيهات لما يلتزمه الداعية فى الدرس والمحاضرة ، مقدمة للحديث الخاص الذى ستقدمه عن كل من : المحاضرة ـــ الدرس ـــ الخطبة ـــ المقالة ـــ الحديث العادى كل على حده وبالله التوفيق :ـــ

١ ـــ درس الداعية غير درس الأستاذ فى المعهد أو المدرسة .

أ ـــ فالداعية لاتعنيه ـــ مثلا ـــ دروس الجغرافيا والكيمياء والنحو .. الخ .

ب ـــ وطريقة الدرس لدى كل منهما مختلفة عن الأخرى .

فدرس المدرسة يهتم له مدرسه باستيعاب التفاصيل والجزئيات ، وإلا عد مقصرا ، لأن مهمته إفادة دقائق الباب .. أما درس الداعية فيهتم له بالرقائق والقواعد والمعانى العامة فالدرس فى الصيام ـــ مثلاً ـــ يعرض له أستاذ المعهد من ناحية الأحكام الفقهية فيتكلم عن تقدير وجوبه .. وعلى من يجب .. وعلى رؤية الهلال وعدم رؤيته .. وعلى النية .. ومايفطر وما لايفطر .. الخ .

أما الداعية فيعرض له ـــ مثلا ـــ من ناحية أنه سر بين العبد وربه يستعين فيه العبد بمراقبة الله على إتمام صومه وأثر ذلك فى تنبيه مشاعر النفس لها وأثرها فى ترقية خصاص الإنسان .. الخ .. ويستطرد منه إلى معنى الأمانة فى الصيام ، وأثرها فى ضبط سلوك الفرد وتصرفاته ، وفى توثيق روابط المجتمع ، فإن كلا من السمع والبصر واللسان واليد أمانة وعلى كل جارحة من هذه صيام معروف « ماهو ؟ » ولأمر ما قال تعالى : ﴿ إن **السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾[1] وأحاديث الرقائق وآياتها الواردة فى الصيام كثيرة جداً وهى بمثابة مناجم لاستخراج ذخائر الحقائق ، والمعانى التى

(١) سورة الاسراء الآية ٣٦ .

تزكى نفسه وتسمو بفكره وذوقه . وشاهدنا هو الفارق بين طريقة أستاذ الدعوة وأستاذ المدرسة وهدف كل منهما فى النهاية .

٢ ـــ والدرس فى صناعة التدريس له « عنوان » أو مايسمونه رأس الموضوع .. أما درس الداعية فيدور ـــ عادة ـــ حول آية كريمة أو حديث نبوى .. ومراعاة للفارق السابق يجتنب الداعية « الأسلوب الفنى » المختص بحُجر الدرس فلا إعراب ولانظر للأسلوب التقليدى فى التفسير ولااستيعاب لما تتضمن الآية أو الحديث محورا تتجمع حوله خواطرك المفصلة .. ويكون هذا المعنى هو الطرف الذى تتناوله لتبدأ منه الحديث فى هوينى .

فإذا ذكرت أنك داعٍ إلى الله وأذبت قلبك فى معنى الآية أو الحديث ، أحسست حكمة النص القدسى رحيقاً من العلم بين جنبيك فاختر من هذا الرحيق تكملة حديثك ، وليكن درسك هو موضوع قوله عليه السلام : « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى** .. الحديث » فإن المعنى العام للحديث واضح ، فدع ماتفيده « إنما » فى الفقرتين ، ودع خلاف العلماء فى مدى ارتباط العمل بالنية ، وابدأ درسك متطامناً عن الطرف الواضح ، الذى عبره لكل معنى الحديث الشريف .. وأخلصُ إلى أننا بإزاء طرفين : أحدهما فى الضمير وهو النية ، والآخر فى ظاهرة الواقع وهو عمل الإنسان .. وبين هذين الطرفين أوثق صلة ، فإن العمل هو صورة النية حسنة أو رديئة .. والنية هى الروح الذى يسكن العمل .. وهنا يجد نفسه بإزاء حقائق فلسفية أو روحية جليلة هى لب إنسانية الإنسان وصلاحيته الحضارية .

ولكنا نختار له مسلكا آخر فالنية عمل القلب .. فإذا كان القلب مقبلاً على شهوات النفس وأهواء الحس ولذاته ، متأثراً بها ، كانت نياته من هذا القبيل .. وإذا كان القلب مقبلاً على الله راغبا فيما عنده ، كانت حقائق ملكوته وخيراته التى لاتنفد تحت تصرفه ، وكانت نياته قدسية متجانسة لتلك الحقائق .

... وبما أن العمل هو صورة النية فإن الأول تكون أعماله صورة لأهوائه وشهواته .. وتكون أعمال الثانى صورة لإقبال قلبه وسعيه فى قدس الله .. قدس حكمته ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً** ﴾[١] ورحمة ﴿ **ورحمة ربك خير مما**

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٩ .

يجمعون ﴾[1] ورعايته ، وسلطانه ، ونصره الذى لايقوم له شيء فى السماء ولا فى الأرض .. وبما أن النية تسكن الأعمال ، وتثمر فيها هذه الثمار ، كان العمل هو الوسيلة التى يحقق بها لنفسه هذه المغانم .. ولذا كان من فضل الله لأنبيائه أن يرزقهم سر النية القدسية .. وهى معرفة ـــ والعمل بمقتضاها :

ياموسى ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا .. فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ﴾[2].

ويقول عيسى ﴿ إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا .. وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا وبرا بوالدتى ﴾[3] ويقول لمحمد صفوة خلقه ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾[4] وإبراهيم يعرف ذلك كله فيقول : ﴿ رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ﴾[5] إلى غير ذلك من الشواهد .

فالنية القائمة على معرفة الله لاتثمر لصاحبها بدون عمل . وقد جاء فى القرآن أن يونس لما التقمه الحوت واحتوته ظلمات المحنة دعا دعوته المعروفة . فنبذه اليم بالعراء وهو سقيم يقول الله تعالى ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾[6]. أى لولا أنه كان من العاملين بطاعة الله .

وقد أخبر الخضر عليه السلام أنه أقام الجدار رعاية لغلامين يتيمين وكان أبوهما صالحا فعمل الأب بعد وفاته ظل محتفظا بما ضمّنه القلب إياه من نية أى ظل محتفظا بسر حياته على نحو لاتدركه عقولنا فهو كما مثله الله تعالى : ﴿ مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ... تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ... ﴾[7] الآية . وهذا الأكل ليس أطعمة مما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين .. إنما هو ثمار من الغنى بغير مال .. والعز بغير عشيرة .. والجاه بغير منصب .. والجند الخفى المسخر لمشيئتك ـــ بإذن ربك ـــ بعلمك أو بغير علمك

---

(١) سورة الزخرف الآية ٣٢ .
(٢) سورة طه الآية ١٤ .
(٣) سورة مريم الآية ٣٠ : ٣٢ .
(٤) سورة محمد الآية ١٩ .
(٥) سورة الشعراء الآية ٨٣ .
(٦) سورة الصافات الآية ١٤٣ ١٤٤ .
(٧) سورة إبراهيم الآية ٢٤ .

فى حياتك أو بعد موتك .. فإذا كان هذا شأن (كلمة طيبة) فكيف بعمل طالما تعاون عليه اللسان مع العين وسائر الجوارح وقد ضمنه القلب من معرفة الله ماهو سر كل طاقة ونعمة فى ملكوت السماء والأرض ؟ لاجرم يكون خالدا بخلود مافيه من حقيقة المعرفة والنية ممثلا لمبادىء صاحبه وقيمه ورغباته منجزا له بإذن ربه من أقدار الله مايرعى الله به نبيه ، وماكان الخضر عليه السلام إلا رمزا أو صورة محسة لقدر هذه الرعاية ﴿ **وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك** ﴾[1] الآية . فالسر الذى تحركت به أقدار الله يكمن فى قوله تعالى : ﴿ **وكان أبوهما صالحا** ﴾[2] أى فى العمل الصالح الذى تركا أبوهما وهنا قد تذكر الموعظة الخالدة التى وعظ بها رسول الله منوهاً بالطاقات العلوية التي تكمن فى الأعمال الصالحة إذ قال : إن غاراً انطبق على ثلاثة رجال بصخرة ضخمة لاقبل لهم بزحزحتها فأخذ كل منهم يذكر عملا صالحا له لما يعلم للأعمال الصالحة من إيجابية عند الله فلما انتهى الثلاثة من ذكر كل واحد لعمله ضارعاً إلى الله أن ينجيهم بحق هذا العمل حتى انفرج الغار بتنحي الصخرة عن منفذه ونجوا .

وبمناسبة ذكر الخضر ــ عليه السلام ــ قد تلمح إشارات في قصته مع أصحاب السفينة إشارات تقرر الخصائص التى يكون بها للعمل الصالح ثماره الخفية إلى ثمرته المعجلة الظاهرة فهم كانوا (مساكين يعملون فى البحر) .

والمسكنة لدى أرباب المعرفة هي انخلاع المرء لله من الشعور بحوله وطوله أى من جاه مواهبه وماله فإن ذلك فى الحقيقة فضل الله لافضله هو ومن صدق معرفة الإنسان لربه ولنفسه أن لايتنحل شيئاً من ذلك لنفسه ولايكون بضميره إلا إحساس الاضطرار والافتقار إليه تعالى .. وإذا كانت هذه الخلال من ثمار معرفة الله وقد شهد الله لأصحاب السفينة بها لاجرم كان لهم حظهم من معرفته تعالى .. وذلك سر حياة العمل وثمره وأما قوله (يعملون) فدال على أنهم كانوا من أهل العمل والجد فى الكسب الحلال .. والعمل هو صورة النية والمعرفة .

---

(١) سورة الكهف الآية ٨٢ .

(٢) سورة الكهف الآية ٨٢ .

وأما ان عملهم كان « فى البحر » فإشارة إلى حال القلق الفاصلة بين من يعمل فى البحر ومن يعمل فى البر فالأول دائم التطلع إلى الله طلبا للنجاة من مخاوف البحر ومهالكه .. والبحر لدى أرباب الإشارات رمز لما فى الدنيا من لجج الفتن والمعاطب ولأمر ما ، أثني الله على الذين يشفقون من خشيته بأنهم ﴿ يؤتون ما أتوا ﴾ أى يعملون ماعملوا ــ وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾(١) هذه الحقائق الثلاث : المعرفة بالله ممثلة فى فقه المسكنة .. والعمل المقوم على مقتضى المعرفة .. والفرار إلى الله من مهالك الحياة هى منهاج الحياة الذى يوفر لصاحبه أكرم الثمر الروحي والحسى ويضفى عليه من مقادير الرعاية مايخطر بباله ومايخطر وكان الخضر عليه السلام رمز القدرة الذى رعى به الله أصحاب السفينة من غضب الملوك فإن عملهم الصالح قد تضمن سنة الرعاية إذ قال ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾(٢)

وإذا كان هذا شأن النية بالنسبة للعمل فقد قال عليه السلام فى بقية الحديث : « فمن كانت هجرته إلى الله .. ومن كانت هجرته إلى دنيا .. الحديث » أى أنه فوض لكل فرد أن يبنى بيده العاقبة التى يريدها لنفسه .. فإن أراد لها ماعند الله من نصرة وتأييد ويسر فليحضر لذلك نيته فى ضميره وليضمنه مايزاول فى الحياة من عمل .. وإن أراد العرض الأدنى ولذة الحس وتحركت بذلك أهواؤه وجعله روح عمله فقد أراد لنفسه الخذلان وتهوله فداحة التفريط حين ينكشف عنه غطاؤه فى لحظات مغادرته للدنيا فيصيح ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾(٣) وهيهات .

ومما لاشك فيه أن الحديث أغزر مادة وأبعد غورا ولكنا ماأردنا الاستيعاب بل أردنا لونا من تفاعل نفس الداعية مع قدسية المعنى النبوى تأليق الخواطر التى يستدعيها هذا التفاعل لتكون مادة الدرس الذى يدور حول المعنى العام للحديث الشريف وهو نهج غير نهج الدروس الفنية التى تلتزم مانجده فى النووى مثلا لشرح هذا الحدث ومثله .

٣ ــ يراعى فى الدرس الربط الدائم بين مادته ــ خواطره وعناصره ــ وبين واقع

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٦٠ .
(٢) سورة الكهف الآية ٧٩ .
(٣) سورة المؤمنين الآية ٩٩ : ١٠٠ .

أحوال الناس وقضاياهم .. فقد يكون الحديث عن الرجل الصالح أبى الغلامين داعيا لإثارة الرغبة فى نفوس من يخشون من بعدهم على أولادهم الصغار أن يصنعوا لأولادهم ظلة من رعاية الله كما صنع هذا الرجل ولا يكلفهم هذا إلا أن يعرفوا قدر الله على مثال ماعرفه أصحاب السفينة .. والكلام عن أصحاب السفينة قد يكون داعيا لتوسيع الدائرة فيدخل الفلاح والراعى والصانع والبائع والموظف إذا هو حقق لنفسه وجدان الاضطرار والافتقار إلى الله والخلع من الاعتزاز بما له من جاه المال والموهبة .

المحاضـــرة :

١ ـــ ومحاضرة أستاذ الدعوة غير محاضرة أستاذ الجامعة من حيث أن الداعية لاتعنيه محاضرات الفلك والطب والاقتصاد .. ونحوه . وأستاذ الدعوة كأستاذ الجامعة لابد له من الرجوع إلى المصادر العلمية لجمع ماتفرق فيها من مادة موضوعية لكنهما يفترقان بأن أستاذ الجامعة يعنى بالجزئيات والتفاصيل أما الداعية فبعد الإحاطة بمادة الموضوع يكتفى بالقواعد والأحكام العامة حرصا على انتباه سامعيه واستمرار نشاطهم .. ومن هناك قد ينتهى أستاذ الدعوة من موضوعه فى محاضرة واحدة وأستاذ الجامعة يحتاج للانتهاء منه إلى عدة محاضرات .

٢ ـــ يبتعد محاضر الدعوة عن الصيغة المدنية البحتة كما يبتعد عن الأسلوب الأكاديمى فلن يحمد له الناس أنه مدنى الأسلوب بل أنه يفجؤهم بغير مايتوقعون وبغير مايريدون .. إلى أن ذلك يعتبر إخفاقا له فى مهمته إذ هو داعية إلى الله عن طريق العلم فإذا خلا أسلوبه من لون الدعوة فقد خرج من زمرة الدعاة دون أن يلحقه ذلك بزمرة الجامعيين أو سواهم .. فعلى أستاذ الدعوة أن يذكر دائما أنه يأمر بمعروف وينهى عن منكر ومن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى الأرض كما يقول الرسول عليه السلام .. والأمر بالمعروف هو فى الحقيقة تعريف بالإسلام فى شتى موضوعاته والنهى عن المنكر هو نقد لبق لسير المجتمع وعيوبه .. وذلك كفيل بتحقيق الصبغة الربانية لمحاضرة الداعية مادام يلتزم استمداد الكتاب والسنة مشيرا إلى وفائهما وغزارة وعمق حكمة الله فيهما .. إلى أن ذلك يكفل له دوام انتباه السامع لأنه سيكون معه دائم التنقل بين مثالية العلم ولمحات النقد لسير المجتمع أو خطئه فى التطبيق ويتحقق له بذلك كله اقتناع السامع تلقائيا ـــ دون إملاء ـــ بسداد ماشرع الله .. وتلك غاية غايات الداعية .

٣ ــ والمحاضرة بالنسبة للداعية تفترق عن درسه فى أن لموضوعها « عنوانا » يدل عليه والدرس موضوعه ــ عادة ــ آية كريمة أو حديث نبوى .. ذلك إلى أن « الخط العلمى » فى المحاضرة أبين منه فى الدرس فإن المحاضر إذ يعود من شتى المصادر يجد نفسه مكلفا بتصفية ماحصل من معلومات وجمع مااستخلصه فى قواعد وأحكام عامة ثم يرتبه فى نسق يربط المقدمات بالنتائج ويؤلف من الأشباه والنظائر باقة منسقة المنطق .. وقد يكون موضوعه اجتماعيا أو اقتصاديا أو سياسيا كما قد يكون من شؤون المعتقدات والعبادة فيلتزم فيه هذا الخط العلمى الذى تنتظم فيه عناصر البحث وأحكامه العامة فى منطق تتكامل فيه وحدة الموضوع أما الدرس فالعناية به تتركز حول « تجميع الخواطر » على محور معنى الآية أو الحديث واستدعاء الآيات والأحاديث ذات الصلة بهذا المحور مع الإشارة إلى نماذج السلوك الشعبى التى تتصل سلبا أو إيجابا بلب الدرس .. ومن ثم يكون لكل من الدرس والمحاضرة طابعه كما أن لكل منهما مقامه .. والآن نقدم الحديث الخاص عن كل من المحاضرة والدرس .. الخ .

١ ــ المحاضـــرة

(أ) يختار موضوع المحاضرة ــ طبعا ــ من صميم ماتجرى به الحياة وهذا يقتضى الداعية أن يكون متصلا بهذه الدنيا منفعلا بما يجرى فيها من خير وشر وحلو ومر ومعروف ومنكر فما كان من صالح رضى به وحمد الله عليه . وماكان من فاسد قام له وأخذ فى علاجه وتغييره بوسائله الحكيمة وموعظته الحسنة .

ومعنى هذا أن الداعية يختار موضوعه مما يعرض له من قضايا الحياة أو مما تمليه الحياة عليه .. ومثل هذه الموضوعات يجعله أقرب إلى قلوب الناس وأملك لزمام انتباههم وعواطفهم .. فلا تجعل الموضوع يعرض نفسه عليك فتهرب منه أو تقعد عن الاستجابة له فالحياة فى هذه الحال هى التى تختار لك واختيارها أصدق اختيار لأنه إلهام الله وصوت القضاء وصدى ماجرى به القلم فى أم الكتاب ولأمر ما ــ نزل القرآن الكريم منجما على حسب الحوادث ومقتضيات الأحوال .

وطبيعى أن الموضوعات التى يوحيها محيط الزراع غير التى يوحيها محيط الطبقات المظلومة من العمال .. وللطلاب آمال ولهم موضوعات غير التى تجرى فى المحيطين السابقين ولصغار الموظفين مشكلات وأزمات نفسية ومالية لايتبينها إلا من يصغى إلى

شكواهم ويقف على أحوالهم وفى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وفى المعاملات التى يلقاها بعض الطوائف من بعض ، وفى طبيعة السلوك الاجتماعى الذى تجرى عليه حياة بعض الطوائف أو الطبقات ، وفى اختلال الموازين التى يزن بها الناس خلق الرجل وشخصيته ونجاحه وفى نظام الدواوين والتعليم والمحيط التجارى والإدارى والسياسى فى هذا وفى غيره موضوعات أنت فى غنى عن بيانها لأنها شاخصة مستعلنة تفرض نفسها وحوادثها على جهازك العصبى اللاقط .

(ب) يجب أن يكون الموضوع مدروسا دراسة وافية مستفيضة محللا إلى عناصر بارزة وخطوات واضحة مرتبة ترتيبا طبيعيا ينتقل بالسامع من حلقة إلى حلقة ويفضى فى النهاية إلى خاتمة يحسن السكوت عليها فإذا كنت تريد التحدث إلى طائفة من الشباب المثقف — مثلا — عن مقومات الإنسان الفاضل الذى ينشدونه وينشده معهم الإخوان المسلمون كان من السهل عليك أن تفترض فى هذا الإنسان وجوب وجود عنصر علوى باطن يمده بأسباب العزة وكرائم القيم والمبادىء أما الذليل التافه فليس لنا به حاجة ثم يجب أن يكون لهذا الإنسان رسالة فى الحياة يعمل جاهدا لتحقيقها أما الرجل الذى يعيش بلاغاية معينة ولامبدأ معروف فهو من السوائم الهمل .

وأخيرا لابد له بعد العزة والرسالة من العلم ليكون من أمره على هدى وبصيرة ومن لاعلم له لا بصر له .

فدعائم البناء إذن : عزة ورسالة وعلم فإذا أوضحت ذلك أقنعت سامعيك بما تريد أما الكلام المرسل بغير نظام فخيره غير متحقق .

(جـ) أن تستحضر لكل عنصر مايؤكده ويوضحه من كتاب الله وسيرة رسوله ﷺ قولا وعملا أو سيرة صحابته أو عبر التاريخ أو حوادث مما تسمع أو تقرأ أو تشاهد .

فإذا كنت بصدد شرح العزة فى الموضوع السابق مثلا وجدت طبيعة العنصر تلهمك أن العزة معناها ألأ يذل المرء لمخلوق مثله وهو يذل فى هذه الحالة لغرض من اثنين : ليدرك منفعة شخصية أو ليدفع ما قد يؤذيه فى رزقه أو نفسه وحينئذ يزدحم حولك نصوص كثيرة من كتاب الله وأحاديث الرسول تؤكد لسامعك أن الاسلام يغرس العزة فى نفس المسلم ويذهب بأصولها إلى أبعد الأعماق فهو من ناحية ابتغاء المنافع والخوف على

الأرزاق قد علم أن رزقه فى السماء وماكان فى السماء فهو مصون بعيد عن أن تتطاول إليه يد عابث من أهل الأرض .. ويعلم كذلك أن الله قد فرغ من قسمة الأرزاق بين الناس قبل أن يخلقهم وقد جفت الأقلام وطويت الصحف على ذلك فليس للحوادث بعده أن تجرى على خلافه والقرآن والسنة حافلان بما يشبع رغبتك فى هذا الباب . ولابد من الحملة طبعًا على أولئك الذين يذلون أنفسهم ويذلون أخلاقهم وأعراضهم زعما بأن ذلك هو سبيلهم إلى مايصبون إليه من جلب المنافع أو درء المساوىء .

وما أحراك أن تفرد حملة خاصة على أولئك الذين يتعبدون بالمثل السائر « إن كان لك عند الكلب حاجة قل له ياسيدى » أما الاستكانة إلى الذل تخوفا على النفس مما يصيبها من أذى القتل أو الضرب أو السجن أو نحوه فالمسلم قد ربى على قول الله عزوجل : **﴿ ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾**[1] .

وإذا أقدم المسلم فى جرأة وشجاعة فلامه اللائمون من الجبناء ، وحذره الحذرون من الضعفاء ، ألقى الله على لسانه ردا حاسماً . **﴿ وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلاً ﴾**[2] .

وإذا اعتراه فى موقف من مواقف البأس ذبذبة أو تردد ناداه هاتف العقيدة من أعماق نفسه **﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لاتمتعون إلا قليلا ﴾**[3] وسيجتمع عليك الكثير من نصوص القرآن والسيرة وكل منها يعرض نفسه عليك فاقرأ ماتختار منها مرتبا واضحا على قدر ماتراه وافيا بأداء غرضك .

ويجب أن يتحكم فى الاختيار وفى ترتيب العناصر وفى جمع الشواهد وفى سوق الحديث يجب أن تتحكم فى ذلك كله العقلية العملية ممثلة فى مظاهرها التى تقدمت فى بيان مزاج الداعية حتى لاتكون غامضا ولانظرياً واحذر فى تقسيم موضوعك أو بيان حقيقة عنصرك أن تنحو نحو التقسيمات الفلسفية أو التعمق النظرى ففى موضوع مقومات الإنسان الفاضل الذى ننشده لم نذكر لك كل شىء وقد يأتى غيرى بغير ذلك لأنه لم يكن من همنا الاستقصاء الفلسفى الذى يغوص وراء الفروض والعلل وإنما أخذنا

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٢ .
(٢) آل عمران ١٤٥ .
(٣) الأحزاب الآية ١٦ .

ثلاث لمحات أضاءت لنا من محيط الفطرة فى بساطة ووضوح ولو أننا أردنا الاستقصاء لما فرغنا من البحث إلا بعد عناء بل ولا بعد العناء ، فقد لانخرج إلا بالخلافات التى يضرب بعضها بعضا والنظريات التى لم ينته أصحابها من التدليل على صحتها بعد .. كان همنا حين الاختيار أن نسوق كلاما تقبله فطرة السامع وعقله وكفى ، أما أنه جامع مانع فلا ، ومع أننا نقصد أن يكون كذلك فهو فى الحقيقة جامع لأن الخير فى الإسلام وإن تعددت صوره يرجع إلى معين واحد فإذا نشأت طفلا مثلا على فضيلة ماألفيت ذلك يعود بالتربية والتنمية على الفضائل الأخرى وذلك من أسرار الله فى شريعته .

(د) يجب أن يعد فى عناصر المحاضرة مايفهم منه أن الناس يجنون فى الدنيا لا فى الآخرة فحسب ثمر مايبذلون فى سبيل الإصلاح من عمل صالح وتضحيات لوجه الله وثبات على المبادىء الفاضلة وحق على مقاومة الفساد ـــ يجب العناية بإبراز هذا المعنى لا لأنه يشرح الصدور ويشحذ العزائم ويجدد الآمال والهمم فحسب بل لأنه هو منطق الحياة وقانون الوجود الذى لايتخلف فلكل شيء ثمن ولكل عمل أجر ولكل جهد بدنى ونفسى ثمر من حسنة فى الدنيا والآخرة وعاقبة كل أمر ليست إلا نيتك التى بدأته بها وهو من قوانين الله التى لاتتخلف فى حياة الأفراد ولا فى حياة الجماعات والأمم والكسل لايهب إلا الحرمان والفوضى لاتورث إلا الخيبة والأنانية لاتعقب إلا التنازع والتفكك والفشل .

(هـ) يجب أن يكون غرض الداعية من كل ذلك إحياء المشاعر الإلهية وبث خواطر الخير والتقوى فى القلوب فكل موضوع يجب أن يعالج على هذا الأساس وبعبارة أخرى : يجب أن يكون للداعية فى موقف المحاضرة هدفان أساسيان : الأول : علاج موضوعه الخاص . الثانى : إحياء هذه المشاعر القلبية إحياء ربانيا على أن يكون الغرض الأول مقصودا لذاته ومقصودا كوسيلة للغرض الثانى ويجب لهذا أن يساق للسامع مايشعره بأنه مسؤول ومحاسب وبأن عين الله ساهرة تطلع عليه وتحيط بظاهره وخفى سريرته . وأن الإنسان قادر على أن يجعل مايدور فى هذه السرائر خيراً محضا يرضى الله ويسعد العباد والسعيد من جعل نفسه زكية مطهرة . اجعل ذلك فى عنصر واحد إن اقتضاه المقام أو اجعله شائعا فى العناصر كلها إذا أوجبته المناسبة أو اجعله فى بعض العناصر دون بعض اخضع فى ذلك لذوق الموضوع وذوق عقليتك العملية .

(و) وأرى أن تحدث بينك وبين جمهورك تعارفا عاطفيا قبل أن تبدأ فى حديث محاضرتك .. فإن مطالعة الجمهور بالموضوع مباشرة تفاجىء مشاعره بأمر لم يتهيأ له .. إن المشاعر بيوت مغلقة وقد ينهانا القرآن عن أن ندخل بيوتا غير بيوتنا حتى نستأنس ونسلم على أهلها .

فلابد من هذا الاستئناس أو التعارف العاطفى كما أسميناه ويكون هذا على صورة استفتاح سهل مبسط يتناول أمرا هيناً مما تدركه الأذهان فى يسر بل مما لايحتاج فى إدراكه إلى أقل جهد فى طريقه أو نبأ قرأه أو سمعه أو ملاحظة لاحظها فى الحفل أو فى كلمة خطيب سابق إلخ .

على أن يكون هذا كله ذا صلة بالحفل وبالدعوة التى تعمل لها صلة مباشرة أو غير مباشرة ثم يعلق على استفتاحه تعليقًا يسيراً ملونا بلون المزاح إذا اقتضى المقام المزاح ، وبلون الاستبشار إذا أوجب المقام إزجاء البشرى أو بلون آخر من ألوان العواطف والمشاعر التى تقتضيها الحال فإذا أقبلت عليك القلوب وتفتحت لك النفوس فقد تحول تيارها إليك وألقت بأزمتها بين يديك فبادر فى الحال بالتقاطها وصل خيوطك بخيوطها ثم اخلص إلى موضوعك بما لايغير عليك أنس جمهورك بك ولاتطالبن بضرب مثل ، فإن هذا ليس من القواعد التى تعلم بل من وحى الذوق ، وإلهام الطبع اليقظ ويكتفى فيه بالتنبيه إليه .

(ز) وهناك حقيقة يجب الالتفات إليها وهى أن المحاضرة لاتنضج فى ذهن الداعية إلا بمرور الزمن وكثرة الإلقاء فعليك أن تلقيها مرة ومرة ومرة وعشرات المرات أو أكثر من ذلك فى أماكن مختلفة وعليك أن تنقد نفسك عقب كل مرة تلقى فيها محاضرتك ووازن بين موقفك فى آخر كل مرة وسابقتها فهذا يكسبك ثباتاً وقدرة على التوضيح وسهولة فى سياق العبارات والألفاظ ثم إن كثرة الترديد على ماذكرنا تعين على اختيار المعانى بعضها بعضا وتزداد سمواً وقيمة فلا تخش من نفسك أن تقول لك : إن تكرار المحاضرة الواحدة فى الأماكن المتعددة عى وعجز ولاتخش إذا صاحبك أحد فى رحلاتك أن تظن أن التكرار يوحى إليه بقلة معارفك فكل هذا من خواطر الشر فإن الحقيقة لاينقص من قدرها أن تتكرر ولاينقص من قدر صاحبها أن يكررها فحسب الإنسان أن يكون على حق وأن يدعو إلى حق على أن من مزايا الإعادة أن يزيد الداعية إيمانا وتضلعًا وتعلقاً بما يقول .

أما إذا أجهد الداعية نفسه فى تحضير المحاضرات الكثيرة المتعددة النواحى لكى يقنع غيره بأنه بحر لا ساحل له من المعارف يتكلم فى كل بلدة بما لايتكلم به فى غيرها فذلك منهج فى الدعوة لايثمر ولا يفى بإقناع الناس بحقيقة من الحقائق فضلاً عن أنه من إملاء الأنانية والرياء والسمعة وحسبك أن تعلم أن رسول الله ﷺ أمضى حقبة من عمر رسالته فى مكة يقول إذا عرض نفسه على القبائل قولا واحدا لايغيره « أدعو إلى أن تعبدوا الله وحده وأن تخلعوا هذه الأوثان التى تعبدونها من دونه وأن تمنعونى حتى أبلغ عن ربى » وذلك لأنه إنمايبلغ حقيقة ويدعو إليها وليس من همه إثارة إعجاب الناس بمواهبه وملكاته العقلية واللسانية .

٢ ـــ الـدرس

جرى عرف الوعاظ والدعاة ـــ غالبًا ـــ على أن يكون موضوع الدرس آية من كتاب الله عزوجل أو حديثاً من سنة رسوله ﷺ وفى رأيى أن الدرس أشق من المحاضرة أو بعبارة أحكم ، الدرس أحوج إلى دقة الداعية وحساسيته من المحاضرة فالمحاضر يحصر همه فى إقناع الجمهور بموضوع معين ولا يعنيه من الآية أو الحديث إلا وجه واحد من وجوه الدلالة هو الوجه الذى يتصل بغرضه أما المدرس فالآية تفرض عليه الدقة وطول التأمل والوقوف عند كل كلمة بل عند بعض الحروف أحيانا وفى كل وقفة من هذه إشارات ومعارف وعلوم إلهية تلتمع أنوارها فى صدر الباحث فإذا به ينشرح ويتسع ويفرح بفضل الله .

ومن هنا أحب أن أنبه إلى أن الدرس يجب أن يكون أحفل بالرقائق التى تحرك القلب وتخاطب الوجدان فإذا أفسحت لك الآية بين كلماتها وشفت لك عما وراء سطورها فاستخرج ماتشاء من المعانى ثم أثبته واربط بين بعضه وبعض ثم وسع دائرة الحديث بما يتصل بالمعنى من آيات الكتاب وسنة رسول الله وصحابته وأخبار الناس قديمًا وحديثًا وصل ذلك ـــ ماأمكن ـــ بحوادث الحياة وواقعها العملى .

ودرس الحديث كدرس الآية فى كل ماذكر .

وعندى أن الدرس أكثر فائدة من المحاضرة .. فالدرس ميسور لك فى كل وقت فما عليك إلا أن تجلس فى ناديك أو مسجدك لتلقى درسك على من يحضر من خلق الله وهذا لايكون فى المحاضرة . ذلك إلا أن قلة عدد من يحضر الدرس ـــ عادة ـــ تمكن

المدرس من التأثير برقائقه فى قلوب مستمعيه ومن إنشاء صلات روحية تعارفية عملية بينه وبينهم فيكونون معه غالباً على مايريد .. أما جمهور المحاضرة فقد جاء غالباً (ليسمع) .. ويقضى وقتا ما فإذا استولى المحاضر على ألبابهم وإعجابهم كان أثره « وقتيا » لدى الأكثرين وماأقل من يقع فى يدك من مستمعى المحاضرة ليكون جنديا من جنود فكرتك .

ولست بهذا أضع من شأن المحاضرة لكننى أردت أن ألفت نظر الذين يضيعون كثيراً من الوقت فى انتظار فرص المحاضرات فلا يتكلمون إلا حين يجتمع الناس للمحاضرة .

ولايكفى أن تكون ذا يقظة تامة لما تقرأ وتعى من كتاب الله وسنة رسوله لايكفى ذلك لتؤثر فى النفوس فقد يكون شعور سامعك أقل يقظة من شعورك فلابد قبل أن تدلى بمضمون آيتك أو حديثك أن تهيىء سامعك تهيئة أنت صاحب السيطرة عليها بذوقك ولباقتك وتجاربك .

حدث سلمان الفارسى ـــ رضى الله عنه ـــ قال : كنت مع رسول الله ﷺ تحت شجرة فأخذ منها غصناً يابسًا فهزه حتى تحات ورقه فقال : ياسلمان : ألا تسألنى لِمَ أفعل هذا ؟ قلت : لم تفعله ؟ قال : إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما تحات هذا الورق ، وقرأ ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾[1] .

ألا ترى أن عقولنا وقلوبنا بعد هذا التمهيد العملى الجميل صارت أكثر تقبلاً بل أكثر حيوية وسرورا بما مازجها من أنوار الآية وحسن توجيهها ؟ .

وإن أحدنا لن يبلغ من يقظة الشعور والعقل مابلغه ﷺ ولن يكون قلب أحدنا حيًّا بالقرآن كما كان قلبه عليه السلام ومع ذلك رأى الرسول الكريم أن يكون حسن التأتى فى عرض مواعظ كتاب الله فنحن إلى هذا المنهج أشد حاجة منه عليه السلام وذلك وحى الفطرة الملهمة وفضل العقلية الواقعية اللبقة .

ويمكن أن يتسنى للإنسان الكثير من هذه التمهيدات التى تنبه الذهن وتمهد الطريق إذا هو أحسن فهم الآية أو الحديث وأحاط ببعض إشاراتها ومراميها ثم استخرج من ذلك حكما ظريفًا يدعو إلى العجب أو لطيفة تستشرق النفس إلى معرفة ماتنطوى عليه ..

---

(١) سورة هود الآية ١١٤ .

ومثال ذلك أن بعض السلف الصالح سأل أتباعه وسامعيه : من منكم يحب أن يستوطن الجنة وهو فى هذه الدنيا ؟ فكلهم استشرف إلى ذلك ورغب فيه أشد الرغبة ، وكان وجه العجب فيه أن الآخرة هى موعدنا بالجنة ، فكيف ندخلها فى الدنيا ؟ .

فقال السلفى رضى الله عنه : عليكم ــ إذاً ــ بالتزام مجالس الذكر والعلم فإن كلا منهما روضة من رياض الجنة ومضى الرجل يستشهد لقوله بما قال الصادق والمصدوق ﷺ : « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا ، قال : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : حِلَقُ العلم » .

٣ ــ الخطبــة

تستطيع أن تلمح فروقاً اصطلاحية بين المحاضرة والخطبة فيما يأتى :

(١) يغلب على المحاضرة صبغة تقرير الحقائق وتثبيت المعانى . أما الخطبة فيغلب عليها صبغة إثارة العواطف والمشاعر والوعظ .

(٢) عناصر المحاضرة أشبه بالقواعد والأصول والأحكام أما عناصر الخطبة ، فأشبه بالخواطر العارضة والمعانى الطارئة .

(٣) تحتاج عناصر المحاضرة إلى الشرح والاستشهاد أما الخطبة فشأنها الاسترسال مع مايحضر من الخواطر والمعانى .

وأرى ــ شخصيًا ــ أن تكون الخطبة مرتجلة بل أرى أن تكون دروسك ومحاضراتك كلها مرتجلة .. أما محاضر الورقة وخطب الورقة فلا شأن لنا به ، إذ لاحاجة بالتهافت إليه ــ نعم قد يحتاج المرء إلى تحضير كلامه فى الورق إذا كان المقام يقتضى تحديد معانى الألفاظ وتبنى مرامى العبارات كهؤلاء السياسيين المسئولين أو المفاوضين الذين يضطرون إلى تضمين العبارات وتحميل الألفاظ معانى وإشارات لايستطيع الارتجال أن يفى بحقها فلنسم أمثال هذه الكلمات « بيانا » فإذا كان لابد من تسميتها خطبا فهى ليست من النوع المنهض الذى نريده .

ونعنى بالارتجال ، ارتجال الألفاظ فقط لا ارتجال المعانى والعناصر إذ لابد للخطيب الذى يحترم نفسه ويقدر واجبه أن يعرف ماسيقول .. لابد أن يعد لموقفه مادته من الأفكار والخواطر المناسبة وأن يهيئها فى نفسه وأن يجيلها فى ذهنه أكثر من مرة .

وهذا الارتجال المحضر هو ارتجال التركيز والبناء والثبوت والدوام فإذا وقف الداعية ليتكلم وقف وهو رابط الجأش ثابت النظرات مالك لزمام نفسه وزمام موضوعه مستند إلى ماأعد من ذخيرة فإذا فتح له فى موقفه عن جديد من الخواطر والمعانى فبها ونعمت وإلا فحسبه أنه ينفق مما لديه .

وهناك ارتجال غير محضر وهدف الغالب يعبر عن صدى الحوار فى نفسه أو هو استجابة لحادث أو رؤية أو سماع آثار مشاعره فلايزال يرتجل ويسترسل مع الدواعى الطارئة والحوافز العارضة حتى تنحل عقده النفسية ويشعر أن قد هدأت ثوائره فينتهى عند ذلك ارتجاله وهذا النوع لإثارة السامعين إثارة وقتية أو توجيههم إلى وجهة أو عمل مطلوب لساعته .. أما أنه للتركيز والإنشاء والثبوت فلا .

وهذا الارتجال الذى يقوم على حركة الوجدان لا يؤدى مهمة إلا إذا كان صاحبه يتمتع بموهبة أصيلة وتجارب سابقة . درسها وفكر فيها فيرتكز عليها كأنها نقط محضرة وبدون هذا يكون الكلام غالبًا غير مرتب وقد يمل لتفاهته وكثرة اضطرابه وكثيراً مانرى خطباء من ذوى الارتجال المرتجل تخونهم ملكاتهم فتسمع أحدهم يبدأ لك معنى من المعانى ثم لايلبث أن ينفتح له باب من الاستطراد فيستطرد ثم يرسله هذا الاستطراد إلى باب آخر وهكذا .. حتى ينسى معناه الأول فمن يرضى لنفسه بمثل هذا ؟

حقاً إن أحد هؤلاء قد ينجح فى ستر موقفه عن أكثر السامعين ولكن المسألة ليست مسألة ستر الموقف أو عدم ستره فالداعية ليس بهلواناً أو مشعوذا يموه على الناس ويستر عنهم أخطاءه وأكاذيبه .. إن الداعية بصدد رسالة ذات أهداف فهل أصاب أهدافه أولا .. وهل حقق المهمة التى يدور عليها الكلام أو ستر موقفه وسكت ؟ .

٤ ـــ المقـــالة

يجب هنا أن يلاحظ الداعية أنه يكتب للناس كافة عالمهم وجاهلهم الأمى فيهم وغير الأمى وهذا يقتضيه أن ينزل إلى المستوى الذى يألفه الجمهور فى فهم مايقرأه أو يسمع مستوى الألفاظ السهلة والأفكار الواضحة وحسب الفكرة وضوحا أن تكون نابعة من القلب فتكون ـــ مثلاً ـــ تعبيراً عن عاطفة وطنية أو تصويرا لوجدان دينى أو عرضا لتجربة إنسانية أو نقدا بناء لإتجاه المجتمع وأقوال الناس .

فإذا كانت الفكرة ماضية بروح العاطفة فهي لاشك سهلة واضحة .

هذا ووضوح الفكرة لايغني عن وضوح اللفظ أو عن نزول اللفظ إلى مستوى الجماهير .

سأل أحد الدعاة : مارأيك في كتابتي ؟ فقال له صاحبه : إن أسلوبك مما بضاعتك فوضعها في شرفات الدور الأعلى فرجل الشارع لايراها ولايتأثر بها وإن كان أهل الطبقة العليا يرونها ويعرفون لها مزاياها .. ولو أنك نزلت ببضاعتك فوضعتها في معارض الدور الأول لرأها الجميع وانتفع بها رجل الشارع .. فقال الداعية ـــ وقد أحس لهذا القول مرارة ـــ إننا مكلفون أن نرفع الجمهور إلى مستوانا لا أن ننزل إلى مستوى الجماهير .. فقال له صاحبه : لو أنك أستاذ في اللغة والأدب لحق لك أن تقول هذا ولكنك صاحب دعوة وقائم على رسالة ، مكلف أن تقابل الجميع وأن تكلم الجميع وأن تفهم الجميع .. فإذا لم تخاطب الناس على قدر عقولهم أضعت الوقت وأخفقت في الرسالة .. ألا ترى إلى التاجر يحتال في عرض تجارته وتنسيقها تنسيقاً مغريا بالوقوف عليها أو الشراء منها .. فأنت كذلك تعرض على الناس تجارة فانظر كيف تثير أشواقهم وأذواقهم إليها .

ونقرر على مامضى أن الجماهير من حيث الإقبال على القراءة كالطفل الممعود (الذى بمعدته مرض) إذا رأى الطعام أشاح بوجهه وانقبضت معدته في جوفه فلايزال به أبواه يغريانه ويلطفانه ويثيران شهواته ويحتالان لتحبيب الطعام إليه لعل أن يأخذ منه شيئاً يقيم به أوده .

نعم قد نرى كثيرين من العامة يقرءون ولكنهم يقرءون مالايسمن ولايغني من جوع يقرءون كتب التسلية وقصص اللهو الفارغ التى يقطعون بها أوقاتهم ويرتاحون بها من أنفسهم .

ومن هنا نرى الصحفي اللبق يدرك هذه الحقيقة ويأتي إلى الجمهور متطامنا خفيف الخطأ فإذا عرض عليه خبرا عرضه – مثلا – في قصة قصيرة أو نكتة لبقة أو فيما يشبه هذا فهو يحتال على طفله الممعود ليعطيه مايشاء من فنه وفكرته فتروج صحيفته وتغمر الأسواق وتسيطر على الأندية وتدخل البيوت وتستقر مع القراء في المخادع .

على الداعية أن يفهم هذا وأن يدخل الطفل الممعود في حسابه وليس له أن يحتج بأنه لايستطيع أن يفعل فعل الصحف وأن وقار الدعوة وجلال معانيها ليس مما يعرض هذا

العرض .. أقول ليس له أن يحكم بهذا أو بما يشبهه فإنه إذا تحرك وحاول وجرب لايقدم نتيجة طيبة وثمرة مبشرة بخير كثير ليس ضروريا أن يتبذل الداعية ولكن ليس ضروريا أن يتزمت .

وليس من الحتم أن يجرى على نمط الفلاسفة وليس من الحتم أن يهبط إلى درك العامة .

إنك بلاشك صاحب فلسفة راشدة تتصل بأعمق خفايا الفطرة وأدق سنن الوجود ولكن ذلك ونحوه تختص به المصنفات التى تخاطب أهل الفكر والبحث وهم قلة ــ لهم معك شأن خاص ــ أما المقالات التى تخاطب القاعدة الشعبية فيجب أن تكون خلاصة تجاربك باعتبارك أحد الذين ينفعلون بعواقب الرشد والغى فيلقون إليك أسماعهم وألبابهم .

ومما يهون على الداعية مهمته أنه لن يكتب للجمهور فى فلسفة تكوين العقيدة ولا فى دور العقل فى إنشاء الصلة بالله أو فى كشفها ولا فى منهج صلة الإنسان بغير المنظور من حقائق الكون ولا فى نحو هذا مما يدخل فى باب الموضوعات الفلسفية والفكرية إنما سيتحدث إليه عن واقع الحياة اليومية .. وإن واقع الحياة اليومية هو تاريخ الإنسانية الحاضر وهو مستودع أخطائها وصوابها فإذا أخذ الداعية مادة حديثة من صميم مايجرى فى هذه الحياة وتحدث عن صوابه وخطئه وعالجه بروحه الربانى ووزنه بميزانه الإلهى فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة وسيجد أن كلامه قد غمر الأسواق وسيطر على الأندية ودخل البيوت واستقر مع القراء فى المخادع لأن الحياة تولت حملة إلى كل ذلك وليس عليك من حرج بعد هذا أن تكون قد أجريت فى كلامك لفظاً عاميا أو عبارة متداولة أو مثلاً سائراً أو نحو هذا مما يخفف وقعه على الأسماع ويعين على بيان حقيقة المراد .. ولأمر ما ، كره رسول الله ﷺ الثرثارين المتفيهقين والذين يخاطبون الناس بمالا يفهمون وكان عليه السلام يدخل فى كلامه ألفاظا ويعدل عن لهجته الأصيلة ليخاطب وفود القبائل بما يفهمون من اللهجات فهل تعتبر ؟! .

٥ ــ الحديث العادى

إذا أحس الداعية أن له حاجة لدى الجمهور يرجو قضاءها فيتلطف فى الحصول عليها فهو داعية حقاً وإذا لم يشعر هذا الشعور فهو مغلق لايصلح لهذا الأمر الخطير .

فهؤلاء الذين يسخطون على الجمهور وينقمون عليه إعراضه قوم فاتهم الكثير من فقه مهمة الداعية .

ليس للجمهور حاجة إليك منوط بقضائها منك .. أما أنت فصاحب الحاجة فانظر كيف تقبل عليها وتقضيها فهل هناك غير الحديث الرقيق .. والكلام اللين ؟ .

يقال هذا فى المحاضرة والدرس والخطبة والمقالة ولكنه فى الحديث العادى ألزم وأظهر حيث تواجه صاحبك أو أصحابك وجهاً لوجه أو كلمة لكلمة .

فى الناس شذوذ وفيهم تعال وكبرياء وفيهم ميل إلى تنقيص أصحاب المبادىء وفيهم ميل إلى الجدل ورغبة فى الغلبة والانتصار فعليك أن تذكر هذا كله وأن تعالجه بعلاجه الحاسم ، وما علاجه إلا أن تهمله وتتغاضى عنه وتلتزم حديثك الرقيق وكلامك اللين

ونوصى الداعية هنا بثلاث خصال :

الأولى : أن يترك كل رغبة فى الغلبة والانتصار على مناظره بل عليه إذا أحس أن الحديث سيتحول إلى مناظرة جدلية أن يكف عن المضى فيه فى أدب وحكمة ولباقة فإذا استطاع بعد ذلك أن يستأنف حديثه الرقيق اللين فى جو هادىء فبها ونعمت وإلا فمن الخير ألا يعود إليه .

ونحن بهذا لا نتقى فقط شر الجدل ومايورث القلوب من حقد وفرقة وإنما نتقى آفة تحيد بنا عن أسلوب الدعوة الحق فليس الجدل من أساليب الدعوة فى قليل ولا كثير وليست الغلبة والقهر من هذا فى شيء وليس فى الدعوة غالب ولا مغلوب ولكن أناس متعاونون على البر والتقوى يجب حقاً أن تغلب .. ولكن حذار أن تحمل الشعور بحب الغلبة والقهر .

ويجب حقاً أن تغلب .. ولكن حذار أن تحمل سلاحًا غير القول اللين .. والكلام الهادىء والنفس الراضية الوديعة فإنه سلاح يغلب الأقوياء ويستنزل إليك من اعتصم بآفة الجدل والعناد .

الثانية : أن يترك تحدى الناس بما لدعوته من فضل وما لمبادئها من سمو .. ويترك تحديهم بما لرجالها من صلاح وجهاد وفضائل .

ويترك تحديهم بما تزمع الدعوة أن تفعله غداة انتصارها من كيت وكيت .

ليترك هذا وأمثاله ليترك التحدى فى جميع صوره وليذكر دائما أنه صاحب حاجة يرجو قضاءها فهل يقضيها بالتحدى ؟ .

أنت صائد والصيد أمامك تريد أن تقتنصه فهل تثيره وتهيجه حتى يفر منك فلا تدركه ؟ أو يكون لك شيء آخر ؟ .

بل إننا فوق هذا نشير باللين عندما يظهر التحدى من غيرنا .. نشير بنسيان التحدى ونسيان كل أثر له فى النفس ولنذكر أن الصيد بدأ يستعد للإفلات فلنتضامن له فى غير ذلة طبعاً ولنظهر له الود المادىء والمسالمة الفطرية لا المصطنعة حتى يهدأ ثائره ، ويقر فى مكانه .

إن صاحبك الذى يتحداك ليس له مصلحة أدبية أو مادية فى أن يتحداك ويغاضبك فهو إذاً غير مريض ومن السهل علاجه برفق واقتناصه بسهولة .

أره من نفسك الود والتقدير لشخصه ورأيه وأشعره بحركاتك الرزينة وإشاراتك الهادئة ــ أنك فى حالة طبيعية بسيطة وأنك خالى الذهن من تحديه إياك أو تحديك إياه .

ستقول : كيف ؟ فأقول : جربه عمليا فتجارب الحياة هى التى تشرحه لك ، وتريك أمثلته الكثيرة .

ثالثاً : أن يترك « التعالم والتفاصح » على الناس ، فإن الناس يكرهون من يتحدث عن نفسه أو من يتظاهر بالامتياز عنهم بشيء .

عليه بالتواضع ونسيان عالمه وفصاحته وأن يتحدث إليهم فى فصاحة لا كلفة فيها ولا فوارق فإنه لايلبث أن يمترج بهم ويمتزجوا به .

والويل لمن يشعر بنفسه ويحس بمواهبه قد لايثور به الناس وقدلايؤذيه أحد ولكنه لن يقترب منهم ولن ينجح فى مهمته .

نقول هذا ليغسل كل منا نفسه ويطهرها من هذا الرجس وليكون دستوراً عمليا لنا فى خطاب الناس فإذا خاطب أحدنا غيره خاطبه على أنه مثله ونظيره ، وأن مالديه من علم فالفضل فيه لله لالأحد آخر فلنقبل على الناس بفضل الله لابفضل نفوسنا ــ فتح الله لنا مايشاء من القلوب والعقول والله ذو الفضل العظيم .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات والحمد لله أولا وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرًا كبيرًا .

الداعيـة والخطيـب

لما تبين لنا فيما مضى المفاهيم والتعاريف فى أمور كان لابد لخطيب وداعية أن يقف عليها كما كان ذلك كذلك أردنا أن نتحدث عن الفرق بين الداعية والخطيب وهو فرق دقيق لكنه حاسم يضع الأمور فى نصابها والنقاط على حروفها ويسمى الأشياء بأسمائها قال صاحب « تذكرة الدعاة » رحمه الله تعالى فى بيان الفرق بينهما :

الداعية غير الخطيب . الخطيب خطيب وكفى والداعية مؤمن بفكرة ، يدعو إليها بالكتابة والخطابة والحديث العادى والعمل الجدى فى سيرته الخاصة والعامة وبكل مايستطيع من وسائل الدعاية ، فهو كاتب وخطيب ومحدث وقدوة يؤثر فى الناس بعمله وشخصه .. والداعية أيضًا طبيب اجتماعى يعالج أمراض النفوس ويصلح أوضاع المجتمع الفاسدة فهو ناقد بصير يقف حياته على الإصلاح إلى ماشاء الله .. وهو رفيق وصديق وأخ للغنى والفقير والكبير والصغير ، ومن هذه الصفات تشيع المحبة فى قلبه وتتدفق الرحمة من عينيه وتجرى المواساة على لسانه ويديه وهذا ضرورى جداً للداعية وهو من مواهب الروح والجنان لا من صفات البلاغة وملكات اللسان .. والداعية قائد فى محيطه وسياسى فى بيئته ، وزعيم لفكرته ومن يتبعه فى ناحيته وكل هذا لاتنهض الخطابة وحدها بحقوقه ، فلابد له من التأثير النفسانى والهيمنة الروحية والاتصال بالله واستعانة العقل بما حصل من تجارب التاريخ وأقوال الناس .

ولست بهذا أغض من قدر الخطابة وضرورتها للدعوة وإنما أبين بعض صفات الداعية لتستبين طبيعة هذه الأحاديث التي سبقت للدعاة ، لا للخطباء .

الفصل الثاني

الدعــوة

وبعد بيان ماسبق لابد لنا من معرفة الدعوة فإنها كلمة جامعة لمعانى الخير كله ومن ثم فقد شرف الله تعالى أصحابها بقوله ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾[1] ولقن أشرف داعية إلى الله هذه الحجة ﴿ قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وماأنا من المشركين ﴾[2] فصلوات ربى وسلامه عليك ياسيدى يارسول الله يامن دعوت إلى الله على بصيرة وجعلت الحق رائدك والعدل حليفك ولابد لنا هنا من معرفة الدعوة .

أرسل الله عزت قدرته وجلت حكمته رسوله بالهدى ودين الحق مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا .. فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وكانت حياته العظيمة المثل الأعلى فى مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال عامرة بالخير والهدى وكان فى دعوته وعبادته ، وفى حربه وسلمه ، وفى أسرته وبين أصحابه ، وفى كل مظهر من مظاهر حياته مصداقا لقول الله تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[3] وتحقيقاً لقوله صلوات الله وسلامه عليه « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . رواه ابن ماجة . وقوله « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . رواه العسكرى عن على وهو ضعيف لكنه صحيح المعنى ، صححه أبوالفضل بن ناصر من طريق آخر . حتى اضطرت دعوته الصادقة القوية وأخلاقه السامية كثيراً من العقلاء الذين هداهم الخلق النبوى ــ والذين كانت نفوسهم مستعدة لقبول دعوة هذا الرسول الصادق الأمين إلى نبذ معبوداتهم والإصغاء لداعى الحق والاستماع لآيات الله البينات عاملين بها مخلصين دينهم لله وصاروا نوراً نهتدى به إلى

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٣ .
(٢) سورة يوسف الآية ١٠٨ .
(٣) سورة القلم الآية ٤ .

طريق التدين الصحيح فزاد عدد المسلمين ، وأخذوا يتكاثرون ولم يترك الرسول صلوات الله وسلامه عليه وسيلة من وسائل نشر الدعوة إلا سلكها وأمر أصحابه ـــ رضى الله عنهم ـــ بالتأسى به والسير على نهجه .. وكانت دعوته غير تبليغ القرآن واردة من طريق الخطابة فى الجامع والأسواق وهجرة أصحابه فى سبيل الله وإعلاء كلمته وإرسال كتبه ورسله إلى الملوك والأمراء بل كانت حياة الصحابة يومئذ فى ذاتها دعوة قوية إلى دين الله وأساساً لهداية الناس إليه ذلك بأنهم رضوان الله عليهم فهموا سنة الرسول وتأثروا بهديها وفهموا غايتها الشريفة فتحملوا الأمانة بجواره وأدوها حق التأدية فكانوا فى رسالتهم العلمية مثل رسالتهم العملية فى تأدية الواجب على أكمل وجه وأعلى مثال فكانوا قدوة صالحة وأسوة حسنة وأئمة يهدون بأمر الله إلى دين الله .

ومن أمعن النظر علم أن الدعوة إلى الله حياة الأديان . وأنه ماقام دين من الأديان ولا انتشر مذهب من المذاهب ولا ثبت مبدأ من المبادىء إلا بالدعوة .

وماتداعت أركان ملة بعد قيامها ولا درست رسوم طريقة بعد ارتفاع أعلامها ولا تلاشت نزعة من النزعات بعد إحكامها إلا بترك الدعوة فالدعوة حياة كل أمر عام تدعى إليه الأمم والشعوب ، سواء أكان ذلك الأمر حقاً أم باطلاً .

ولقد علمنا التاريخ أنه ماقام أحد يدعو إلى شيء إلا وجد له أنصاراً وأتباعا ـــ وهانحن أولا نرى المذاهب الباطلة تنمو بالدعوة والمذاهب الحقة بإهمال الدعوة تتضاءل ـــ ولو كان الحق يقوم لنفسه وينتشر بذاته لأنه الحق لما فرضت علينا الدعوة إليه ولما كان ثم حاجة إلى الأنبياء والمرسلين وورثتهم من العلماء العاملين والمرشدين الناصحين الداعين إلى الهدى ودين الحق ولما وصف الله عزوجل الدعوة إليه بأنها أحسن القول ، ولما أمر نبيه ﷺ أن يذكر للناس أن طريقته التى يسلكها هو ومن كان على قدمه إنما هى الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة .

وللدعوة إلى الله مراتب : (الأولى) دعوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ودعوتهم راجحة على دعوة غيرهم من وجوه :

(١) أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولا والدعوة بالسيف ثانيا حماية لها ودفاعا عن الحق وأهله لاقهراً على الدخول فى الدين فما شرع الجهاد إلا لحماية الدعوة ومنع الاعتداء على المسلمين وتأمينهم على دينهم وعقيدتهم وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين .

(٢) أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء والسابق بإظهار الأمر الشريف أفضل .

(٣) أن نفوسهم أقوى قوة وأرواحهم أصفى جوهراً فكانت تأثيراتها فى إحياء القلوب الميتة وإنارة النفوس المظلمة أكمل .

(٤) أن نفوس الأنبياء حصل لها مزيتان :
الكمال فى الذات والتكميل للغير فكانت قوتهم على الدعوة إلى الله تعالى أقوى وكانت درجاتهم أفضل وأكمل (المرتبتان الثانية والثالثة) دعوة العلماء والملوك بطريق الخلافة عن أنبياء الله تعالى وذلك أن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام صفتين : العلم والقدرة والعلماء نواب الأنبياء فى العلم والملوك العادلون نواب الأنبياء فى القدرة والعلم يوجب الاستيلاء على الأرواح والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد فالعلماء خلفاء الأنبياء فى عالم الأرواح والملوك خلفاء الأنبياء فى عالم الأجساد .

وبهذا علم أن أكمل الدرجات فى الدعوة إلى الله عزوجل بعد الأنبياء درجة العلماء ثم هم على ثلاثة أقسام : العلماء بالله وهم الحكماء الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيراً ﴾[١] والعلماء بصفات الله تعالى وهم أصحاب الأصول والعلماء بأحكام الله تعالى وهم الفقهاء ففى القرن الثانى كان الدين شغل العلماء الشاغل فقد عكف قوم على مواعظ الدين وحكمه وآدابه ومايحض على مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال وهم الزهاد والنساك وقوم على تعرف أصول الدين ومعرفة وجود الله تعالى وصفاته وإرسال الرسل وإمكان المعجزات وما إلى ذلك وهم المتكلمون وقوم على تخريج أحكام الفروع ومعرفة الحلال والحرام واستنباط ذلك من الكتاب والسنة وهم الفقهاء .

والكل كانوا على جانب عظيم من العلم والعمل والتقوى والورع ولكل مجاله هذا كان داعياً إلى الله تعالى وأما الملوك العادلون فهم أيضا يدعون إلى دين الله تعالى بالسيف بوجهين : إما بتحصيله عند عدمه بمحاربة الكفار المعاندين المعتدين على أهله وإما

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٩

بالمحافظة عليه عند وجوده بنحو قتل المرتدين وقمع العابثين به والضرب على أيدى المتمردين عليه المفسدين فى الأرض .

وبالجملة فالدعوة إلى طاعة الله وتوحيده وإرشاد الخلق إلى الصراط السوى وظيفة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين يخلفهم فيها كبار أتباعهم والعظماء من أولى العلم وذوى القدرة على ضبط الأمور والتأثير فى الأرواح وجذب النفوس إلى الخير ممن يسلكون سننهم ويهتدون بهداهم .

وإن الداعى إلى الله تعالى خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه فى تبليغ شرائعه وفي بيان هديه وسنته وفى بيان عقائده وأحكامه وأخلاقه الكريمة وعظاته البليغة وأسرار التشريع .

إن الدعوة إلى الخير تربية والتربية المفيدة إنما تكون بالعمل لأنها مبنية على القدوة الصالحة والأسوة الحسنة ذلك أن التقليد عريق فى بنى الإنسان يميل إليه بفطرته والمثل العليا أمامه تزيد فى شوقه وتضاعف همته وتهيب به إلى الاحتذاء بل المنافسة ومن لم يثابر على احتذاء الأمثلة الكاملة النافعة ضعف عقله وأظلمت بصيرته وخرج عن ماتقتضيه الفطرة السليمة ولم يكن فى عداد الصادقين الذين أمر الله أن يكون فى زمرتهم ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾[1] ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾[2] ولاريب أن مقصود الدعوة إلى الله تعالى نشر الهداية الإسلامية بتصحيح العقائد واستقامة الأعمال وتهذيب النفوس وتوثيق عرى الوحدة والإخاء بين المسلمين ومقاومة الإلحاد ودفع الشبهات عن الدين وأقرب طريق لبلوغ هذا المقصد الأسمى يكون بالوسائل الآتية :

١ ــ بث الدعاة إلى الإسلام بقدر الطاقة .

٢ ــ انتشار المرشدين إلى الإسلام الناصحين بين المسلمين ولاسيما القرى النائية وأهل البوادى منهم .

٣ ــ نشر رسائل وكتب دينية تشتمل على أصول الإسلام وفروعه وفضائله وآدابه وأسرار التشريع فيه .

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٩ .
(٢) سورة الفاتحة الآية ٦ : ٧ .

٤ ـــ إلقاء المحاضرات والخطب الدينية فى الأندية والمجتمعات العامة ونشر المقالات فى الصحف .

٥ ـــ إنشاء صحف ومجلات باللغة العربية وغيرها فى الأقطار المختلفة تعنى بالشئون الإسلامية .

٦ ـــ العمل على إصلاح منهج الخطب المنبرية ودروس الوعظ والإرشاد فى المساجد .

٧ ـــ السعى لدى حكومات البلاد الإسلامية ومدارسها الأهلية لأجل العناية بالتعليم الدينى والتربية الإسلامية وبهذا وحده تسعد الأمم الإسلامية وتسلم من خطر الشقاء فى العاجل والآجل إن شاء الله تعالى .

مامعنى الدعوة ؟

تطلق الدعوة ويراد بها فى اللغة الدعاء إلى الشيء ومن ذلك قوله تعالى ﴿ **والله يدعوا إلى دار السلام** ﴾ (١) ومعنى الدعوة اصطلاحا حث الناس على الخير والهدى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل .

ولقد شرف الله تعالى الوجود ببعثه أنبياءه وإرسال رسله وإنزال كتبه بعدما زود البشرية بالعقل الذى به يميزون الخير من الشر والحق من الباطل وقال لهم مولانا سبحانه وتعالى ﴿ **ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾ (٢) فدعوا إلى الله على بصيرة وحجة وبينة فقطعوا بذلك معاذير العباد قال سبحانه وتعالى : ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ (٣).

ثم قال لرئيسهم الأعظم وسيدهم المقدم ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا** ﴾ (٤).

(١) سورة يونس الآية ٢٥ .
(٢) المؤمنون ٥١ : ٥٢ .
(٣) النساء ١٦٣ : ١٦٥ .
(٤) النساء الآية ١٦٦ .

رسالة الأنبياء واحدة

ومن العقائد الثابتة والحقائق الراسخة أن جميع الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . قال الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه « أفضل ماقلته أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله » فعقيدة الأنبياء هى الإسلام لاغير قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾[1] .

واقرأ معى آيات القرآن تجدها تثبت هذه الحقيقة قال تعالى فى شأن نوح شيخ الأنبياء يقول لقومه ﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[2] وقال فى حق إبراهيم ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾[3] .

وقال فى شأن من جاء بعده وفى شأنه : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾[4] .

وقال على لسان يوسف ﴿ توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾[5] وقال على لسان موسى وهو يخاطب قومه ﴿ إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾[6] .

وقال فى شأن أتباع عيسى ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾[7] .

وحسم الأمر بقوله ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[8] .

---

(١) آل عمران ١٩ .
(٢) يونس ٧٢ .
(٣) البقرة ١٣١ .
(٤) البقرة ١٣٢ : ١٣٣ .
(٥) سورة يوسف الآية ١٠١ .
(٦) سورة يونس الآية ٨٤ .
(٧) سورة المائدة الآية ١١١ .
(٨) آل عمران الآية ٨٥ .

وقال فى شأن أمة مبعوث العناية الإلهية ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ (١)

وقال فى شأن النبيين ﴿ **يحكم بها النبيون الذين أسلموا** ﴾ (٢) وقال فى شأن ملكة سبأ ﴿ **رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ (٣) .

وقال يخاطب الأمة ﴿ **قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا وماأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وماأوتى موسى وعيسى وماأوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ (٤) .

فمن إعتقد أن هناك نبياً يتبع ملة غير الإسلام فقد كذَّب بما أنزل على محمد ومن هنا نعلم أن الأنبياء جميعا كانوا موحدين قال تعالى ﴿ **وماأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ (٥)

وفى سورة الأنبياء بعدما قص الله علينا طرفاً من قصصهم وذكر موسى وهارون وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ثم ذكر لوطاً ونوحاً وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل وذا النون وزكريا ويحيى وعيسى ومريم ختم هذه المسيرة بقوله ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ (٦) .

فلو سلك الناس كل طريق إلى الله واستفتحوا عليه كل باب فلن يفتح لهم حتى يأتوا خلف رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه :

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لاتذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

وفى ﴿ **هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به ، وليعلموا أنما هو إله واحد** ﴾ (٧) .

---

(١) سورة المائدة الآية ٣ .
(٢) المائدة ٤٤ .
(٣) النمل الآية ٤٤ .
(٤) البقرة الآية ١٣٦ .
(٥) الأنبياء ٢٥ .
(٦) الأنبياء الآية ٩٢ .
(٧) إبراهيم ٥٢ .

فعظمة الإسلام تتجلى فى أنه أمرنا بأن نؤمن بكل الأنبياء ولانفرق بين أحد منهم وقد حكم على من يفرق فى الإيمان بينهم بالكفر قال تعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا** ﴾[1] ثم يقول تعالى بعد ذلك ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يأتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾[2] .

أقســام الدعــوة

(**القسم الأول**) : دعوة الأمة المحمدية جميع الأمم إلى الإسلام ، وأن يشاركوهم فيما هم عليه من الهدى ودين الحق وهذا واجب هذه الأمة بمقتضى جعلها خير أمة أخرجت للناس مقيداً بكونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر قال تعالى ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[3] الآية . .

وقال سبحانه ﴿ **قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾[4] .

فانطلاقاً من هذه التوجيهات الربانية ، انطلق المسلمون فى أرجاء الأرض ، وآفاق الدنيا ـــ يبلغون رسالات الله ويخشونه ولايخشون أحدا إلا الله ونداؤهم لكل من يقف عقبة كؤوداء فى طريق الدعوة « ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

وهذه الميزة العالمية إنما هى أثر من آثار الصبغة الربانية فى هذا التشريع فلو كان واضعه فرداً أو فئة من الناس ، لتعصب ـــ بوعي أو بلاوعي ـــ لجنسها وطبقتها ومصالحها ولكن المشرع هنا هو رب الناس ، إله الناس ، فهم جميعا عباده ، لافضل لفرد منهم على فرد ، ولا لفئة على أخرى بحكم الخلق والنشأة .

---

(١) النساء ١٥٠ : ١٥١ .
(٢) النساء الآية ١٥٢ .
(٣) آل عمران الآية ١١٠ .
(٤) الأعراف الآية ١٥٨ .

روى الشيخان عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن نبى قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، وأعطيت لى الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت للناس عامة » .

وثبت تاريخياً ـــ عن طريق الرواية الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام أرسل إلى الملوك والرؤساء فى عصره كالنجاشى وكسرى وقيصر والمقوقس كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وكان شعاره فى ذلك « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين » (العامة من فلاحين وغيرهم) فلو لم تكن دعوته ﷺ عالمية لما أرسل إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ويأمرهم باعتناق هذا الدين .

(**القسم الثانى**) : دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلى الخير ، وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر ، ويقوم بهذا النوع كالذى قبله خواص الأمة العارفون بأمور الدين ، وأسرار التشريع ، وهم المشار إليهم بقوله تعالى ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾[1] .

وقال العلامة الصاوى فى قوله تعالى ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ﴾[2] قال « هذه الأمة نفع ورحمة لنفسها وللخلق فى الدنيا وفى الآخرة » .

فلا يحسبن أحد أن إصلاح الأمة لنفسها وتربيتها وتنظيمها فى داخلها خارج من مفهوم الآية ، لأنه من البين الذى لامجال فيه للشك أنه غير جائز للأمة الإسلامية أن تنصرف عن ذلك للحظة واحدة كما لايجوز لها أن تقصر فى الدعوة أى تقصير ، فيحتم عليها أن تقوم فى داخلها أيضا بالعمل الذى تريد القيام به فى خارجها ، فهى تأمر نفسها بالمعروف وتنهاها عن المنكر قبل أن تقوم بهذه المهمة فى غيرها من الأمم ، فإنها إذا لم تلزم نفسها بالمعروف ولم تنته هى عن المنكر كيف يصح لها أن تأمر غيرها وتنهاه ؟ فكلا النوعين من العمل داخل فى مفهوم الآية .

(**القسم الثالث**) : مايكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ، ويستوى فى ذلك الخاصة والعامة بالدلالة على الخير والترغيب فيه ، والنهى عن الشر والتحذير منه ، كل بما

(١) التوبة الآية ١٢٢ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

يعرفه ، فإذا رأى أحد المسلمين أخاه على منكر هو يعلمه تصدى لنصحه وإرشاده وبيان مايأمر به الدين الحنيف ومانهى عنه فى هذه الواقعة ، كل ذلك برفق ولين فذلك من التواصى بالحق والتواصى بالصبر الذى جعله الله عزوجل آية الإيمان الصحيح وسببًا للنجاة من الخسران المبين فى قوله تعالى ﴿ **والعصر . إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾(١) .

يقول العلامة ابن تيميه « وكل بشر على وجه الأرض فلابد له من أمر ونهى . ولابد أن يؤمر وينهى ، حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها . إما بمعروف ، وإما بمنكر ، كما قال تعالى ﴿ **إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾ (٢)

فإن الأمر : هو طلب الفعل وإرادته . والنهى : طلب الترك وإرادته . ولابد لكل حى من إرادة وطلب فى نفسه ، يقتضى بها فعل نفسه ، ويقتضى بها فعل غيره إذا أمكن ذلك . فإن الإنسان حى يتحرك بإرادته وبنو آدم لايعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض .

وإذا اجتمع اثنان فصاعدا ، فلابد أن يكون بينهما ائتمار بأمر ، وتناه عن منكر ، ولهذا كان أقل الجماعة فى الصلاة : اثنين . لكن لما كان ذلك اشتراكاً فى مجرد الصلاة : حصل باثنين . أحدهما : إمام والآخر مأموم كما قال النبى ﷺ لمالك بن الحويرث وصاحبه رضى الله عنهما ، « إذا حضرت الصلاة فأذنا وأقيما وليؤمكما أكبركما » وكان متقاربين فى القراءة . وأما فى الأمور العادية ، ففى السفر أن رسول الله ﷺ قال « لايحل لثلاثة يكونون فى سفر إلا أمروا عليهم أحدهم » أ. هـ .

الحاجة إلى الدعوة

إن الله سبحانه وتعالى عزت قدرته ، وجلت حكمته ، خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وركبه فى أحسن صورة ، وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضلاً ، كرمه بالفكر والعقل يميز به الحسن من القبيح ، ويفرق بين الحق والباطل ، ولكن العقول البشرية وحدها لاتستقل بإدراك المصالح الدنيوية فضلا عن الأخروية ، ولاتهتدى

---

(١) سورة العصر الأيات ١ : ٣ .

(٢) سورة يوسف الآية ٥٣ .

وحدها إلى تمييز الخير من الشر ، والمعروف من المنكر ، وليس من غرائزها الوقوف على حقائق الأمور ولا أن تدبر شئونها على نظام محكم عادل لاخلل فيه ولاانحراف فإنها ــ وإن وصلت إلى الغاية القصوى من الإدراك ــ قد تميل عن الحق إلى الباطل وتنحرف عن الصلاح إلى الفساد ويخفى عليها وجه المصلحة ، ولا تهتدى إلى مغبة الأعمال ، وكثيرا مايبدو لها الشر فى لباس الخير فتقع فيه ، وكثيراً مايظهر لها الخير فى صورة الشر فتعرض عنه قال تعالى ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون** ﴾[1] .

وإن اهتدت العقول البشرية إلى إدراك الخير والشر ، فقد تتغلب عليها الشهوات أو يشتد بها الغضب والحسد فيصرفها ذلك عن النافع أو تقع فى الضار ، وإن خلصت العقول من أسر الشهوات ، و تسلط الغضب والحسد فقد لاتسلم من غوائل الخلاف والنزاع لاختلاف المدارك ، والمشارب فى أصل الفطرة والجبلة ، فترى الإنسان يستحسن عين مايستقبحه غيره ، بل الإنسان الواحد قد يظهر له الشيء حسناً فى وقت فإذا لم يلائم غرضه فى وقت آخر عده قبيحاً ، وكثيراً مايكون الشيء الواحد مشتملا على مصلحة ومفسدة ، فيحب إنسان جلب مصلحته فيبادر إليه ، ويميل آخر إلى درء مفسدته فيفر منه .

فلما كانت العقول البشرية قاصرة عن إدراك مصالحها فى هذه الحياة وفى تلك الحياة وعاجزة عن الاطلاع على الحقائق ؛ وكانت عرضة لتغلب الأهواء والشهوات وماإليها من الرذائل النفسية عليها ، وكان من طبائعها اختلاف المدارك والميول .

لما كانت كذلك اشتدت حاجة البشر إلى الهداة المصلحين ، والدعاة الناصحين ، يعلمونهم ماشاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، ويدعوهم إلى مافيه الخير والسعادة ويحذرونهم من السقوط فى مهاوى الشرور والشقاء ، ويحررون العقول من رق الأهواء والشهوات ، ويطهرون النفوس من أدران النقائص والرذائل ، ويعرفونهم كيف يتقون الفتنة عند الاختلاف ، وأولئك هم الأنبياء والمرسلون ، صلوات الله وسلامه عليهم

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦ .

أجمعين ، قال تعالى ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[1] .

وقال جل شأنه ﴿ الَر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾[2] .

وقال سبحانه ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكورا ﴾[3] وقال سبحانه ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾[4] .

وبهذه الدعوة الرشيدة التى استنارت بها البصائر واهتدت العقول سلك المجتمع الإنسانى طريقا قويما وصراطا مستقيما ، فسلم من مخاطر الشقاء ، وفاز بحياة طيبة ، ثم مازال المجتمع بعد انقضاء عهد النبوة والرسالة فى أشد الحاجة إلى دعاة مرشدين وناصحين صادقين أمناء يحمون دين الله من عبث العابثين ، ويحرسون عقائد الاجتماع ويراقبون الأعمال والأخلاق ، ويرشدونه إلى الخير ويحذرونه من عواقب الشر ، وينيرون السبيل إلى مافيه الخير والسعادة .

ومافيه المسلمون اليوم من سوء الحال أثر تفريط عظيم فى طاعة الله ورسوله بعد ماعظم التساهل والتواكل فى أمر الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكثر التهاون وإهمال التناصح ، وردُّ مايتنازع فيه المسلمون إلى كتاب الله وسنة رسوله ، حتى خوت القلوب من الحياء واحترام الدين ، فلم يبق له سلطان على النفوس ، بل صار كل إنسان أسير شهوته وهواه ولاحول ولاقوة إلا بالله .

---

(١) الأحزاب الآيتان ٤٥ ، ٤٦ .
(٢) إبراهيم الآية ١ .
(٣) سورة إبراهيم الآية ٥ .
(٤) سورة فصلت الآية ٣٣ .

الفصل الثالث

وجوب تبليغ الدعوة

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مهمة نبوية وهو من المصطلحات التى عبر بها القرآن الكريم عن عمل الأنبياء وخلفائهم فقال يصف رسول الله ﷺ ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾(١) .

وقد أوصى لقمان ابنه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتحمل لكل مايتعرض له فى سبيله لأن هذا العمل يتطلب جهداً كبيراً ، وعزيمة صادقة ، وهمة بعيدة ، ولايصبر عليه إلا أولو العزم من الرجال ، فقال لابنه كما حكى القرآن الكريم ﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ (٢)

وكان لقمان من الصلحاء الأتقياء ، وإن لم يكن من الرسل والأنبياء ، ولم يذكر القرآن وصيته لابنه لأنها تلقى ضوءاً على سيرته وأخلاقه ، وإنما أوردها لنتبعها ونتمثلها ، يقول العلامة الجصاص رحمه الله « إنما حكى الله تعالى لنا ذلك عن عبده لنقتدى به ونتنهى إليه » .

وكان المؤمنون من أهل الكتاب قائمين بفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأثنى عليها القرآن ، مما يدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الشروط اللازمة للقيام على سبيل الحق قال تعالى :

﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الأخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ (٣)

(١) سورة الأعراف ١٥٧ .
(٢) سورة لقمان الآية ١٧ .
(٣) آل عمران الآية ١١٣ : ١١٤ .

تبين من ذلك أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تعبير قرآنى صريح عن مهمة النبوة ، وليس تعبيرا جزئيا محدوداً يشير إلى جزء من أجزاء مهمة الأنبياء وخلفائهم ، بل هو تعبير واسع شامل يدل على الجهد الذى يبذله الأنبياء وخلفاؤهم فى سبيل دين الله تعالى فكانت تعاليمهم كلها محتوية على الأمر والنهى ، فكانوا إما يأمرون بالمعروف وإما ينهون عن المنكر ولعلك تستطيع أن تقدر بهذا التعبير المهمة العظيمة التى قام بها كل نبى ، والصالحون من أمته فى عصرهم والتى كلفنا نحن القيام بها فى عصرنا ، والحق أن هذا التعبير الموجز المعجز الذى يبدو مجموعة لكلمات عديدة يمثل الغاية التى بعث لتحقيقها الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه وليس ذلك تفسيراً واستنباطا منا نحن فحسب ، بل هو الذى قال به العلماء الأعلام فقال ابن تيمية :

« الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : هو الذى أنزل الله به كتبه . وأرسل به رسله وهو من الدين » .

ويقول القرطبى رحمه الله :

« إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كانا واجبين فى الأمم المتقدمة ، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة » .

ويقول العلامة سيف الدين الآمدى :

« مامن أمة إلا وقد أمرت بالمعروف كإتباع أنبيائهم وشرائعهم ونهت عن المنكر كنهيهم عن الإلحاد وتكذيب أنبيائهم » .

ويقول الإمام الرازى :

« الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله إن هذه الصفات الثلاث كانت حاصلة فى سائر الامم » .

ويقول العلامة السيد رشيد رضا :

« قد جرت سنة الأنبياء والمرسلين والسلف الصالحين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإن كان محفوفًا بالمكاره والمخاوف » .

الأمــة المســلمة

هذه التصريحات التى نقلناها لاتدع مجالاً للشك فى أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لم يزل فى كل عصر من العصور مهمة الرسل وأممهم ، وللنهوض بنفس المهمة وجدت الأمة الإسلامية ، فلا يكفى ــ بحكم مكانتها وغاية وجودها ــ أن تعيش صالحة تقية هى نفسها فحسب بل عليها أن تعمل لتوجيه العالم وقيادته وهدايته أيضا ، فهى عابدة وزاهدة كما هى رائدة وقائدة . تدبر الآية الكريمة التى تقول :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾(1) الآية .

لقبت الآية الكريمة الأمة المسلمة بخير أمة ، ووصفتها بأمرين :

الأول : أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . والثانى : أنها تؤمن بالله عز وجل ، والإيمان بالله أن يخلص الإنسان عبادة الله لله تعالى ويخضع لحكمته ويطيعه فى كل مايأمر به عن طواعية وطيب نفس ، فالإيمان عبارة عن يقين القلب وكمال الاتباع .

فسر العلامة الخازن الإيمان بالله فى هذه الآية بقوله **﴿ وتؤمنون بالله ﴾**(2) أى وتصدقون بالله وتخلصون له التوحيد والعبادة » .

دل ذلك على أن الأمة الإسلامية إنما لقبت بخير أمة لأنها ستكون خيراً للعالم المملوء بالشر ، وتهديهم إلى الصراط المستقيم بجانب ، وتكون مطيعة لله تعالى طاعة كاملة بجانب آخر ، وهذا العمل الثنائى يحل الأمة الإسلامية مكانة مرموقة لاتبلغها أمة أخرى كما يوجد فيها شبهاً بالأنبياء لايمكن أن تدانيها ــ فضلاً عن أن تكون أفضل منها ــ أى أمة على وجه الأرض .

يقول العلامة الصاوى فى تفسير الآية السابقة :

« هذه الأمة لها شبه بالأنبياء من حيث إنها مهتدية فى نفسها هادية لغيرها » الحق أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله تعالى وطاعته هي الخصائص التى تمتاز بها (خير أمة) فإن فقدت هذه المميزات سلبت ثوب عزها وعظمتها ، ولم يبق أى فرق

(1) آل عمران الآية ١١٠ .
(2) آل عمران الآية ١١٠ .

بينها وبين غيرها من أمم العالم. تلا عمر بن الخطاب الآية المذكورة فى حجه فقال :

« ياأيها الناس ، من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها » .

ويقول العلامة القرطبى فى قوله تعالى ﴿ **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ﴾[1] مدح لهذه الأمة ماأقاموا ذلك واتصفوا به فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم وكان ذلك سببا لهلاكهم .

ويبن الرازى هذه الحقيقة بتعبيره الفقهى فقال :

« إنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم مقروناً بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف . فها هنا حكم تعالى بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة ثم ذكر عقيب هذا الحكم هذه الطاعات أعنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان ، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات » .

لقب القرآن الأمة المسلمة (بخير أمة) لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكذلك وصف المؤمنين من أهل الكتاب (بأمة قائمة) لأنهم يتلون كتاب الله ، ويعبدون الله تعالى ، ويؤمنون به وبالآخرة ، ولأنهم ﴿ **يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾[2] مما يدل على أن الانتماء إلى (خير أمة) و(الأمة القائمة) لايقتضى التحلى بصفات ذاتية فحسب بل يستوجب مع ذلك حمل الرسالة وقيادة البشرية وهداية العالم . فسر العلامة أبوالسعود هذه الكلمة الكريمة بقوله :

﴿ **ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾[3] صفتان أخريان لأمة أجريتا عليهم تحقيقاً لمخالفتهم اليهود فى الفضائل المتعلقة بتكميل الغير أثر بيان مباينتهم لهم فى الخصائص المتعلقة بتكميل النفس ، وتعريضا بمداهنتهم فى الاحتساب بل بتعكيسهم فى الأمر بإضلال الناس وصدهم عن سبيل الله فإنه أمر بالمنكر ونهى عن المعروف .

وقال العلامة أبوحيان الأندلسى :

« لما كملوا فى أنفسهم سعوا فى تكميل غيرهم بهذين الوصفين » .

---

(١) آل عمران الآية ١١٠ .
(٢) آل عمران الآية ١١٤ .
(٣) آل عمران الآية ١١٤ .

وإقامة الصلاة فى وصية لقمان مقرونة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحق أنهما عنوانان لتكميل الذات وتكميل الغير .

يقول السيد محمد الألوسى فى تفسيره :

﴿ يابنى أقم الصلاة ﴾[1] تكميلاً لنفسك ـــ ﴿ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ﴾[2] تكميلاً لغيرك .

و فسَّر الإمام الرازى ذلك بقوله :

« إذا أكملت نفسك بعبادة فكمل غيرك فإن شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا فى أنفسهم ويكملوا غيرهم » .

والآية التالية من سورة التوبة تتناول الأمر بمزيد من التوضيح ، قال تعالى يصف المؤمنين :

﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ [2].

من صفات المؤمنين التى تضمنتها هذه الآية الكريمة مايتصل بأنفسهم ومنها مايشير إلى عملهم فى غيرهم ، فالتوبة ، والعبادة والحمد والسياحه فى سبيل الله ، والركوع والسجود له ، كلها صفات لايتجاوز تأثيرها ذواتهم ، أما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو يمثل العمل الذى يقومون به لغيرهم .

يقول العلامة ابن كثير :

ينفعون خلق الله ، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغى فعله ويجب تركه وهو حفظ حدود الله فى تحليله وتحريمه علمًا وعملاً ، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق ولهذا قال تعالى ﴿ وبشر المؤمنين ﴾[3] لأن الإيمان يشمل هذا كله ، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به .

---

(١) لقمان الآية ١٧ .
(٢) التوبة الآية ١١٢ .
(٣) التوبة الآية ١١٢ .

وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى السنة .

عن أبى رقية تميم بن أوس الدارى — رضى الله عنه — أن النبى ﷺ قال : « الدين النصيحة قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » رواه مسلم .

وعن جرير بن عبدالله عنه قال : « بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » متفق عليه .

وعن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « مامن نبى بعثه الله فى أمة قبلى ، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون مالايفعلون ، ويفعلون مالايؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » رواه مسلم .

وعن أبى الوليد عبادة بن الصامت — رضى الله عنه — قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا وعلى ألا تنازع الأمر أهله — إلا أن تروا كفراً بواحًا عندكم من الله تعالى فيه برهان — وعلى أن تقول الحق أينما كنا ، لانخاف فى الله لومة لائم » متفق عليه .

وعن النعمان بن بشير — رضى الله عنهما — عن النبى ﷺ قال : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وماأرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعا » رواه البخارى .

قال النووى رحمه الله « القائم فى حدود الله » معناه المنكر لها القائم فى دفعها وإزالتها ، والمراد بالحدود ماينهى الله عنه » .وأفاد الحديث أن ترك المنكر لايعود على تاركه فحسب بل على المجتمع بأسره . كما أفاد أن هلاك المجتمع مترتب على ترك أصحاب المنكر يعيثون فى الأرض فساداً .

وعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : « إياكم والجلوس فى الطرقات ، فقالوا : يارسول الله مالنا من مجالسنا بد ، نتحدث فيها ؟ فقال رسول الله ﷺ : فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وماحق الطريق يارسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

وعن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب فى يد رجل فنزعه فطرحه ، وقال : « يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها فى يده ! فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله ﷺ خذ خاتمك انتفع به قال : لا والله ، لاآخذه أبداً وقد طرحه رسول الله ﷺ » رواه مسلم .

وأفاد الحديث : إزالة المنكر باليد لمن يستطيع ذلك :

وعن أبى سعيد الحسن البصرى أن عائذ بن عمرو ــ رضى الله عنه دخل على عبيد ابن زياد فقال : أى بنى ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن شر الرعاء الحطمة ، فإياك أن تكون منهم فقال له : اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ فقال : وهل كانت لهم نخالة ؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفى غيرهم » رواه مسلم .

أفاد الحديث التزام الصحابة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأفاد جرأة عائذ ابن عمرو فى الرد على عبيدالله بن زياد أمير البصرة ، وبيانه له أن الصحابة كلهم سادة وأفاضل ، ولم يعرف السقط والنخالة إلا بعد قرنهم .

وعن حذيفة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » رواه أبوداود والترمذى وقال حديث حسن .

وعن أبى عبدالله طارق بن شهاب البجلى الأحمسى ــ رضى الله عنه ــ « أن رجلاً سأل النبى ﷺ وقد وضع رجله فى الغرز : أى الجهاد أفضل ؟ قال : كلمة حق عند سلطان جائر » رواه النسائى بإسناد صحيح .

وإنما كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند السلطان الظالم من أفضل الجهاد ، لأنه يدل على كمال يقين فاعله وقوة إيمانه ، حيث تكلم عند ذلك الحاكم الجبار ولم يخف من جوره وبطشه ، بل باع نفسه لله ، وقدم أمر الله وحقه على حق نفسه ، وفى هذا مخاطرة أشد من مخاطرة المقاتل فى ساحة المعركة والله أعلم .

وعن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول مادخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : ياهذا اتق الله ودع ماتصنع فإنه لايحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه ، وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » ثم قال : ﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون ، ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وماأنزل إليه مااتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون** »[1] . ثم قال « كلا والله ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم » رواه أبوداود والترمذى وقال حديث حسن . هذا لفظ أبى داود ولفظ الترمذى .

قال رسول الله ﷺ « لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم ، فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئاً فقال : « لا والذي نفسى بيده ، حتى تأطروهم على الحق أطراً » وقوله (تأطروهم) أى تعطفوهم (ولتقصرنه) أى لتحبسنه .

أفاد الحديث جمع اليهود بين فعل المنكر والجهر به وعدم النهى عنه . والسكوت على فعل المعاصى إنما هو تحريض على فعلها وسبب لانتشارها . ولايكفى مجرد النهى عن المنكر باللسان مع القدرة على المنع باليد والقسر على الحق .

---

(١) سورة المائدة الآيات ٧٨ : ٨١ .

وعن أبي بكر الصديق — رضي الله عنه — قال : « يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾[1] وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » رواه أبوداود والترمذى والنسائى بأسانيد صحيحة .

أفاد الحديث أن على الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها ، وأن تتناصح وتتواصى ، وأن تهتدى بهدى الله ثم لايضرها بعد ذلك شيئاً أن يضل الناس حولها ، ولكن هذا لايعفيها من دعوة الناس كلهم إلى الهدى .

وأفاد أيضا : أن عقاب الله يشمل الظالم لظلمه وغير الظالم لإقراره عليه وقد قدر على منعه .

إجماع الأمة على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

ولاتجد أحداً من العلماء المتقدمين أو المتأخرين لم يجعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أساساً للدين ، وفريضة عظيمة من فرائض الأمة الإسلامية .

قال الضحاك : « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة من فرائض الله كتبها الله على المؤمنين » .

واستهل الإمام الغزالى بحثه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال :

« الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين وهو المهمة التى ابتعث الله لها النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة وعمت الفوضى ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذى خفنا أن يكون فإنا لله وإنا إليه راجعون إذ قد اندرس من هذا القطب بعمله وعلمه وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه ، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس فى اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لاتأخذه فى الله لومة لائم ، فمن سعى فى تلافى هذه الفوضى ، وسد هذه الثلمة ، إما متكفلا بعلمها ، أو متقلداً

---

(١) سورة المائدة الآية ١٠٥ .

لتنفيذها ، مجدداً لهذه السنة الداثرة ، ناهضا بأعبائها ومتشمراً فى إحيائها كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ومستمسكاً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها .

ثم يبدأ الباب الأول بقوله :

« الباب الأول فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفضيلته والمذمة فى إهماله وإضاعته ، ويدل على ذلك بعد إجماع الأمة عليه ، وإشارات العقول السليمة إليه ، الآيات والأخبار والآثار » .

ويقول أبوبكر الجصاص رحمه الله :

« أكد الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى مواضع من كتابه ، وبينه رسول الله ﷺ فى أخبار بتواتره عنه فيه ، وأجمع السلف وفقهاء الأمصار على وجوبه » .

وقال النووى رحمه الله :

« قد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وهو أيضاً من النصيحة التى هى من الدين » .

ويقول الإمام الشوكانى :

« وجوبه ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم واجبات الشريعة ، وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها » .

ولن يكمل هذا البحث حتى نقف على آية كريمة من سورة المائدة قال فيها سبحانه وتعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾[1] الآية .

وكلمات الآية توهم بادىء ذى بدء بأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لاحاجة إليه أصلاً ، فضلاً عن وجوبه . وحسب الإنسان لنجاته وفلاحه أن ينصرف إلى نفسه فيصلحها ويزكيها . والحق أن الآية المذكورة تبشر المؤمنين الذين استقاموا على الحق فى بيئة كافرة مشركة ، ودأبوا على القيام بالدعوة إلى الدين ، بأن القوى المعادية لهم

---

(١) سورة المائدة الآية ١٠٥ .

لاتستطيع أن تنال منهم أو تمسهم بسوء إذا لم تفتر هممهم ، واعتصموا بحبل الله تعالى وعضوا على دينه بالنواجذ ، ولم يحيدوا عنه قيد شعرة وليس فيها مايشير إلى فلاح المؤمنين غير منوط بفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

قال العلامة أبوالسعود :

« ولايتوهمن أن فيه رخصة فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع استطاعتهما ، كيف لا ومن جملة الاهتداء أن ينكر على المنكر حسبما تفى به الطاقة » .

وبه قال العلامة الجصاص ولفظه :

« ومن الاهتداء اتباع أمر الله فى أنفسنا وفى غيرنا فلا دلالة فيها إذاً على سقوط فرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

وقال أبوبكر الصديق فى خطبة له :

« أيها الناس إنكم لتتلون آية من كتاب الله وتعدونها رخصة والله ماأنزل الله فى كتابه أشد منها ﴿ ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾[1] والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله منه بعقاب » .

وفى رواية أخرى « ياأيها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية تضعونها على غير ما وضعها الله » . (مسند أحمد) .

وبالجملة فإن هذه الآية الكريمة لاتنفى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أبداً بل تؤكد فرضيته أبلغ التأكيد ، واعتبر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أهم فرائض الدين فى القرآن والسنة ، ولم يشك فى ذلك أحد من العلماء إلى عصرنا هذا . فإذا أردنا أن نرى دين الله تعالى فى مجتمعنا فى مكانه اللائق وتتمنى أن تكون كلمته هى العليا فى العالم فلاسبيل إليه إلا أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، وهو الذى طالبنا به الله تعالى وهو الطريق الذى سلكه الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه .

﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾[2] .

---

(١) المائدة الآية ١٠٥ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٧١ .

فرض كفاية أم فرض عين ؟

مما لاخلاف فيه بين العلماء أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة . ولكن اختلفوا فى كيفيتها : أفرض عين أم فرض كفاية ؟ .

ولابد للإجابة عن هذا السؤال أن نتبين الفرق بينهما :

الفرق بين فرض العين وفرض الكفاية :

ولقد أحسن العلامة ابن بدران الحنبلى فى إيضاح هذا الفرق ، وطبق المفضل فقال :

« فرض الكفاية وفرض العين مشتركان فى التعبد والمصلحة ، والفرق بينهما أن المقصود فى فرض الكفاية تحصيل المصلحة التى تضمنها فمن أى شخص حصلت كان هو المطلوب ، وفى فرض العين تعبد الأعيان بفعله » .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية عند الجمهور :

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند جمهور الأمة فرض كفاية وقال بعضهم إنه فرض عين .

رأى أغلبية الجمهور ـــ الدليل الأول :

ونستعرض هنا حجج الرأى الأول الذى ذهب إليه أغلبية العلماء : أولها هاتان الآيتان من القرآن الكريم فقال تعالى :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[1]

وقال فى موضع آخر :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾[2] .

يقول ابن العربى المالكى: إن الآيتين دليل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية .. لأن الآية الأولى توجب وجود طائفة فى الأمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، والثانية تدل على أنه عمل يتعلق بالأمة كلها . فعلم من ذلك أن الأمر بالمعروف

---

(١) آل عمران ١٠٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

والنهى عن المنكر وإن كان فرضاً على الأمة كافة ولكن يسقط عنها إذا قام به بعض أفرادها .

ويرى معظم المفسرين أن « من » فى الآية الأولى للتبعيض مما يدل على أن القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر غير واجب على كل فرد ، بل إنما يجب على بعض الأفراد .

الدليل الثانى :

والدليل الثانى : على كون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية ، أن هذا العمل يتطلب كفاية عالية ومواهب ممتازة ، فيجب على من يقوم به أن يمتاز بطول باع فى الشريعة الإسلامية وتفطن بالغ للأحوال النفسية ، والطبائع المختلفة ومعرفة دقيقة لمواطن القول وأساليب العمل مع بعد نظر ، وثقوب فكر وحصافة رأى . ومن البين أن هذه الصفات لايتحلى بها كل فرد مما يوجب أن لايكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض عين .

حجج القائلين بأنه فرض عين

والقائلون بأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض عين لايسلمون بأن الآية الكريمة ﴿ ولتكن منكم أمة ﴾[1] الآية .. تنص على أنه فرض كفاية ، فليست (من) عندهم للتبعيض ، ولكنها جاءت على سبيل المجاز كما وردت فى آية أخرى ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾[2] والظاهر أن الآية لاتعنى أن الله تعالى يغفر بعض ذنوبكم ، فمعنى الآية الأولى عندهم : لتكونوا أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

أما أنه لايمكن أن يؤدى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا أصحاب العلم فلايصح لأن كل مسلم يعرف الأمور الأساسية للدين ، ومن يجهل منا وجوب الصلاة والصيام وحرمة الخمر والزنا وغيرها من أحكام رئيسية يعرفها كل مسلم معرفة جيدة فيمكنه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيها . ولايحتاج لذلك إلى كفاية علمية ممتازة ولاشك أن رجلا عاديا لايستطيع ــ ولاينبغى له ــ أن يدلى بدلوه فى القضايا العلمية

(١) سورة آل عمران ١٠٤ .
(٢) سورة الأحقاف ٣١ .

والأمور التي تطلب البحث والتحقيق ولكن لايصعب على جاهل أداء واجبه ، كآخر عالم ، نحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المعروفات الظاهرة والمنكرات الصريحة .

يقول العلامة الشهيد عبدالقادر عودة :

« إن وضع واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على عاتق الجاهل لن يؤدي إلى الأضرار التي يتوقعونها لأن الجاهل بطبيعة الحال لايأمر ولاينهى إلا ماهو ظاهر لاخلاف عليه كأداء الصلوات والنهي عن السرقة والزنا » .

ويرى الشيخ محمد عبده أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين فيقول في تفسير الآية الكريمة ﴿ ولتكن منكم أمة ﴾[1] .

« المفروض الذي ينبغي أن يحمل عليه خطاب التنزيل هو أن المسلم لايجهل مايجب عليه ، وهو مأمور بالعلم والتفرقة بين المعروف والمنكر على أن المعروف عند إطلاقه يراد به ماعرفته العقول والطباع السليمة ، والمنكر ضده وهو ماأنكرته العقول والطباع السليمة ، ولايلزم لمعرفة هذا قراءة حاشية ابن عابدين على الدر ولافتح القدير ، ولا المبسوط وإنما المرشد إليه مع سلامة الفطرة — كتاب الله وسنة رسوله المنقولة بالتواتر والعمل . وهو مالايسع أحداً جهله ، ولايكون المسلم مسلماً إلا به فالذين منعوا عموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جوزوا أن يكون المسلم جاهلاً لايعرف الخير من الشر ، ولايميز بين المعروف والمنكر وهو لايجوز ديناً » .

— والحق أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتضمن إرشاد رجل عادى غيره إلى أمور الدين الأساسية ، كما يتضمن عملاً اجتهادياً يقوم به أحد من العلماء المجتهدين ، فيتم هذا العمل بأسلوب علمي دقيق حيناً ، وبأسلوب عادى بسيط حيناً آخر ، وهو ربما يقتضي دراسة واسعة للقرآن والحديث ، ومعرفة عميقة للعلوم الدينية ، وقد تغني معرفة إجمالية لمبادىء الدين وأحكامه الأساسية ويعرض في طريق هذا العمل عقبات يتطلب تذليلها كفاية علمية عالية واطلاعاً واسعاً على أحوال العصر ، كما يدور الحديث حول مشكلات يمكن معالجتها بيسير من العلم والنظر فلا يجوز لمن لايستطيع الاطلاع بهذه المهمة على مستوى رفيع أن يهملها إهمالا ، أو لاينهض بها في نطاق حدوده أيضاً .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

مزيد إيضاح لمذهب الجمهور :

١ ـــ القول بأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية ـــ كما ذهب إليه الجمهور ـــ لايغير فى حكم وجوبه ، فلا يختلف فى حقيقته عن فرض عين . فلا يصح مازعم بعضهم من الاختلاف فى حقيقة واجب العين وواجب الكفاية .

يقول العلامة الآمدى :

« لافرق عند أصحابنا بين واجب العين والواجب على الكفاية من جهة الوجوب لشمول حد الواجب لهما ، خلافاً لبعض الناس مصيراً منه إلا أن واجب العين لايسقط بفعل الغير ، بخلاف واجب الكفاية ، وغايته الاختلاف فى طريق الإسقاط ، وذلك لايوجب الاختلاف فى الحقيقة .

٢ ـــ يجب فرض الكفاية على الجماعة كافة بينما يجب فرض العين على كل فرد من أفرادها فلابد للجماعة كافة أن تكون معنية بالقيام بفريضة الكفاية كما يهم كل فرد أداء فريضة العين . لأن الجماعة التى أهملت فرض الكفاية تعمداً أو تهاوناً أو تغافلاً أثم أفرادها جميعاً . نعم إن ماقام به بعض أفرادها سقط عنهم جميعاً ، وأثيب القائمون به .

قال الشيخ عبدالعلى الأنصارى وهو يحدد الواجب على الكفاية :

« الواجب الذى من شأنه أن يثاب الآتون ولايعاقب التاركون ، إذا أتى به البعض وإن لم يأت أحد يعاقب الكل » .

ويدل ذلك على أن الجماعة التى تخاف عذاب الله وتريد أن تكون بمنجاة من بطش العزيز المقتدر ينبغى لها أن تتبع نظاما يفرض ـــ بصورة دائمة لاتنقطع ـــ قيام هذه الفريضة ، ووجود أفراد يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

٣ ـــ لايعنى القول بأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية أنه إذا قام فرد أو أفراد من الأمة الإسلامية بهذه الفريضة في بقعة من بقاع الأرض تخلت عنها الأمة جمعاء . فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بينما يقتضى القيام بالدعوة والتبليغ فى غير المسلمين بجانب إذا هو يتطلب بجانب آخر أداء هذه الفريضة فى المسلمين أنفسهم ، وإن كان العمل الأول فى غاية الصعوبة ، فإن العمل الثانى

لايقل عنه فى ذلك : لأن الأمة الإسلامية ليست بفئة قليلة العدد تسكن فى بقعة معينة من الأرض فهى منتشرة فى بقاع مختلفة ، وأصقاع متباعدة وليست لغتها واحدة ، فهى تتكلم بلغات كثيرة ، لايأتى عليها الحصر . وكذلك فإن الأمة الإسلامية ــ مع كونها وحدة دينية ــ خاضعة لفوارق حضارية وجغرافية كثيرة تفترق بحكمها طبعًا شتى جماعاتها وطوائفها فى ظروفها وأوضاعها وملابساتها وقضاياها ومشاكلها . فليس فى وسع فرد أو طائفة واحدة أن تقوم بهذه المهمة العظيمة الشاملة فى داخل الأمة وخارجها قياما تاما . ولايمكن ذلك إلاّ إذا قام بها جماعات كثيرة فى أقطار ومناطق مختلفة . وإن تصورنا وجود جماعة تستطيع القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى العالم كله بفضل تزودها بأدوات ووسائل غير عادية فإنها أيضاً تكون مفتقرة ــ فى كل منطقة ــ إلى عاملين يقومون بعملهم مراعين الظروف التى تخص منطقتهم والأحوال والملابسات التى تحيط بهم . وقد أرشد القرآن الكريم إلى منهج هذا العمل فقال تعالى :

﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾[1] .

ونورد هنا مايناسب المكان مما فسر به البيضاوى الآية الكريمة فقال :

فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة جماعة قليلة ليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقه ، إرشاد القوم وإنذارهم » .

علم من ذلك أن القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى بلاد مختلفة ومناطق شتى لايكفى لتحقيق الغرض فلابد منه فى كل بلد وكل قرية صغيرة كانت أو كبيرة .

يقول البغوى فى تفسير الآية :

« والفقه هو معرفة أحكام الدين ، وهو ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية ، ففرض العين مثل علم الطهارة والصلاة والصوم ، فعلى كل مكلف معرفته قال النبى ﷺ « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وكذلك كل عبادة أوجبها الشارع على واحد يجب عليه معرفتها ومعرفة علمها مثل علم الزكاة إن كان له مال ، وعلم الحج إن

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٢ .

وجب عليه . وأما فرض الكفاية فهو أن يتعلم حتى يبلغ درجة الاجتهاد ورتبة الفتيا فإذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعاً ، وإذا قام به من كل بلد واحد بتعلمه سقط الفرض عن الآخرين ، وعليهم تقليده فيما يقع من الحوادث » .

٤ ــ يقول الإمام ابن تيمية ــ شيخ الإسلام :

« الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لايجب على كل أحد بعينه ، بل هو على الكفاية ، كما دل عليه القرآن ، ولما كان الجهاد من تمام ذلك كان الجهاد أيضاً من فروض الكفاية » .

وقالت الفقهاء فى الجهاد : إن العدو إذا هجم على بلدة من بلاد المسلمين صار من فروض الأعيان سواء كان المستنفر عدلاً أو فاسقاً ، ووجب على جميع أهل تلك البلدة النفر ، وكذا من يقرب منهم إن لم يكن بأهلها كفاية ، وكذا من يقرب عمن تقرب إذ لم يكن بمن يقرب كفاية ، أو تكاسلوا أو عصوا وهكذا إلى أن يجب على جميع أهل الإسلام شرقاً وغرباً .

وكذلك تمامًا مما يوجب القياس بأنه إذا كان المعروف فى منطقة ضائعاً ، والمنكر شائعاً تحتم على أهلها السعى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن لم يشعروا بمسئوليتهم أو تهاونوا فى أدائها كان على من جاورهم أن يغدوا إلى تلك المنطقة ويؤدوا هذه الفريضة . وهب أن قرية مسلمة قد تورطت فى المنكرات ، أو فسدت عقائدها ، ولايوجد فيها من يصلح أهلها فيوجب الشرع على من يسكنون بجوارها القيام بإصلاحهم ، فإن لم يقوموا بهذا الواجب عاد على الأمة كلها تدريجياً كالجهاد .

٥ ــ إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع كونه فرض كفاية عند الجمهور يصير فرض عين فى مواطن كثيرة نذكر بعضها فيمايلي :

١ ــ هو فرض عين على من تنصبه الدولة الإسلامية للقيام به . يقول نظام النيسابورى :

« إن نصب لذلك رجل تعين عليه بحكم الولاية وهو المحتسب » .

٢ ــ إذا كان المعروف فى موضع تطمس معالمه والمنكر يقترف فيه ، ولايعرف ذلك إلا رجل واحد تعين عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

يقول ملا على القارى :
« إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية إن علم به أكثر من واحد وإلا فهو فرض عين على من رآه » .

٣ ـــ إذا احتاج الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى جدال واحتجاج ومناقشة كان فرض عين على من يصلح لذلك . يقول ابن العربى المالكي :
« الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية وقد يكون فرض عين إذا عرف المرء من نفسه صلاحية النظر والاستقلال بالجدال أو عرف ذلك منه » .

٤ ـــ إذا كان أحد يقدر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولايقوم به غيره فهو فرض عين عليه .

يقول الإمام ابن تيميه :
« وهو فرض على الكفاية ، ويصير فرض عين على القادر الذى لم يقم به غيره » .

وفى معناه يقول الغزالى :
« إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب وإن فرضه لايسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به » .

ولعلك تستطيع أن تدرك ـــ فى ضوء ماسبق من البحث المسهب المفصل ـــ أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـــ مع القول بفرضيته على الكفاية ـــ يتحتم على من يستطيع أداءه كلما وحيثما دعت الضرورة إلى ذلك ولن يسوغ أبداً أن يتشاغلوا عنه جميعا فيتعرض للإهمال إذا اقتضته الظروف والأحوال فلايجوز ألبتة إذن شىء من التقصير والتهاون فى القيام بهذه المهمة العظيمة .

يقول الإمام النووى رحمة الله : « واعلم أن هذا الباب أعنى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة ولم يبق منه فى هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب ﴿ فليحذر الذين

يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[1] فينبغى لطالب الآخرة والساعى فى تحصيل رضا الله عزوجل أن يعنى بهذا الباب فإن نفعه عظيم لاسيما وقد ذهب معظمه ويخلص نيته ولايهابن من ينكر عليه لارتفاع منزلته فإن الله عزوجل قال ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾[2] وقال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[3] واعلم أن الأجر على قدر النصب ولايتاركه أيضا لصداقته ومودته ومداهنته وطلب الوجاهة عنده فإن صداقته ومودته توجب له حرمة وحقا ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها وصديق الإنسان ومحبه هو من سعى فى عمارة آخرته وإن أدى ذلك إلى نقص فى دنياه وعدوه من يسعى فى ذهاب أو نقص آخرته وإن حصل بسبب ذلك صورة نفع فى دنياه وإنما كان إبليس عدوًا لنا لهذا ، وكانت الأنبياء أولياء للمؤمنين لسعيهم فى مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها . ونسأل الله الكريم توفيقنا وأحبابنا وسائر المسلمين لمرضاته وأن يعمنا بجوده ورحمته . والله أعلم « ا. هـ » .

* * *

---

(١) النور ٦٣ .
(٢) الحج ٤٠ .
(٣) سورة العنكبوت ٦٩ .

الفصل الرابع

هدى النبى محمد صلوات الله وسلامه عليه فى نشر الدعوة

الأصول التى أقام الدعوة عليها هى :

الأصل الأول الحجج البالغة

قال تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾(١) .

وقال تعالى ﴿ قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ﴾(٢) .

فكانت دعوته ﷺ تقوم على الآية البنية والحجج المحكمة فقد اعتمد فى تبليغها ونشرها على مايتقبله العقل السليم ويألفه الذوق ويتلمسه الوجدان ولاتقف دونه البديهة ولاتنكره الحقيقة .. ولذا لم يعتمد فى ذلك على الخوارق ، بل كان يوجه العقول إلى الحقائق ويهيب بها إلى التأمل فى الكون وماحوى من مظاهر الإبداع والإتقان ، وفى كل شىء له آية ناطقة بلسان حالها على أنه واحد لاشريك له ، موجود كامل الوجود ، ومن كان كذلك فهو واهب الوجود لكل موجود ، يدعوهم إلى النظر فى الكائنات ليصلوا من طريق التأمل الصادق والنظر الصحيح ، والبرهان القاطع ، إلى أن خالق الأكوان على هذا الإحكام والإتقان ومدبرها على هذا النظام البديع ، لابد قوى قادر وعليم حكيم ، لايعجزه شىء ولايعزب عن علمه مقدار ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، منزه عن

(١) سورة النحل ١٢٥ .

(٢) سورة يوسف ١٠٨ .

مشابهة المخلوقين غني عن العالمين ، فلا صاحبة ولا ولد ﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم** ﴾(١) .

على يدى هذا الرسول الأمين ، هكذا آمن الناس بالله على بينة ، وأشربوا فى قلوبهم عقيدة التوحيد الخالص عن عقل وروية ، وهذه هى طريقة القرآن الحكيم ، فقد جعل العقل حكما ، والبرهان أساس التعليم ، وعاب التقليد وذم المقلدين ، وعاب تقديس ماكان عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها كان ﷺ يدعو إلى الله تعالى بهذه الطريقة الواضحة ، وجدير بها أن تكون مسلكه فى الدعوة ، وجدير به أن يكون سبيله الدعوة إلى الله على هدى وبصيرة ﴿ **قل هذه سبيل أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله ومآأنا من المشركين** ﴾(٢).

نقول : هذه هى طريقة القرآن وسبيله الحكيم التى أرشد إليها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى الدعوة إليه تعالى ، وسار فيها علماء السلف الصالح من بعده رضوان الله عنهم أجمعين .

فقد أمر الله تعالى بالنظر فى الكائنات والتأمل فيها من دقائق الصنع وبدائع الإحكام والإتقان ، للوصول إلى هذا الغرض الأسمى فى آيات كثيرة من كتابه الحكيم . فقال جلّ وعلا :

﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم** ﴾(٣) .

﴿ **سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى** ﴾(٤) .

﴿ **قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد** ﴾(٥) .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠١ .
(٢) سورة يوسف الآية ١٠٨ .
(٣) سورة العلق الآيات ١ : ٥ .
(٤) سورة الأعلى الآيات ١ : ٥ . .
(٥) سورة الاخلاص الآيات ١ : ٤ .

﴿ قتل الإنسان ماأكفره . من أى شيء خلقه من نطفة ، خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ﴾[1] .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر ﴾[2] .

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حباً وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا وفاكهة وأبا ﴾[3] .

﴿ والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها . والسماء ومابناها ، والأرض وماطحاها ونفس وماسواها ﴾[4] .

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾[5] .

﴿ والمرسلات عرفاً ، فالعاصفات عصفاً ، والناشرات نشرا ، فالفارقات فرقاً ، فالملقيات ذكرا عذراً أو نذرا ﴾[6] .

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً ، كذلك الخروج ﴾[7]

﴿ ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين ﴾[8]

---

(١) سورة عبس الآيات ١٧ : ٢٠ .
(٢) سورة الطارق الآيات ٥ : ٨ .
(٣) سورة عبس الآيات ٢٤ : ٣١ .
(٤) سورة الشمس الآيات ١ : ٧ .
(٥) سورة القيامة الآيات ٣٦ : ٣٩ .
(٦) سورة المرسلات الآيات ١ : ٦ .
(٧) سورة ق الآيات ٦ : ١١ .
(٨) سورة البلد الآيات ٨ : ١٠ .

﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾(1) .

﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ (2)

﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شىء ﴾(3) .

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وماعملته أيديهم أفلا يشكرون سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾(4) .

﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾(5) .

﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ، أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾(6) .

---

(1) سورة الأعراف الآية ٥٤ .
(2) سورة الأعراف الآية ٥٧ .
(3) سورة الأعراف الآية ١٨٥ .
(4) سورة يس الآيات ٣٣ : ٤٠ .
(5) سورة يس الآيات ٧١ : ٧٣ .
(6) سورة يس الآيات ٧٧ : ٨١ .

﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ، وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾(١) .

﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾(٢) .

﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾(٣) .

﴿ ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾(٤) .

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾(٥) .

﴿ قال فمن ربكما ياموسى . قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولاينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾(٦) . .

---

(١) سورة الفرقان الآيات ٤٥ : ٥٠ .
(٢) سورة الفرقان الآيات ٥٣ : ٥٤ .
(٣) سورة الفرقان الآيات ٦١ : ٦٢ .
(٤) سورة فاطر الآية ٣ .
(٥) سورة فاطر الآية ٢٧ : ٢٨ .
(٦) سورة طه الآيات ٤٩ : ٥٤ .

﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ﴾[1] .

﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء . أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[2] .

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾[3] .

﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ، قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لايهدى إلا أن يهدى فمالكم كيف تحكمون . ومايتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لايغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون ﴾[4] .

﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ، وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم ، وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وماأنتم له بخازنين . وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ﴾[5] .

﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لاأحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما

---

(١) سورة الكهف الآية ٣٧ .
(٢) سورة القصص الآيات ٧١ : ٧٣ .
(٣) سورة يونس الآية ٣١ : ٣٢ .
(٤) سورة يونس الآيات ٣٤ : ٣٦ .
(٥) سورة الحجر الآيات ١٩ : ٢٣ .

تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وماأنا من المشركين ﴾[1] .

﴿ إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً ، نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾[2] .

﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾[3] .

﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم والله يعلم ماتسرون وماتعلنون والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون ﴾[4] .

---

(١) سورة الأنعام الآيات ٧٥ : ٧٩ .

(٢) سورة الأنعام الآيات ٩٥ : ٩٩ .

(٣) سورة لقمان الآية ٢٧ .

(٤) سورة النحل الآيات ١٠ : ٢٠

﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لاية لقوم يسمعون . وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾(١) .

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ، ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾(٢) .

﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله ، بل أكثرهم لايعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ماتذكرون ، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾(٣) .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم

---

(١) سورة النحل الآيات ٦٥ : ٦٩ .

(٢) سورة النحل الآيات ٧٨ : ٨١ .

(٣) سورة النمل الآيات ٦٠ : ٧١ .

خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وماكنا عن الخلق غافلين ، وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ، فأنشأنالكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ، وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾[1] .

﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾[2] .

﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفرأيتم ماتمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت ومانحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فى مالاتعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون أفرأيتم ماتحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما ، فظلتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار الذى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم ﴾[3] .

﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم

---

(١) سورة المؤمنين الآيات ١٢ : ٢٢ .

(٢) سورة الطور الآية ٣٥ : ٣٦ .

(٣) سورة الواقعة الآيات ٥٧ : ٧٤ .

يعقلون ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون وله من فى السموات والأرض كل له قانتون ، وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[1] .

﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾[2] .

﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم ﴾[3] .

﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾[4] .

﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان فبأى آلاء ربكما تكذبان خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار فبأى آلاء ربكما تكذبان رب المشرقين ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأى آلاء ربكما تكذبان وله الجوار

---

(١) سورة الروم الآيات ١٧ : ٢٧ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢١ : ٢٢ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٨ ـ ٢٩ .
(٤) سورة الرعد الآية ١٦

المنشآت فى البحر كالأعلام فبأى آلاء ربكما تكذبان كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[1] .

﴿ يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[2] .

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[3] .

وعلى الجملة فقد أحكم الله تعالى ماشرعه بأوضح دليل ، وأبين تعليل ، وعلم رسوله الصادق الأمين مايسلكه فى هداية الناس إلى الصراط المستقيم . ومن تتبع أخبار الداخلين فى الإسلام وجد الكثير منهم كان يعتنق الإسلام بمجرد أن يعرض عليه الإسلام ، ويتلى عليهم شيء من القرآن ، أما اقتراح المعجزات والإخبار بالغيب من بعض المتعنتين فإنهم يريدون به التهكم واللجاج لأنه كان يطالبهم بما تقتضيه الفطرة ويقبله العقل ، وهم يطالبونه بما ليس من شأنه ، ولا من حدود وظيفته . من ذلك ماحكى الله عنهم ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ، ومامنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ﴾[4] ومنه ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما

---

(١) سورة الرحمن الآيات ١ : ٢٧ .
(٢) سورة الحج الآيات ٥ : ٧ .
(٣) سورة آل عمران الآية ١٨ .
(٤) سورة الاسراء الآيات ٩٠ : ٩٤ .

أرسل الأولون ﴾(١) كالناقة والعصا واليد وأبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾(٢) .

الأصل الثاني : الأساليب الحكيمة

إن للحق والفضيلة نورا وجمالا ساحراً جذاباً تشعر به النفوس بأصل فطرتها غير أن نفوسا قد انحرفت عن سنة الفطرة السليمة لسوء المنبت أو فساد التربية بحكم الوراثة والبيئة الرديئة فصارت لاتبصر نور الحق ، ولايروقها جمال الفضيلة ، يظهر أمامها الحق واضحا فتراه باطلا ، وتتجلى بين يديها الفضيلة فتراها رذيلة .

وأصحاب هذه النفوس القذرة تراهم بالحشرات أشبه ، يتعذر إقناعهم ويستعصى على الدعاة الناصحين علاجهم (فمن العناء سياسة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب) لأن أمثال هؤلاء لايميلون إلى الرشد والهدى ، بل يألفون الغى والضلال ومن هذا النوع الخبيث عصابات كثيرة منى بها الإسلام ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه أثناء قيامه بالدعوة ، فلم ييأس من إصلاحهم وكان يعالجهم وكل الطوائف بالحكمة البالغة والعظة النافذة ، فى الأسلوب الذى يجعلها مألوفة للعقول ، خفيفة على القلوب ، فيدعون بالبرهان الجلى ، والحجة القاطعة طلاب الحقائق وهم خواص القوم ذوى النفوس الضعيفة ويدعو المعاندين المجادلين بالباطل بأحسن طرق المناظرة والمجادلة ، من الرفق واللين تلبية لأمر مولاه ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾(٣) .

فكان ﷺ يسلك الطرق الكفيلة بنجاح دعوته ، ويورد لكل مقام مقالا يليق به ، ويخاطب كل طبقة بما يناسبها وإليك أخى القارىء نماذج من هديه فى الدعوة إلى الله تعالى .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٥ .
(٢) سورة العنكبوت الآية ٥٠ : ٥١ .
(٣) سورة النحل الآية ١٢٥ .

الدعوة للأفراد والأشخاص

دعوة النبي ﷺ لأبي بكر الصديق

ذكر ابن إسحاق أن أبابكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ لقي رسول الله ﷺ فقال : أحق ماتقول قريش يامحمد من تركك آلهتنا وتسفيهك عقولنا وتكفيرك آباءنا ؟ فقال رسول الله ﷺ « بلى ، إني رسول الله ونبيه ، بعثني لأبلغ رسالته ، وأدعوك إلى الله الحق فوالله إنه للحق ، أدعوك ياأبابكر إلى الله وحده لاشريك له ولاتعبد غيره والموالاة على طاعته ، وقرأ ﷺ القرآن الكريم ، فأسلم وكفر بالأصنام وخلع الأنداد وأقر بحق الإسلام ، ورجع أبوبكر وهو مؤمن مصدق .

وقال ابن إسحاق بسنده عن محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله بن الحصين التميمي أن رسول الله ﷺ قال : « مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر إلا أبابكر ماعكم عنه حين ذكرته ولاتردد فيه » (عكم أي : تلبث) .

دعوته ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه

أخرج الطبراني عن عبدالله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال قال رسول الله ﷺ : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام ، فجعل الله دعوة رسوله ﷺ لعمر بن الخطاب ، فبنى عليه الإسلام وهدم به الأوثان » .

وعند أبي نعيم في الحلية عن أسلم قال قال لنا عمر ــ رضي الله عنه ــ : أتحبون أن أعلمكم أول إسلامي ؟ قلنا نعم ، قال : كنت من أشد الناس عداوة إلى رسول الله ﷺ فأتيت النبي ﷺ في دار عند الصفا فجلست بين يديه فأخذبمجمع قميصي ثم قال : أسلم ياابن الخطاب ! اللهم اهده ، قال : فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، قال : فكبر المسلمون تكبيرة سمعت في طرق مكة .

دعوته ﷺ لعثمان بن عفان ــ رضي الله عنه

أخرج المدائني عن عمرو بن عثمان قال قال عثمان : دخلت على خالتي أعودها أروى بنت عبدالمطلب فدخل رسول الله ﷺ فجعلت أنظر إليه ــ وقد ظهر من شأنه يومئذ شيء ــ فأقبل عليّ فقال : مالك ياعثمان ؟ قلت : أعجب منك ومن مكانتك فينا ومايقال عليك ؟ قال عثمان : فقال : لا إله إلا الله ــ فالله يعلم لقد اقشعرت ــ ثم

قال : ﴿ وفى السماء رزقكم وماتوعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ماأنكم تنطقون ﴾[1] ثم قام فخرج فخرجت خلفه وأدركته فأسلمت .

(كذا فى الاستيعاب ج ٤ ص ٣٢٥) .

دعوته ﷺ لعلى بن أبى طالب ـــ رضى الله عنه

ذكر ابن إسحاق أن عليًّ بن أبى طالب ـــ رضى الله عنه ـــ جاء وهما ـــ أى النبى ﷺ وخديجة ـــ رضى الله عنها ـــ يصليان فقال على : يامحمد : ماهذا ؟ قال : « دين الله الذى اصطفى لنفسه وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده لاشريك له ، وإلى عبادته ، وأن تكفر باللات والعزى ، فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاضٍ أمراً حتى أحدث به أباطالب ، فكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له ، ياعلى : إذا لم تسلم فاكتم ، فمكث علىٌّ تلك الليلة ثم إن الله أوقع فى قلب علىّ الإسلام فأصبح غاديا إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال : ماذا عرضت علىَّ يامحمد ؟ فقال له رسول الله ﷺ : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد » ففعل علىّ وأسلم ومكث يأتيه على خوف من أبى طالب ، وكتم علىّ إسلامه ولم يظهره ، (كذا فى البداية ج ٣ ص ٢٤) .

دعوته ﷺ لعمرو بن عبسة ـــ رضى الله عنه

أخرج أحمد عن شداد بن عبدالله قال : قال أبوأمامة : ياعمرو بن عبسة : بأى شىء تدعى أنك ربع الإسلام ؟ ـــ (ربع القوم أى صار رابعهم) ـــ قال : إنى كنت فى الجاهلية أرى الناس على ضلالة ولا أرى الأوثان شيئا ، ثم سمعت عن رجل يخبر أخبارا بمكة ويحدث أحاديث فركبت راحلتى حتى قدمت مكة فإذا أنا برسول الله ﷺ مستخفياً ، وإذا قومه عليه جراء فتلطفت له فدخلت عليه فقلت : من أنت ؟ قال : أنا نبى الله ، فقلت : ومانبى الله ؟ قال : رسول الله ، قال قلت : آ لله أرسلك ؟ قال : نعم ، قلت بأى شىء أرسلك ؟ قال : بأن يوحد الله ولايشرك به شىء ، وكسر الأوثان وصلة الأرحام فقلت له : من معك على هذا ؟ قال حر وعبد ـــ أو عبد وحر ـــ وإذا

---

[1] سورة الذاريات الآية ٢٢ ـــ ٢٣ .

معه أبوبكر بن قحافة وبلال مولى أبي بكر ، قلت إنى متبعك ، قال : إنك لاتستطيع ذلك يومك هذا ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بى قد ظهرت فالحق بى ، قال : فرجعت إلى أهلي وقد أسلمت ، فخرج رسول الله ﷺ مهاجرا إلى المدينة ، فجعلت أتخبر الأخبار حتى جاء ركبه من يثرب فقلت : ماهذا المكي الذى أتاكم ؟ قالوا : أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك وحيل بينهم وبينه وتركنا الناس إليه سراعا.قال عمرو بن عبسة : فركبت راحلتي حتى قدمت عليه المدينة فدخلت عليه ، فقلت يارسول الله : أتعرفنى ؟ قال : نعم ألست أنت الذى أتيتني بمكة ؟ قال قلت : بلى ، فقلت : يارسول الله علمنى بما علمك الله وأجهل .. (فذكر الحديث بطوله وهكذا أخرجه ابن سعد) . (أخرجه ايضا مسلم والطبرانى وأبونعيم كما فى الإصابة وابن عبدالبر فى الاستيعاب) .

دعوته ﷺ لخالد بن سعيد بن العاص ـــ رضى الله عنه

أخرج البيهقي بسنده عن محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان قال : « كان إسلام خالد بن سعيد بن العاص قديما وكان أول إخوته أسلم . وكان بدء إسلامه أنه رأى فى المنام أنه وقف به على شفير النار ـــ فذكر من سعتها ماالله أعلم به ـــ ويرى فى النوم كأن أباه يدفعه فيها ويرى رسول الله ﷺ آخذاً بحقويه لئلا يقع ، ففزع من نومه ، فقال أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق ، فلقى أبابكر بن أبي قحافة فذكر ذلك له ، فقال : أريد بك خير ، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه فإنك ستتبعه وتدخل معه الإسلام والإسلام يحجزك أن تدخل فيها ، وأبوك واقع فيها ، فلقى رسول الله ﷺ وهو بأجياد (موضع بمكة) فقال : يامحمد إلام تدعو ؟ قال : أدعوك إلى الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وتخلع ماأنت عليه من عبادة حجر لايسمع ولايضر ولايبصر ولاينفع ولايدرى من عبده ممن لايعبده » قال خالد : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله فسُرَّ رسول الله ﷺ بإسلامه وتغيب خالد وعلم أبوه بإسلامه ، فأرسل فى طلبه فأتى به ، فأنَّبه وضربه بمقرعة فى يده حتى كسرها على رأسه وقال : والله لأمنعنك القوت ، فقال خالد : إن منعتني فإن الله يرزقنى ماأعيش به ، وانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يلزمه ويكون معه .

(كذا فى البداية ج ٣ ـــ ص ٣٢) .

دعوته ﷺ لضماد ـــ رضى الله عنه

أخرج مسلم والبيهقى عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : قدم ضماد مكة ـــ وهو رجل من أزد شنوءة ـــ وكان يرقى من هذه الرياح فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إن محمداً مجنون . فقال : أين هذا الرجل ؟ لعل الله أن يشفيه على يدى ، فلقيت محمداً فقلت : إنى أرقى من هذه الرياح وإن الله يشفى على يدى من شاء ، فهلمّ فقال النبى محمداً ﷺ : « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له .. ثلاث مرات : فقال ضماد : والله لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات فهلمّ يدك أبايعك على الإسلام ، فبايعه رسول الله ﷺ فقال له : وعلى قومك ، فقال : وعلى قومى فبعث النبى ﷺ جيشاً فمروا بقوم ضماد ، فقال صاحب الجيش للسرية : هل أصبتم من هؤلاء القوم شيئاً ؟ فقال رجل منهم : أصبت منهم مطهرة ، فقال : ردها عليهم فإنهم قوم ضماد . (وفى رواية أخرى : فقال له ضماد : أعد علىّ كلماتك هؤلاء فلقد بلغن قاموس البحر (أى بلغت غاية البلاغة) .

(كذا فى البداية ج ٣ ص ٣٦)

وأخرجه أبونعيم فى دلائل النبوة من طريق الواقدى عن عبدالرحمن العدوى قال : قال ضماد : قدمت مكة معتمراً فجلست مجلسا فيه أبوجهل وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف ، فقال أبوجهل : هذا الرجل الذى فرق جماعتنا وسفه أحلامنا وأضل من مات منا ، وعاب آلهتنا ، فقال أمية : الرجل مجنون غير شك ، قال ضماد : فوقعت فى نفسى كلمته وقلت : إنى رجل أعالج من الريح ، فقمت من ذلك المجلس وأطلب رسول الله ﷺ فلم أصادفه ذلك اليوم حتى كان الغد ، فجئته فوجدته جالساً خلف المقام يصلى ، فجلست حتى فرغ ثم جلست إليه فقلت : يابن عبدالمطلب : فأقبل علىّ فقال : ماتشاء ؟ فقلت : إنى أعالج من الريح ، فإن أحببت عالجتك ولاتكبرن مابك فقد عالجت من كان به أشد مما بك فبرأ ، وسمعت قومك يذكرون فيك خصالا سيئة من تسفيه أحلامهم وتفريق جماعتهم وتضليل من مات منهم وعيب آلهتهم . فقلت : مافعل هذا إلا رجل به جنة ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الحمد لله نحمده ونستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .. قال ضماد : فسمعت كلاما لم أسمع كلاما قط أحسن منه ، فاستعدته الكلام فأعاد علىّ ، فقلت : إلام تدعو ؟

قال : إلى أن تؤمن بالله وحده لاشريك له وتخلع الأوثان من رقبتك ، وتشهد أنى رسول الله ، فقلت : فماذا لى إن فعلت ؟ قال : لك الجنة .. قلت : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأخلع الأوثان من رقبتى وأبرأ منها ، وأشهد أنك عبدالله ورسوله فأقمت مع رسول الله ﷺ حتى علمت سوراً كثيرة من القرآن ثم رجعت إلى قومى » . قال عبدالله بن عبدالرحمن العدوى : فبعث رسول الله ﷺ علىَّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — فى سرية وأصابوا عشرين بعيرا بموضع واستاقوها وبلغ علىّ ابن أبى طالب أنهم قوم ضماد — رضى الله عنه — فقال : ردوها إليهم فردت .

دعوته لعدى بن حاتم — رضى الله عنه

أخرج أحمد عن عدى بن حاتم قال : لما بلغنى خروج رسول الله ﷺ كرهت خروجه كراهية شديدة ، فخرجت حتى وقعت ناحية الروم — وفى رواية — حتى قدمت على قيصر — قال : فكرهت مكانى ذلك أشد من كراهتى لخروجه ، قال : قلت : والله لولا أتيت هذا الرجل فإن كان كاذباً لم يضرنى وإن كان صادقاً علمت ، قال : فقدمت فأتيته . فلما قدمت قال الناس : عدى بن حاتم .. عدى بن حاتم فدخلت على رسول الله ﷺ فقال لى : « ياعدى بن حاتم أسلم تسلم » ثلاثاً ، قال قلت : إنى على دين . قال : « أنا أعلم بدينك منك .. فقلت : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال : نعم ، ألست من الركوسية (الركوسية دين بين النصارى والصابئة) وأنت تأكل مرباع قومك ؟ (أى ربع الغنيمة) قلت : بلى . قال : إن هذا لايحل لك فى دينك » ، قال : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، فقال : « أما إنى أعلم الذى يمنعك من الإسلام تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لاقوة لهم وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد سمعت بها . قال : فوالذى نفسى بيده ليتمَّنَ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، وليفتحنَّ كنوز كسرى بن هرمز . قال : قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لايقبله أحد » قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تأتى من الحيرة فتطوف بالبيت على غير جوار ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله ﷺ قالها .

(كذا فى البداية ج ٥ ص ٦٦ .

دعوته ﷺ لأبي قحافة ــ رضى الله عنه

أخرج ابن سعد (ج ٥ ص ٤٥١) عن أسماء قالت : لما دخل رسول الله ﷺ مكة واطمأن وجلس فى المسجد أتاه أبو بكر بأبى قحافة فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « ياأبابكر ألا تركت الشيخ حتى أكون أنا الذى أمشى إليه ؟ قال يارسول الله أهو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه ، فأجلسه رسول الله ﷺ بين يديه ووضع يد على قلبه ثم قال : « ياأباقحافة أسلم تسلم ، قال : فأسلم وشهد شهادة الحق . قال وأدخل عليه ورأسه ولحيته كأنهما ثغامة ، فقال رسول الله ﷺ غيروا هذا الشيب وجنبوه السواد » .

دعوته ﷺ لأفراد المشركين ممن لم يسلم
(دعوته لأبي جهل)

أخرج البيهقى عن المغيرة بن شعبة قال : إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ أنا أمشى أنا وأبوجهل بن هشام فى بعض أزقة مكة ، إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل : « ياأباالحكم .. هلم إلى الله وإلى رسوله أدعوك إلى الله ، فقال أبوجهل : يامحمد هل أنت منته عن سب آلهتنا ؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت فوالله لو أنى أعلم أن ماتقول حق لاتبعتك . فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل عليّ فقال : والله إنى لأعلم أن مايقول حق ولكن يمنعني شيء أن بنى قصيٌّ قالوا : فينا الحجابة فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا السقاية : فقلنا : نعم ثم قالوا : فينا الندوة ، فقلنا نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا : منا نبى ، والله لا أفعل .

(كذا فى البداية ج ٣ ص ٦٤)

دعوته ﷺ للوليد بن المغيرة

أخرج إسحاق بن راهوية عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له ، فبلغ ذلك أباجهل فأتاه فقال : ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ، قال : لم ؟ قال : ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض ماقبله ، قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً . قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله مامنكم رجل أعرف بالأشعار منى

ولاأعلم برجزه ولابقصيده مني ولا بأشعار الجن ، والله مايشبه بقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقوله حلاوة . وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه يعلو ولايعلى ، وإنه ليحطم ماتحته ، قال : لايرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، قال : قف عني حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثر بأثره عن غيره ، فنزلت ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ﴾[1] الآيات هكذا رواه البيهقى عن الحاكم عن عبدالله بن محمد الصنعانى بمكة عن إسحاق ، وقد رواه حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة ، مرسلاً فيه أنه قرأ عليه ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾[2] .

(كذا فى البداية ج ٣ ص ٦٠)

عرضه ﷺ الدعوة على الجماعة

أخرج ابن جرير عن ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأباسفيان بن حرب ورجلاً من بنى عبدالدار ، وأبا البحترى أخا بنى الأسد والأسود ابن عبدالمطلب . بن أسد وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة ، وأباجهل بن هشام ، وعبدالله بن أبى أمية ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيها ومنبها ابنى الحجاج السهميين اجتمعوا ــ أو من اجتمع منهم ــ بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا ، وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بداء ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم .

فقالوا : يامحمد : إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله مانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ماأدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وفرقت الجماعة ، فما بقى من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك . فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا

(١) سورة المدثر ١١ : ١٣ .

(٢) سورة النحل الآية ٩٠ .

الذى يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك ــ فكانوا يسمون التابع من الجن (الرئى) ــ فربما كان ذلك ، بذلنا أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك . فقال رسول الله ﷺ : « مابى ماتقولون ، ماجئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىّ كتاباً وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم ــ أو كما قال رسول الله ﷺ » .

فقالوا : يامحمد .. فإن كنت غير قابل منا ماعرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً ولا أقل مالا ولا أشد عيشاً منا . فاسأل ربك الذى بعثك بما بعثك به فليُسيِّر عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا وليبسط بلادنا ، وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى ابن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ؟ فإن صنعت ماسألناك وصدقوك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولا كما تقول . فقال لهم رسول الله ﷺ « مابهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله بما بعثنى به ، فقد بلغتكم ماأرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بينى وبنكم » قالوا فإن لم تفعل هذا فخذ لنفسك فسل ربك يبعث ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزا وقصوراً من ذهب وفضة ، ويغنيك بها عما نراك فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى تعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن بعثنى الله بشيرا ونذيرا ، فإن تقبلوا ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .. قالوا : فأسقط السماء كما زعمت إن ربك إن شاء فعل ذلك فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك » فقالوا : يا محمد .. أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب ؟ فيقدم إليك ويعلمك ماتراجعنا به ويخبرك ماهو صانع فى ذلك بنا إذا لم نقبل منك ماجئتنا به ، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له

« الرحمن » وإنا والله لانؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا إليك يامحمد أما والله لانتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله ، وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلًا ، فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله علية وسلم عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم — وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب — فقال : يا محمد ! عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك ، ثم سألوك أن تعجل لهم ماتخوفهم به من العذاب ، فوالله لاأؤمن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سُلماً ثم ترتقى به وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله لوفعلت ذلك لظننت أنى لاأصدقك ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزيناً أسفا لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ولما رأى من مباعدتهم إياه .

(البداية ج ٣ ص ٥٠)

دعوته ﷺ لأبي الحيسر وفتية من بني عبد الأشهل .

أخرج أبو نعيم بسنده عن محمود بن لبيد أخي بني عبد الأشهل قال : لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة — ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ رضى الله عنه يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج — سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم : « هل لكم إلى خير مما جئتم له ؟ » فقالوا : وماذاك ؟ قال : « أنا رسول الله بعثنى الله إلى العباد أدعوهم إلى الله أن يعبدوا الله ولايشركوا به شيئا ونزل عليَّ الكتاب » ثم ذكر الإسلام وتلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ — وكان غلاما حدثا — أى قوم أهذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من البطحاء وضرب بها وجه إياس بن معاذ وقال : دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف إلى المدينة ، فكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك . قال محمود بن لبيد : فأخبرنى من حضره من قومى عند موته : أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره ويسبحه حتى مات فما يشكون أن قدمات مسلماً ، لقد كان

استشعر الإسلام فى ذلك المجلس حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمع . (كذا فى كنز العمال ج ٧ ص ١١ وأخرجه أيضا أحمد والطبرانى ورجاله ثقات كما قال الهيثمى)

عرضه ﷺ الدعوة على الجامع

(دعوته ﷺ لعشيرته الأقربين وبطون قريش عند نزول الآية)

أخرج أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أنزل الله ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾(١) أتى النبى صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم نادى « يا صباحاه ! » فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يابنى عبد المطلب ، يابنى فهر ، يابنى كعب .. أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى ؟ » قالوا نعم ، قال (فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) فقال أبو لهب : ـــ لعنه الله ـــ تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله عز وجل ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾(٢) .

(وأخرجه الشيخان نحوه كما فى البداية ج ٣ ص ٣٨)

عرضه ﷺ الدعوة فى مواسم الحج على قبائل العرب

أخرج أبو نعيم فى دلائل النبوة (ص ١٠١) عن عبد الله بن كعب بن مالك رضى الله عنهما قال : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين من نبوته مستخفيا ثم أعلن فى الرابعة فدعا عشر سنين يوافى المواسم يتبع الحاج فى منازلهم بعكاظ ومجنة وذى المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل ولهم الجنة فلايجد أحداً ينصره حتى أنه يسأل عن القبائل ومنازلهم قبيلة قبيلة حتى انتهى إلى بنى عامر بن صعصعة فلم يلق من أحد من الأذى قط مالقى منهم حتى خرج من عندهم وإنهم ليرمونه من ورائه حتى انتهى إلى بنى محارب بن خصفة فوجد فيهم شيخاً ابن مائة سنة وعشرين فكلمه رسول الله ﷺ ودعاه إلى الإسلام وأن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربه ، فقال الشيخ : أيها الرجل :

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤

(٢) سورة المسد الآية ١

قومك أعلم بنبأك والله لايؤوب بك رجل إلى أهله إلا آب بشر مايؤوب به أهل الموسم فاغن عنا نفسك وإن أبالهب لقائم يسمع كلام المحاربى . ثم وقف أبولهب على المحاربى فقال : لو كان أهل الموسم كلهم مثلك لترك هذا الدين الذى هو عليه إنه صابىء كذاب . قال المحاربى : أنت والله أعرف به هو ابن أخيك ولحمتك ثم المحاربى . لعل به ياأباعتبة : لمماً فإن معنا رجلاً من الحى يهتدى لعلاجه . فلم يرجع أبولهب بشيء غير أنه إذا رآه وقف على حى من أحياء العرب صاح به أبولهب إنه صابىء كذاب .

(عرضه ﷺ الدعوة على بكر)

وأخرج الحافظ أبونعيم عن العباس ـــ رضى الله عنه ـــ قال قال لى رسول الله ﷺ « لاأرى لى عندك ولاعند أخيك منعة فهل أنت مخرجى إلى السوق غداً حتى نقر فى منازل قبائل الناس . وكانت مجمع العرب . قال فقلت : هذه كندة ولفها ـــ أى ومن اجتمع حولها ـــ وهى أفضل من يحج البيت من اليمن ، وهذه منازل بكر بن وائل ، وهذه منازل بنى عامر بن صعصعة ، فاختر لنفسك ؟ قال فبدأ بكندة فأتاهم فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من أهل اليمن . قال : من أى اليمن ؟ . قالوا : من كندة . قال : من أى كندة ؟ ، قالوا : من بنى عمرو بن معاوية ، قال : فهل لكم إلى خير ؟ قالوا : وماهو ؟ قال : تشهدون أن لا إله إلا الله ، وتقيمون الصلاة ، وتؤمنون بما جاء من عند الله ، قال عبدالله بن الأجلح : وحدثنى أبى عن أشياخ قومه أن كندة قالت له : إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الملك لله يجعله حيث يشاء ، فقالوا : لاحاجة لنا فيما جئتنا به . وقال الكلبى : فقالوا : أجئتنا لتصدنا عن آلهتنا . وننابذ العرب ، الحق بقومك فلا حاجة لنا بك فانصرف من عندهم فأتى بكر بن وائل فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من بكر بن وائل ، فقال : من أى بكر بن وائل ؟ قالوا : من بنى قيس بن ثعلبة . قال : كيف العدد ؟ قالوا : كثير مثل الثرى . قال : فكيف المنعة ؟ قالوا : لامنعة جاورنا فارس فنحن لانمتنع منهم ولانجير عليهم . قال : فتجعلون الله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم وتستنكحوا نساءهم ، وتستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا الله ثلاثاً وثلاثين ، وتحمدوه ثلاثا وثلاثين وتكبروه أربعا وثلاثين . قالوا : ومن أنت ؟ قال : أنا رسول الله ثم انطلق فلما ولى عنهم قال الكلبى : وكان عمه أبولهب يتبعه فيقول للناس : لاتقبلوا قوله ، ثم مر أبولهب فقالوا : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم ، هذا فى الذروة منا فعن أى شأنه تسألون ؟ فأخبروه بما دعاهم إليه وقالوا :

زعم أنه رسول الله ، قال : ألا لاترفعوا برأسه قولا فإنه مجنون يهذى من أم رأسه . قالوا : قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ماذكر .

(كذا فى البداية ج ٣ ص ١٤٠)

وأخرج الطبرانى عن مدرك قال : حججت مع أبى ، فلما نزلنا منى إذا نحن بجماعة فقلت لأبى : ماهذه الجماعة ؟ قال : هذا الصابىء فإذا رسول الله ﷺ يقول : « ياأيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحون » .

(قال الهيثمى ورجاله ثقات)

عرضه عليه الصلاة والسلام
الدعوة على بني شيبان

وأخرج أبونعيم فى الدلائل (ص ٩٦) عن ابن عباس — رضى الله عنهما — عن على بن أبى طالب — رضى الله عنه — قال : لما أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبوبكر — رضى الله عنهم — إلى منى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب فتقدم أبوبكر فسلم — وكان أبوبكر مقدماً فى كل حين ، وكان رجلاً نسابة — فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من ربيعة . قال : وأى ربيعة أنتم ؟ فذكر الحديث بطوله ؛ وفيه قال : ثم انتهينا إلى مجلس عليه السكينة والوقار وإذا مشايخ لهم أقدار وهيئات ، فتقدم أبوبكر فسلم — قال علىّ : وكان مقدما فى كل حين — فقال لهم أبوبكر : ممن القوم ؟ قالوا : نحن بنو شيبان بن ثعلبة . فالتفت إلى رسول الله ﷺ وقال : بأبى أنت وأمى ليس بعد هؤلاء من عز فى قومهم وكان فى القوم مفروق بن عمرو ، وهانىء بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك . وكان أقرب القوم إلى أبى بكر مفروق بن عمرو ، وكان مفروق قد غلب عليهم بياناً ولساناً ، وكانت له غديرتان تسقطان على صدره . وكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر ، فقال له أبوبكر : كيف العدد فيكم ؟ . فقال له : إنا لنزيد على الألف ولن يغلب ألف من قلة . قال : فكيف المنعة فيكم ؟ قال : علينا الجُهد ولكل قوم جد قال أبوبكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ قال مفروق : إنا أشد مانكون غضبا حين نلقى ، وإنا أشد مانكون لقاء إذا غضبنا ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله . يديلنا مرة ويديل علينا مرة لعلك أخو قريش ؟ قال أبوبكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله ﷺ فها هو ذا . فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك . ثم

التفت إلى رسول الله ﷺ فقال : إلام تدعو ياأخا قريش ؟ فتقدم رسول الله ﷺ فجلس وقام أبوبكر يظلله بثوبه . فقال رسول الله ﷺ « أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده وأنى رسول الله وأن تؤوونى ، وتمنعونى ، وتنصرونى حتى أؤدى عن الله تعالى ماأمرنى به ، فإن قريشا قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغنى الحميد » قال له : وإلام تدعو أيضا ياأخا قريش : فتلا رسول الله ﷺ **﴿ قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ـــ إلى قوله ـــ وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾**(١) .

فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضا ياأخا قريش ؟ . فوالله ماهذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامنا لعرفناه ، فتلا رسول الله ﷺ : **﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ـــ إلى قوله ـــ لعلكم تذكرون ﴾**(٢) فقال له مفروق : دعوت والله ياقرشى إلى مكارم الأخلاق . ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك ، وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام هانىء بن قبيصة فقال : وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا . فقال له هانىء : قد سمعت مقالتك ياأخا قريش ، وصدقت قولك ، وإنى أرى إن تركنا ديننا واتبعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لم نتفكر فى أمرك ، وننظر فى عاقبة ماتدعون إليه زلة فى الرأى ، وطيشة فى العقل ، وقلة نظر فى العاقبة وإنما تكون الزلة مع العجلة ، وإن من ورائنا قوماً نكره أن نعقد عليهم عقداً . ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر ، وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام المثنى بن حارثة فقال : وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا . فقال المثنى : قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك ياأخا قريش . وأعجبنى ماتكلمت به والجواب هو جواب هانىء بن قبيصة ، إنما نزلنا بين صيرين ـــ والصير الماء الذى يحضره الناس ـــ أحدهما اليمامة والأخرى السماوة . فقال له رسول الله ﷺ : وماهذان الصيران ؟ فقال له : أنا أحدهما فطفوف البر وأرض العرب ، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لانحدث حدثا ولانؤوى محدثا ، ولعل هذا الأمر الذى تدعونا إليه مما تكرهه الملوك ، فأما ماكان ممايلى بلاد العرب فذنب مغفور

(١) سورة الأنعام الآيات ١٥١ : ١٥٣ .

(٢) سورة النحل الآية ٩٠ .

وعذره مقبول ، وأما ماكان مما يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول . فإن أردت أن ننصرك مما يلي العرب فعلينا ، فقال رسول الله ﷺ : « ماأسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق إنه لايقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه » . ثم نهض رسول الله ﷺ قابضاً على يد أبي بكر — رضى الله عنه — ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله ﷺ . قال علي — رضى الله عنه — وكان صُدُقا صُبُراً — رضوان الله عليهم أجمعين .

عرضه ﷺ الدعوة على الأوس والخزرج

أخرج أبونعيم أيضا فى الدلائل (ص ١٠٥) عن عقيل بن أبى طالب — رضى الله عنه — والزهرى — رضى الله عنه — قال : لما اشتد المشركون على رسول الله ﷺ قال لعمه العباس بن عبدالمطلب — رضى الله عنه — : « ياعم إن الله عز وجل ناصر دينه بقوم يهون عليهم رغم قريش عزا فى ذات الله تعالى فامض بى إلى عكاظ فأرنى منازل القوم أحياء العرب حتى أدعوهم إلى الله عز وجل وأن يمنعونى ويؤوونى حتى أبلغ عن الله عز وجل ماأرسلنى به » قال فقال العباس : ياابن أخى امض إلى عكاظ فأنا ماض معك حتى أدلك على منازل الأحياء فبدأ رسول الله ﷺ بثقيف ثم استقرى القبائل فى سنته . فلما كان العام المقبل — وذلك حين أمر الله تعالى أن يعلن الدعاء — لقى الستة نفر الخزرجيين والأوسيين : أسعد بن زرارة ، وأبوالهيثم التيمهان ، وعبدالله بن رواحة ، وسعد بن الربيع ، والنعمان بن حارثة ، وعبادة بن الصامت . فلقيهم النبى ﷺ فى أيام منى عند جمرة العقبة ليلا ، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله عزوجل وإلى عبادته ، والموازرة على دينه الذى بعث به أنبياءه ورسله فسألوه أن يعرض عليهم ماأوحى إليه فقرأ رسول الله ﷺ سورة إبراهيم ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا .. ﴾ (١) إلى آخر السورة فرق القوم وأخبتوا حين سمعوا وأجابوه .. الحديث .

إرساله ﷺ الأفراد للدعوة إلى الله وإلى رسوله

أخرج أبونعيم فى الحلية (ج ١ ص ١٠٧) عن عروة بن الزبير — رضى الله عنهما : أن الأنصار لما سمعوا من رسول الله ﷺ قوله أيقنوا واطمأنت أنفسهم إلى دعوته فصدقوه وآمنوا به — كانوا من أسباب الخير وواعدوه الموسم من العام القابل

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٥ .

فرجعوا إلى قومهم وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك فيدعو الناس إلى كتاب الله ، فإنه أدنى أن يتبع . فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير — رضي الله عنه — أخا بني عبدالدار ، فنزل في بني غنم على أسعد بن زرارة ، يحدثهم ويقص عليهم القرآن . فلم يزل مصعب بن عمير عند سعد بن معاذ يدعو ويهدى لله تعالى على يديه حتى قلّ دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس لامحالة ، وأسلم أشرافهم ، وأسلم عمرو بن الجموح وكسرت أصنامهم ، ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله ﷺ وكان يدعى المقرىء .

إرساله ﷺ الرسل والرسائل لتبليغ الملوك والأمراء

أخرج البيهقى عن ابن إسحاق قال : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشي « السلام عليك فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى فتؤمن بى وبالذى جاءنى فإنى رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ومعه نفر من المسلمين فإذا جاءوك فأقرهم ودع التجبر فإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وبلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى » .

وأخرج البخارى عن ابن عباس حديث أبى سفيان مع هرقل وفيه نص رسالة رسول الله إليه وهذا نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم .. سلام على من اتبع الهدى . أما بعد .. فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿ **ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾[1] .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق نص رسالة الرسول ﷺ إلى كسرى وهي : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس : سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن

(١) سورة آل عمران الآية ٦٤ .

محمدا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين فإن تسلم تسلم وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك » .

وأخرج البيهقي نص رسالة الرسول ﷺ إلى أهل نجران وهى :

« باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد النبى رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران . أما بعد .. فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد . فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم آذنتكم بحرب والسلام .

فائـــدة :

بدأ النبي ﷺ هذه الرسالة بقوله « بسم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب .. لأن النصارى كانوا متفقين على أن إبراهيم أب للأنبياء فأراد ﷺ أن يبدأ معهم بما يتفقون معه عليه .

وقد أرسل الرسول ﷺ رسائل مشابهة إلى المقوقس وإلى ملك اليمامة وإلى المنذر بن ساوى عظيم البحرين وإلى الحارث بن أبي شمر الغسانى وإلى الحارث بن عبدكلال الحميرى وإلى ملكي عمان ابنى الجلندى وغيرهم . وبدأت كتابة هذه الرسائل إلى الملوك والأمراء فى العام السادس من الهجرة النبوية .

فهذه نماذج من عملية التبليغ عند رسول الله ﷺ تعطيك صورة مبسطة عن قيامه عليه السلام بتبليغ أمر الله ودينه وشريعته ، واستيفاء هذا الموضوع حقه يحتاج إلى مجلد ضخم على الأقل . إذ أن رسول الله ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاما بعد النبوة ، لم يهدأ ولم يسترح ولم يفوت فرصة يستطيع بها أن يبلغ رسالة الله إلا وبلغ بالاتصال الشخصى والعرض الجماعى ، وفى السفر والحضر وبنفسه وأتباعه وبالمشافهة والخطاب ، ثم عمم الأمر على أمته جميعا بأن عليهم واجب البلاغ عنه ، حتى لايبقى إنسان من البشر إلا وقد بلغته دعوته . وانظر إلى نتائج هذا كله تجد أنه عليه الصلاة والسلام لم يمت إلا والجزيرة العربية كلها مستجيبة لأمر الله ، وأكبر الدول المجاورة للجزيرة العربية قد بلغتها الدعوة ولم يمض عصر الخلفاء الراشدين إلا وكان أكثر العالم المعروف وقتذاك قد بلغته الدعوة . فمن مستجيب ومن معرض قامت عليه الحجة فأجبر على الكفر عنادًا ومامن إنسان يستطيع أن يتصور مثل هذا الحماس للتبليغ المنقطع يمكن أن يكون إلا وليد اقتناع كامل بصدق الدعوة والداعية ، وماكان الداعية ليعطى هذا الحماس لأتباعه لو لم يكن هو فى أعلى حالات الصدق والقيام بالواجب والشعور بالمسئولية أمام الله تعالى إن قصر فيه . إن

تاريخ العالم كله لايقص علينا ، أن أحداً قد استوعبت دعوته ، من قبل الآخرين فى حياته كما حدث لرسول الله ﷺ الذى لم يمت إلا وعشرات الآلاف من أتباعه يحفظون من الكتاب المنزل عليه الكثير ، ومن أحاديثه وتعاليمه الكثير والكثير . ثم حفظت نصوص تعاليمه حرفياً لكل الأجيال الآتية بعد لأنها كلها مكلفة باتباعه ومحاسبة أمام الله إن لم تفعل ، فاللهم نشهد أنك يارسول الله بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وكشفت الغمة وجاهدت فى سبيل الله حتى أتاك اليقين ، فاللهم اجز نبينا خير ماجزيت به نبياً عن قومه ورسولا عن أمته .

الأصل الثالث (من الأصول التى أقام الدعوة عليها)

الآداب الســامية

قد تكون الدعوة قوية الحجة ، حكيمة الأسلوب ولكن يعوزها شيء من الأدب الراقى وحسن التصرف ، إذ لايكفى فى الدعوة إلى الحق أن يطرق الداعى بها الأندية والمجتمعات أو يعرضها على الأفراد فى مختلف الأوقات دون أن يكسوها من جمال الأدب مايجعلها حسنة السمت ، بعيدة الأثر فى نفوس السامعين فكم من خطيب مصقع وفصيح مفوه ، يغشى المجالس ويزاحم الدعاة الناصحين فى الدعوة إلى الحق والفضيلة فلايكون نصيبه إلا إعراض الناس عن دعوته كما يعرضون عن البضاعة المزجاة ، ولو علموا العلة فى ذلك لأصلحوا أنفسهم أولاً ، وألبسوها حلة الآداب وخلعوا على دعوتهم من هذه الحلل النفيسة ، فإن كل من يتصدى لتكميل الناقصين وإصلاح النفوس ، لابد أن يكون مثلاً أعلى فى الاستقامة والخلق الفاضل ، لهذا كان رسول الله ﷺ داعيا إلى الله تعالى بأخلاقه وأعماله قبل أن يكون داعيا بأقواله ، فكان صلوات الله وسلامه عليه قدوة حسنة وشخصية ممتازة بكل مزايا الأدب والكمال التى تكون فى الدعاة إلى الخير والفضيلة ، أدبه مولاه فأحسن تأديبه ، ورباه فأكمل تربيته قال تعالى ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[1] وقال جل شأنه ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى ﴿ **لقد جاءكم رسول من**

(١) سورة القلم الآية ٤ .
(٢) آل عمران الآية ١٥٩ .

أنفسكم عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾(١) وكثيراً ماكان يظهر أدبه فى أقواله وفى أعماله كالأمثلة الآتية :

أنه كان ﷺ يأخذ فيها بالرفق والحلم والثبات والصبر ، فكثيراً ماكان يلحقه الأذى من سفهاء المشركين فيتلقاه بالصبر الجميل امتثالاً لقول ربه ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولاتستعجل لهم** ﴾(٢) ﴿ **فأصبر صبراً جميلاً** ﴾(٣) وكان يرميه بعض الجفاة من الأعراب بالكلمة الغليظة الخبيثة فيقابلها بالصفح والابتسام والإنعام تلبية لقول مولاه ﴿ **ولاتستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ومايلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾(٤) ولقوله تعالى ﴿ **واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾(٥)

فقد كان القرآن الكريم منهل أخلاقه ، قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ ، فقالت أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت كان خلقه القرآن .

فكيف لايكون فى القمة من حلو الشمائل وحميد السجايا ؟

سيدى يارسول الله :

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا
منها وما يتعشق الكبراء
لو لم تُقم دنيا . لقامت وحدها
دنياً تضىء بنوره الآناء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل
يغرى بهن ويولع الكرماء
وإذا سخوت بلغت بالجود المدى
وفعلت مالا تفعل الأنواء

---

(١) التوبة الآية ١٢٨ .
(٢) الأحقاف ٣٥ .
(٣) المعارج ٥ .
(٤) فصلت ٣٤ : ٣٥ .
(٥) سورة لقمان الآية ١٧ .

وإذا عفوت فقادراً ومقدراً
لايستهين بعفوك الجهـــلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا غضبت فإنما هى غضبة
للحق لاضغن ولاشحنـــاء
وإذا رضيت فذاك فى مرضاته
ورضى الكثير تحلم ورياء
وإذا خطبت فللمنابر هزة
تعرو الندى وللقلوب بكاء
وإذا بنيت فخير زوج عشرة
وإذا ابتنيت فدونك الآباء
وإذا صحبت رأى الوفاء مجسما
فى بردك الأصحاب والخلطاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته
فجميع عهدك ذمة ووفاء

لقد كان ﷺ فى هذه القمة ، ولكنه مشغوف بالاستزادة ، حتى أنه كان يقول فى دعائه (اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقى ، اللهم جنبنى منكرات الأخلاق ، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لايهدى لأحسنها إلا أنت) .

وقد ناط مكارم الأخلاق برسالته ، فقال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وكان ﷺ لايفتأ يحض المسلمين على التحلى بالفضائل والآداب السامية ، وينفرهم من الرذائل .

وله فى هذا أحاديث كثيرة ، منها قوله ﷺ : « إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطؤون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون » .

وقوله « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم بالليل الظامىء بالهواجر » .

وقوله : « أكثر مايدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق » .

وقوله : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق » .

وسئل : أى الأعمال أفضل ؟ قال : خلق حسن .

وسئل : أى المؤمنين أكمل إيمانا ؟ قال : أحسنهم خلقا .

كان ﷺ مشغوفا بمكارم الأخلاق شغفه بتبليغ الرسالة . وبطاعة الله وتقواه فكان المثل الأعلى فى كل فضيلة ، وكان خليقا بثناء الله سبحانه وتعالى عليه فى كتابه الكريم ، كقوله ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾(١) وقوله : ﴿ **فلاأقسم بما تبصرون ومالاتبصرون إنه لقول رسول كريم** ﴾(٢) وقوله : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾(٣) .

وحسبه من التشريف الإلهى أن الله تعالى أقسم بحياته فى قوله تعالى : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾(٤) ولم يقسم الله بحياة أحد غير محمد عليه الصلاة والسلام .

وحسبنا من وصف أصحابه له قول عليّ بن أبى طالب : إنه كان أجود الناس كفا ، وأجرأ الناس قلبا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابة ، ومن خالطه أحبه .

فلنشرع فى السقيا من جداول نهره الزاخر بمكارم الأخلاق :

أولا : نماذج من صبره ﷺ :

١ ـــ مرَّ معك فى بحث التبليغ صور من صبره ﷺ على الاضطهاد والتعذيب ، والإيذاء والسخرية والردود القبيحة عليه والإهانات المتوالية ، وكل هذا تحمله بصبر . فإذا ماعلمنا أن هذه الفترة استغرقت ثلاثة عشر عاما ، أدركنا مقدار الصبر الذى تمتع به رسول الله ﷺ وليس هذا فحسب بل كل ماأصيب به هو أصيب به أتباعه والأذى يجرح نفس الإنسان ويحطم أعصابه ، ومع ذلك فما أبه ﷺ لهذا كله ، بل تحمله وتحمل معه الاتهامات الباطلة بالجنون والكذب والسحر .

---

(١) سورة القلم الآية ٤ .
(٢) سورة الحاقة الآيات ٣٨ : ٤٠ .
(٣) سورة الأحزاب الآية ٢١ .
(٤) سورة الحجر الآية ٧٢ .

والذى جرب هذه القضايا كلها يعلم كم تحتاج إلى طاقة من الصبر لاتنفد . فإذا ماعلمنا أن رسول الله ﷺ تحمل هذا كله وهو يقف من الناس موقف الهجوم وموقف الدعوة إلى ماعنده . نعلم أن المسألة هنا أكبر من الصبر ذاته .

٢ ــ فإذا ماانتقلنا إلى موطن آخر يمتحن فيه الصبر أبرز مواقفه الصابرة فى الحرب والتى تتحطم بها أقوى الأعصاب يوم أحد ويوم الخندق ، يوم الهزيمة الذى بقى فيه ثابتاً ، ويوم الحصار الذى أخذ بالأنفاس وبقى فيه كله أمل ، وهاك وصفا مختصراً لموقفه الصابر فى اليومين :

روى مسلم أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش : « واستطاع المشركون أن يخلصوا قريباً من النبى ﷺ فرماه أحدهم بحجر كسر أنفه ، ورباعيته وشجه فى وجهه فأثقله وتفجر منه الدم وشاع أن محمداً قتل فتفرق المسلمون ودخل بعضهم المدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل واختلطت على الصحابة أحوالهم فما يدرون مايفعلون . وكان النبى ﷺ ينثل السهام من كنانته ويعطيها سعد بن أبى وقاص ويقول ارم فداك أبى وأمى وكان أبوطلحة الأنصارى راميا ماهراً فى إصابة الهدف قاتل دون رسول الله ﷺ فكان إذا رمى رفع رسول الله ﷺ شخصه ينظر أين يقع سهمه .

فى هذا اليوم الشديد إذ فر المسلمون ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا هذا العدد القليل ومع ذلك بقى صابرا يدير المعركة التى طرفاها ثلاثة آلاف مقابل أفراد . ولم يهزم ولكنه أصر على من معه على الاستبسال . حتى رأى المشركون أن خسارتهم أكبر من ربحهم فتركوهم .

فأى صبر هذا الصبر ؟

ولاننسى أن نذكر أن الشائعة بقتل محمد ﷺ كانت قد راجت والرسول ﷺ نفسه منع من عرفه من تكذيبها . حتى يثبط قريشاً عن المضى فى المعركة . فإذن هو صبر فى أحرج المواقف لايخرج صاحبه عن كامل التدبير .

ويوم الخندق وقد حوصرت المدينة هذا الحصار الطويل الصعب الذى لم يعرف المسلمون فيه نوما ولا راحة والأحزاب تمطرهم بوابل من الهجمات على الأمكنة الضعيفة وتحركات المسلحين من مكان إلى مكان خشية المباغتة وقد طالت الفترة وتعب

المسلمون . وكانوا كما وصفهم الله تعالى ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا ﴾[1] .

فى هذا الوضع المخيف يأتى الخبر الصاعق أن قريظة نقضت عهدها وقررت القتال وأصبح المسلمون جميعا معرضين لقتل الأنفس وسبى الذرية فأى صبر يحتاجه القائد فى تلك اللحظات فى ذلك الموقف الذى يحطم الأعصاب .

لقد تقنع رسول الله ﷺ بثوبه واضطجع ومكث طويلاً حتى إذا هضم المسلمون خطورة موقفهم قام يبث الأمل ويشد العزائم ويرفع المعنويات وهو يقول :

« أبشروا بفتح الله ونصره » إن خطورة الموقف الشديد لم تؤثر ذرة على أعصاب القائد العظيم بل هو الصبر الذى يربو على الصبر .

٣ ـــ فإذا ماانتقلنا إلى موطن آخر من المواطن التى يمتحن فيها الصبر وهو موطن موت الأولاد والأقارب والأصحاب وقلب رسول الله ﷺ القلب الرحيم ، ومع ذلك فإنه الصبر الذى يفيض العبرة بلا شكوى ولاضجر .

أخرج ابن سعد عن أنس بن مالك ـــ رضى الله عنه ـــ قال : « رأيت إبراهيم وهو يجود بنفسه بين يدى رسول الله ﷺ فدمعت عينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : تدمع العين ويحزن القلب ولانقول إلا مايرضى ربنا والله ياإبراهيم إنا بك لمحزونون » .

وأخرج الطيالسى وأحمد وأبوداود والترمذى عن أسامة بن زيد ـــ رضى الله عنه ـــ قال : كنا عند النبى ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيًا لها فى الموت . فقال الرسول : ارجع إليها فأخبرها أن لله ماأخذ وله ماأعطى وكل شىء عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب فعاد الرسول فقال : إنها قد أقسمت لتأتينها فقام النبى ﷺ وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ورجال وانطلقت معهم فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبى ونفسه تقعقع كأنها فى شىء . ففاضت عيناه ﷺ فقال له سعد : ماهذا يارسول الله ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله فى قلوب من يشاء من عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ١٠ ، ١١ .

٤ ــ فإذا ماانتقلنا إلى موطن آخر من المواطن التي يتحقق فيها الصبر وهو الصبر على المرض والجوع والفقر . نجده دائما القمة التي لايرقى إليها الراقون .

أخرج أحمد والطبراني واللفظ للطبراني :

« أن فاطمة ناولت النبي ﷺ كسرة من خبز الشعير فقال : ماهذه ؟ قالت : قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال لها : هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام » .

وأخرج مسلم والترمذي عن النعمان بن بشير ــ رضي الله عنه ــ قال :

« ألستم في طعام وشراب ماشئتم ؟ لقد رأيت نبيكم ﷺ ومايجد من الدقل مايملأ بطنه » (الدقل : أردأ التمر) وفي رواية لمسلم عن النعمان ــ رضي الله عنه ــ قال : ذكر عمر ــ رضي الله عنه ، ماأصاب الناس من الدنيا ــ فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي مايجد من الدقل مايملأ به بطنه .

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت : توفي رسول الله ﷺ ، ومافي بيتي من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي ، فأكلت منه حتى طال عليَّ ، فكلته ففني (متفق عليه) ، (شطر شعير : أي شيء من شعير . كذا فسره الترمذي) .

وعن عمرو بن الحارث أخي جويرية بنت الحارث أم المؤمنين ــ رضي الله عنهما ــ قال : « ماترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولادرهما ، ولاعبدا ، ولاأمة ، ولاشيئا إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه ، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة » رواه البخاري .

●●●

وأنت ترى من هذه الأمثلة أنه مامن موطن من مواطن امتحان الصبر إلا وقد امتحن فيه صبر رسول الله ﷺ . وفي كل مرة نجد عنده الصبر الذي لايخالطه هلع ، إنها أخلاق النبوة ، في أعلى كمالات البشر .

ثانيا : نماذج من رحمته ﷺ :

١ ــ والناس الذين يخوضون المعارك ويسوسون البشر تقسو قلوبهم وتجف دموعهم ، ونادراً ماتجد الموغل في ذلك متصفاً بصفة الرحمة ، ولكن رسول الله ﷺ ومن اقتدى

به ليسوا من هذا الطراز ، فمهما شئت عندهم من شجاعة وقوة وشدة وصبر وجلد ، ولكنها صفات لاتطغي على خلق الرحمة أبداً ، بل إن هذه الصفات في كمالها فكذلك خلق الرحمة عنده ﷺ في كماله ، وقد رأيته في فقرة سابقة كيف تفيض عينه ﷺ في كثير من المواقف رحمة وشفقة وهو الصابر الذى ماعرف أكثر صبراً منه ، والمقاتل الذى ماعرف أكثر حنكة منه ، يفيض قلبه بالرحمة فيبكي وتدمع عيناه ، وقد يسمع صوت بكائه ، إنها نفس تجيش جيشانا ببحار الرحمة .

٢ ـــ وهناك مواطن يفقد فيها الرحماء رحمتهم ولكن رسول الله ﷺ لاتفارقه رحمته يؤذى ويضطهد فيقول : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » . ويوم فتح مكة وقد فعلت به قريش مافعلت ، كان موقفه غير المتوقع كما قص عمر قال : لما كان يوم الفتح ورسول الله ﷺ بمكة أرسل إلى صفوان بن أمية وإلى أبي سفيان بن حرب وإلى الحارث ابن هشام قال عمر : فقلت : لقد أمكن الله منهم لأعرفنهم بما صنعوا حتى قال رسول الله ﷺ مثلي ومثلكم كما قال يوسف لأخوته ﴿ **لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾[1] قال عمر : فافتضحت حياء من رسول الله ﷺ كراهية أن يكون بدر مني وقد قال لهم رسول الله ﷺ ماقال .

إن المواطن التى تغيب عادة فيها عواطف الرحمة بعواطف الانتقام أو الانتصار تبقى صفة الرحمة عند رسول الله ﷺ في محلها لاتطغي على غيرها عليها .

وكانت رحمته ﷺ تسع الناس جميعا ويحس بها المستضعفون قبل الأقوياء ، يقول عبدالله بن عمرو : دخل النبى ﷺ المسجد فجلس إلى الفقراء وبشرهم بالجنة وبدا على وجوههم البشر فحزنت لأننى لم أكن منهم .

أخرج البخارى عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : جاء رجل إلى نبى الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد ، فقال : أحي والداك ؟ قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد .

وروى أبوداود عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : جئت أبايعك على الهجرة ، وتركت أبوىّ يبكيان ، فقال : ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما .

---

(١) سورة يوسف الآية ٩٢ .

إن هذه الرحمة لتسمو إلى أعلى درجات الحنان والشفقة بالآباء ، والأمهات ، لأن الرسول ﷺ لم يأذن بالجهاد فى سبيل الله إلا بعد أن يستأذن الابن والديه ، ولم يبايع على الهجرة من أبكى والديه بالعزم على الهجرة وأمره أن يعود إليهما فيضحكهما كما أبكاهما .

شكا إليه رجل أنه يتأخر عن صلاة الصبح مع الجماعة لأن فلاناً يطيل بالناس ، فغضب رسول الله ﷺ وقال : « إن منكم منفرين فأيكم صلى بالناس فليتجوز — أى فليخفف — فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة» (رواه البخارى) .

وبلغت رحمته ﷺ الحيوان فكان أرحم الخلق به . قال عبدالرحمن بن عبدالله : كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فرأينا حمرة (طائر مثل العصفور) معها فرخان لها فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف) فلما جاء الرسول ﷺ قال : « من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها » (رواه البخارى فى الأدب المفرد) .

ونهى ﷺ أن يتخذ الحيوان هدفا يرمى بالنبال ليتعلم فيه الرمى ، وأمر من يريد الذبح أن يحد شفرته ويريح ذبيحته وألا يذبح الحيوان بمرأى من الحيوان ، إن رحمته بلغت كل شيء ولكنها الرحمة التى لاتجاوز حدها :

لما أسر أباعزة الشاعر أول مرة استعطفه حتى أطلق سراحه على شرط ألاّ يقف بعد اليوم ضده ، وتدور الأيام ويدخل أبوعزة المعركة ضد رسول الله ﷺ فيأسره مرة ثانية ويستعطفه مرة ثانية ولكن رسول الله ﷺ يقول : لايلدغ المؤمن من جحر مرتين ويأمر بقتله ، وهذا الذى سنه رسول الله ﷺ فى هذا الحالة هو الذى أخذ به القانون الدولى فى القرن العشرين حيث نص على أن الأسير الذى يطلق سراحه بشرط عدم الدخول فى المعركة ضد آسريه مرة ثانية إذا أسر بعدها يقتل .

إنها الرحمة التى تفيض حتى تعم الخلق ، ولكنها لاتجاوز محلها فتطغى على صفات الكمال الأخرى .

إنها الرحمة التى تفيض حتى تكاد تقتل صاحبها أسى لما يرى انصراف الخلق عن طريق الجنة إلى طريق النار ، حتى يعاتب الله عزوجل صاحبها ﴿ **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً** ﴾[1] .

---

(١) سورة الكهف الآية ٦ .

إنها رحمة النبوة وإنها صفاتها .

ثالثا : نماذج من حلمه ﷺ :

١ ـــ وله ﷺ من الحلم ـــ كما له من كل خلق ـــ كما له . يغضب للحق إذا انتهكت حرماته وإذا غضب فلا يقوم لغضبه شيء حتى يهدم الباطل وينتهى ، وفيما عدا ذلك فهو أحلم الناس عن جاهل لايعرف أدب الخطاب أو مسيء إلى رسول الله ﷺ نفسه يمكن إصلاحه ، أو منافق يتظاهر بغير مايبطن وتجد حلمه دائماً عجيباً . يفوق الحد الذى يتصوره الإنسان خاصة وإن حلمه مع القدرة على البطش والقتل والإرهاب إذ لايشك أحد أن رسول الله ﷺ لو أمر بقتل إنسان لتبادر المئات إلى تنفيذ أمره ففى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسما إذا أتاه ذو الخويصرة ـــ رجل من بنى تميم ـــ فقال : يارسول الله .. اعدل فقال رسول الله ﷺ : ويلك من يعدل إن لم أعدل ؟! لقد خبت وخسرت ! إذا لم أعدل فمن يعدل ؟ فقال عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ يارسول الله إئذن لى فيه فأضرب عنقه . فقال رسول الله ﷺ : دعه .

وروى أحمد عن عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ قالت : « ماضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط ولا امرأة ولاضرب بيده شيئاً إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولاخير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما إلا أن يكون إثماً فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الإثم . ولا انتقم من شيء يؤتى إليه حتى تنتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله » .

وأخرج ابن جرير عن أنس ـــ رضى الله عنه ـــ قال : دخل رسول الله ﷺ يوما المسجد وعليه برد نجرانى غليظ الصنعة فأتاه أعرابى من خلفه فأخذ بجانب ردائه حتى أثرت الصنعة فى صفح عنق رسول الله ﷺ فقال : يامحمد أعطنا من مال الله الذى عندك فالتفت رسول الله ﷺ فتبسم فقال : مروا له .

وحلمه ﷺ أوسع من أن يحاط بجوانبه ، ولولا هذا الحلم مااستطاع أن يسوس أمة كالعرب يأنف أن يطيع أو ينصاع أو يجرح وصدق الله العظيم **﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾**[1] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

رابعاً : نماذج من كرمه : ﷺ :

إن الكرم فى الإسلام طريق من طرق الجنة ، وأن البخل طريق النار ولذلك فقد كان كرم رسول الله ﷺ لايجارى . ولايبارى .

إن الله سبحانه وتعالى قد جعل خمس الغنائم إليه وكانت حصته عليه الصلاة والسلام من هذا الخمس الخمس . وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة ولو أراد رسول الله ﷺ أن يجمع مالاً لكان أكثر الخلق مالاً . إن خمس غنائم حنين كان ثمانية آلاف من الغنم وأربعة آلاف وثمان من الجمال . وثمانية آلاف أوقية من الفضة وألف ومئتان من السبى . هذا الخمس الذى لرسول الله ﷺ وقرباه منه خمساه فكم نتصور غنى الرسول ﷺ لو أراد أن يجمع مالاً من غزواته كلها من خيبر الغنية وقريظة وبنى النضير . فإذا علمنا مقدار حق رسول الله ﷺ المعطى له من هذه الأموال فقط مثل هذا وإذا عرفنا أنه كان بالإمكان استثماره وتنميته ثم علمنا بعد ذلك أن رسول الله ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودى وأنه أمر أن يوزع ميراثه إن كان على المسلمين ، وأنه ليس لأقاربه من ميراثه شيء وأنه ماكان يلبس إلا الخشن ولاينام إلا على القليل ، وأنه يجوع الأيام وأنه كان يخشى إذا بقى فى بيته مال فلم يوزعه على الناس ، وكل ذلك قد مر منه أمثلة معك . أدركت أى كرم كان عنده ﷺ وأى نفس طاهرة هذه النفس وأدركت أنها النبوة . وأن غير النبوة لاتجود بهذا الجود وترضى مع القدرة بهذه الحياة ، إلا إذا كانت نفساً متأسية برسول الله ﷺ .

أخرج الشيخان عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما :

« كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود مايكون فى رمضان حين يلقى جبريل عليه السلام . وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن قال : فرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة » .

وأخرج الشيخان عن جابر ـــ رضى الله عنه ـــ قال : ماسئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا ..

وأخرج أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ لم يسأل شيئاً على الإسلام إلا أعطاه قال : فأتاه رجل فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة . قال : فرجع إلى قومه فقال : « ياقوم أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء مايخشى الفاقة » .

وقد وصفه على بن أبى طالب بقوله : « كان أجود الناس كفاً » .

وقد كانت مظاهر كرمه حتى قبل البعثة ، قالت السيدة خديجة : « إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » (الحديث معناه فى صحيح البخارى) .

وفى الصحيح عن صفوان بن أمية قال : لقد أعطانى رسول الله ﷺ ماأعطانى وأنه لمن أبغض الناس إلىَّ فما برح يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلىَّ . قال ابن شهاب الزهرى : أعطاه يوم حنين مائة من النعم ثم مائة ثم مائة .

وفى مغازى الواقدى أن النبى ﷺ أعطى صفوان يومئذ وادياً مملوءً إبلا ونعماً فقال صفوان : « أشهد ماطابت بهذا إلا نفس نبى » .

وخرج البخارى من حديث سهل بن سعد أن شملة أهديت للنبى ﷺ فلبسها وهو محتاج إليها فسأله إياها رجل فأعطاه فلامه الناس وقالوا كان محتاجاً إليها وقد علمت أنه لايرد سائلاً فقال إنما سألتها لتكون كفنى فكانت كفنه .

تعود بسط الكف حتى لو أنه
ثناها لقبض لم تجبه أنامله
تراه إذا ماجئته متهللا
كأنك تعطيه الذى أنت سائله
هو البحر من أى النواحى أتيته
فلجته المعروف والجود ساحله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه
لجاد بها فليتق الله سائله

خامساً : نماذج من تواضعه وتياسره ﷺ :

كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى تواضعه ، لأنه أعلى الناس قدراً عند الله وعند الناس ، ولكنه لايتعالى عليهم ، بل يتنزل فى غير امتهان ، تنزل العظيم الذى يحب صحبه ، كما يحب إخوته وبنيه ، ويعلم أنهم يحبونه ويجلونه ويؤثرونه فى أنفسهم .

وكان هذا التواضع لايزيده إلا جلالا فى عيونهم ، ولايزيده إلا محبة فى قلوبهم .

وقد شمل تواضعه معاملاته وأعماله ومظهره العام .

حدث أبو سعيد الخدرى قال : كان رسول الله ﷺ يعلف الناضح ويعقل البعير ، ويقيم البيت ، ويحلب الشاه ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويأكل مع خادمه ، ويطحن عنه إذا تعب ، ويشترى الشيء من السوق فيحمله إلى أهله ، ويصافح الغنى والفقير والكبير والصغير ويسلم مبتدئا على كل من استقبله ، من صغير أو كبير ، وأسود وأحمر ، وحر أو عبد . (من كتاب الإحياء ٣٠٦/٣) .

ولما سمع الرسول بأن قريشاً وحلفاءها قادمون إلى المدينة ضرب الخندق على المدينة ، فعمل فيه ترغيبا للمسلمين فى الأجر ، وتشجيعاً لهم على العمل ، ودأب فيه ودأبوا ، وكان ﷺ ينقل التراب وقد وارى بياض بطنه ، وهو يقول :

اللهمَّ لولا أنت مااهتدينا ولاتصدقنـــا ولاصلينـــا
فأنزلـــنَّ سكينـــة علينـــا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنـــة أبينـــا

ويقول قيس بن سعد :

زارنا رسول الله ﷺ فى منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد أبى رداً خفياً فقلت لأبى : ألا تأذن لرسول الله ، فقال : زده حتى يكثر علينا من السلام ، فقال ﷺ السلام عليكم وورحمة الله ، ثم رجع فاتبعه سعد فقال يارسول الله .. إنى كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفياً لتكثر علينا من السلام فانصرف معه النبى ﷺ وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران فاشتمل بها ثم رفع يديه وهو يقول : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد .

فلما أراد الانصراف قرب له سعد حماراً ، فقال سعد : ياقيس .. اصحب رسول الله فصحبته فقال : اركب معى فأبيت فقال : إما أن تركب وإما أن تنصرف .

انظروا كيف كان يستأذن على أحد أصحابه وكيف يتصرف ، هذه زيارة سيد العرب والعجم لأحد أنصاره من كبار المدينة تمر فى غير حفل ولاظهور . يذهب إليه ماشيا ، ويعود على حمار يريد أن يردف عليه رفيقه . تلك السجية الطاهرة لم تحل دون أن يكون أمر محمد مطاعا وطاعته قربة . فإن حسب الناس أن مظاهر الرياسة والسلطة والسلطان لازمة لحسن الولاء واستدامة الطاعة ، فلقد كان ولاء سعد والأنصار لمحمد

المتواضع مضرب الأمثال فى تاريخ الدعوة الإسلامية (بل فى كل التاريخ) ولم تكن دعوته قيساً إلى الركوب معه على الحمار أمراً غريباً . بل كانت هذه عادته يردف على حماره وبغلته وناقته ويعاقب مع رفاقه (والمعاقبة أن يركب واحد مرة ويركب الثانى أخرى) . قال ابن عباس : إن النبى ﷺ لما قدم مكة استقبله أغيلمة بنى عبدالمطلب فحمل واحدا بين يديه وآخر خلفه .

وكان محمد ﷺ يكره الإطراء ، والألقاب ، انطلق إليه وفد بنى عامر ، فلما كانوا عنده قالوا : أنت سيدنا فقال : السيد الله ، فقالوا : وأفضلنا فضلا ، وأعظمنا طولا ، فقال : قولوا قولكم ، ولايستجرينكم الشيطان .

كان في تياسره جم التواضع ، وافر الأدب يبدأ الناس بالسلام ويتصرف بكله إلى محدثه صغيراً كان أو كبيراً أو يكون آخر من يسحب يده إذا صافح .

وإذا تصدق وضع الصدقة فى يد المسكين ، وإذا أقبل جلس حيث ينتهى المجلس بأصحابه . لم يكن يأنف من عمل يعمله لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار .

وكان محمد ﷺ كذلك متواضعا فى ملبسه وسكنه يلبس كعامة من حوله ويسكن ، وقد واتته الدولة والسلطان فى صف من حجرات واطئة مبنية باللبن ، بين كل حجرة وأخرى حائط من جريد النخل ملبس بالطين ومغطى بجلد أو كساء أسود من الشعر . وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويقبل عذر المعتذر ، وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله بيده ، ويخدم نفسه ويعقل بعيره ويأكل مع الخادم ويقضى حاجة الضعيف والبائس .

يقول « وليم موير » فى وصف تواضعه وتياسره : « كانت السهولة صورة من حياته كلها ، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته فى معاملته لأقل تابعيه ، فالتواضع والشفقة والصبر والإيثار والجود صفات ملازمة لشخصه وجالبة لمحبة جميع من حوله فلم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنا ولاهدية مهما صغرت وماكان يتعالى ويبرز فى مجلسه ولاشعر أحد عنده أنه لايختصه بإقبال وإن كان حقيراً . وكان إذا لقى من يفرح بنجاح أصابه أمسك يده وشاركه سروره . وكان مع المصاب والحزين شريكا شديد العطف حسن المواساة وكان فى أوقات العسر ، يقتسم قوته مع الناس ، وهو دائم الاشتغال والتفكير فى راحة من حوله وهنائهم » .

وكان محمد بأخلاقه شخصية من اليسر والتواضع لاتبديل ولاتغيير فيها ، هي النفس التي اتصلت بالسماء وعاشت على الأرض دانية إلى الناس محببة إليهم في كل أطوار حياته . كان بطل الأبطال ﷺ المثل الأعلى الذى نحن اليوم أحوج مانكون إليه فى نطاق الأخوة الإسلامية ، لايرفع من شأن أحدهم غنى أو جاه أو حسب أو نسب وإنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى والناس من آدم وآدم من تراب .

والذى ذكرناه ماهو فى الحقيقة إلا غيض من فيض عظمته عليه الصلاة والسلام وغرفة من بحر كمالاته صلوات الله وسلامه عليه . ومن أراد المزيد من ضروب المآثر ، والإحاطة ببحور المحاسن والمكارم .. فليرجع إلى ماكتبه المؤرخون ، ومادونه المحدثون فإن فيها مايشفى الصدور ومايروى الغليل .

فما عليكم — يادعاة الإسلام — إلا أن تعقلوا العزم ، وتشحذوا الهمة لتتأسوا بالكمال الإنسانى المتجسد فى شخصية نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه .. وهذا مايجعلكم متميزين على سائر الناس فى كل شيء متميزين فى العبادة ، متميزين فى الصبر ، متميزين فى الرحمة ، متميزين فى التواضع ، متميزين فى الحلم .. إلى غير ذلك من بوادر الكمال ومكارم الأخلاق وعندئذ يثق الناس بكم ، ويستجيبون لدعوتكم ، ويتأثرون بأقوالكم ، وينحنون تحت رايتكم .. ويؤازرونكم فى تحقيق أهدافكم .. ولن تمضى فترة وجيزة من الزمن إلا وقد ولدت الدولة الإسلامية وهى تتيه على الدول عزاً وقوة وفخاراً .. وعندئذ ﴿ **يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم** ﴾[1] .

• • •

(١) سورة الروم الآية ٤ : ٥

من كتاب الرسول للأستاذ سعيد حوى بتصرف يسير .

الفصل الخامس
هديــه ﷺ فــى تربيــة أصحابــه علـــى الأخــــلاق الســـامية

قال تعالى ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[1] .

يقول الأستاذ سعيد حوى : فقد أحصت هذه الآية من مهمات الرسول التعليم والتربية . تعليم الكتاب والحكمة وتربية الأنفس عليها ، وكان الجانب الأعظم من حياة رسول الله ﷺ مستغرقاً بهذا الجانب إذ أنه هو الجانب الذى ينبع عنه كل خير ولايستقيم أخلاقيا إلا به ولايرقى الإنسان ولاترقى أمة ولاترقى الإنسانية إلا من التفريط فى العلم الصحيح والانحراف عنه . إما إلى الجهل أو إلى مايضر علمه ولاينفع .

فالأمة بلاعلم يوضح لها جوانب سلوكها ، وبلاتربية يعرف كل فرد من أفرادها واجبه . تصبح أمة فوضوية تصرفاتها غير متوقعة وغير منضبطة . ولكل فرد من أفرادها سلوك يخالف سلوك الآخر وعادات وتصورات تختلف فلاتكاد أمة تفلح بهذا ولافرد .

والظاهرة التى تجدها فى تاريخ النبى محمد ﷺ أن الرسول ﷺ بدأ تشكيل أمة جديدة لها كل مقوماتها الفكرية والسلوكية والأخلاقية والتشريعية والدستورية واللسانية . بحيث ينبت الفرد فيها عن صلته بأى عالم غير عالم هذه الأمة . من حيث العقيدة والسلوك فصهر أفراد هذه الأمة انصهاراً تاماً . ثم أطلق هذه الأمة فى اتجاه وحيد حدد فيه لكل فرد مهمته ، ورباه على أدائها ، وحدد للجميع المهمة الكبرى ، ورسم

(١) سورة الجمعة الآية ٢ .

لهم الطريق ، موضحا لهم كل شيء فى كل جانب ، وقادهم فى هذا الطريق فترة ثم تركهم ماضيا إلى ربه ، فانطلقوا بعده لاغيروا ولابدلوا فكان ماكان ولازال . مما نشاهده من آثار المسلم العظيم الذى كلما تعثر أخذت بيده تعاليم محمد ﷺ وتربيته فأنقذته وقذفت به إلى الأمام .

وبعد : فإننا نقول : إن كمال المربى يظهر :

١ ـــ بمقدار مايستطيع أن ينقل نفس الإنسان وعقله من حالة دنيا إلى حالة أعلى وكلما رق بالإنسان أكثر كلما دل ذلك على كماله أكثر .

٢ ـــ فى سعة دائرة البشر الذين استطاع أن ينقلهم إلى كمالهم الإنسانى فكلما كانت الدائرة أوسع كلما كان أدل على الكمال .

٣ ـــ ثم فى صلاحية هذه التعاليم والتربية ، وحاجة الناس جميعا لها ، واستمرار إيتاء هذه التعاليم آثارها على مدى العصور . بحيث لايستغنى عنها البشر ، وبشهادة العدو والصديق والمؤمن والكافر مابلغ أحد فى تاريخ البشرية مابلغه محمد ﷺ فى هذه الجوانب كلها حتى قال موير : « لم يكن الإصلاح أعسر ولاأبعد منالا منه وقت ظهور محمد ولانعلم نجاحاً وصلاحاً تم كالذى تركه عند وفاته » وقالت دائرة المعارف البريطانية « لقد صادف محمد النجاح الذى لم ينل مثله نبى ولامصلح دينى فى زمن من الأزمنة » .

إن جميع الدعوات الدينية قد تركت أثرا فى تاريخ البشر ، وكل رجال الدعوة والأنبياء قد أثروا تأثيراً عميقا فى حضارة عصرهم وأقوامهم ولكننا لانعرف فى تاريخ البشر أن ديناً انتشر بهذه السرعة ، وغير العالم بأثره المباشر كما فعل الإسلام ولانعرف فى التاريخ دعوة كان صاحبها سيدًا مالكا لزمانه ولقومه كما كان محمد . لقد أخرج أمة إلى الوجود ومكن لعبادة فى الأرض وفتحها لرسالة الطهر والفضيلة ، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين ، وأصل النظام والتناسق والطاعة والعزة فى أقوام لاتعرف غير الفوضى » .

هذه شهادة الدارسين ممن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وقد أعماهم حقد صليبى موروث فشهدوا ولم يؤمنوا . وماأغنانا عن شهادتهم وشهادة الواقع أمامنا على كل جانب من هذه الجوانب المذكورة آنفا .

وهناك آثار تربيته :

أصحاب الرسول ﷺ الذين شرفوا برؤيته والإيمان به وعشرات الألوف . من هذه الألوف من رافقه كل فترة البعثة ، ومنهم من رآه مرة فسمع منه حديثا . وإذا أنت أجريت مقارنة بين حياة هؤلاء قبل تلمذتهم على النبى ﷺ وبين حياتهم بعده ، بين واقعهم قبل ذلك وبين واقعهم بعده ، بين أعمالهم وتصرفاتهم قبل ، وبين أعمالهم وتصرفاتهم بعد . بين أهدافهم الأولى ، وأهدافهم الثانية . بين تصوراتهم عن الله والكون والإنسان أولا وبين تصوراتهم ثانياً ، إنك تخرج من نتيجة المقارنة وأنت ترى النقلة البعيدة الكبيرة الواسعة التي نقل إليها رسول الله ﷺ هؤلاء من طور إلى طور ، من حضيض إلى سمو لايدانيه سمو آخر .

خذ مثلاً شخصية عمر بن الخطاب فى الجاهلية تجده رجلاً قبلى الفكر والطبيعة والعاطفة والتصور ، محدود الإدراك ، همه فى الحياة . السكر واللهو والبطالة مع أصدقائه ، ولولا رسول الله ﷺ لعاش عمر ومات عمر وماأحس به أحد ولكنه ماأن يشرب كأس الإسلام من يد رسول الله ﷺ حتى يصبح عمر المشرع العبقرى الفذ ورجل الدولة العظيم الكبير ، ورمز العدل الذى لايكون إلا معه مع الحزم والرحمة ، وسعة الأفق وصدق الإدراك وحسن الفراسة .

عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — الذى أصبح ملء الدنيا سمعها وبصرها . ماكان ليكون شيئا لولا أن تربى فى حجر رسول الله ﷺ فأخذ منه العلم والحكمة والأدب .

عبدالله بن مسعود راعى الإبل المحتقر المهان فى قريش الذى ماكان ليعرفه إلا سيده ، ومن يستخدمه ، هذا الرجل النحيل القصير الحمش الساقين . ماذا يصبح بعد أن ربته يد النبوة ؟ يصبح الرجل الذى يعتبر مؤسس أكبر مدرسة فى الفقه الإسلامى والتى ينتسب إليها أبوحنيفة النعمان ، يصبح الرجل الذى يقول فيه عمر لأهل الكوفة : « لقد آثرتكم بعبدالله على نفسى » .

إنك عندما تدرس شخصية الإنسان قبل اتصالها برسول الله ﷺ وبعد اتصالها تجد أن كل شيء فيها قد تغير وتجد كل طاقاتها وملكاتها قد انطلقت فى الطريق الصحيح الطاقات الحسية ، والطاقات العقلية ، والطاقات النفسية ، والطاقات الوجدانية ، والمعنوية والأخلاقية .

هذه الطاقات كلها انطلقت فى إطارها الصحيح وطريقها المستقيم . بحيث لايستطيع إنسان أن يقول إن طاقة ما معطلة عند أصحابه أو أنها تعمل عملاً صالح .

إنك لاتجد طاقة من طاقات الإنسان إلا وقد أطلقها رسول الله ﷺ فى طريقها الصحيح ، فأصبحت ترى من أصحابه العجب ، فى تكامل شخصياتهم عبادا زهادا ، شجعانا محاربين عادلين رحماء إداريين سياسيين حكماء مربيين . كل واحد منهم أمة ، ومأأسهل عليه أن يقود أمة ، ولا أدل على ذلك أنه ندر واحد منهم لم يصبح أميرا بعد ذلك ولم يفشل واحد منهم فى ما ولى من قيادات .

وإذا أردت أن ترى مقدار مارفع رسول الله ﷺ النفس البشرية فاقرأ هذه الأمثلة البسيطة ذات الدلالة الكبيرة .

أخرج النسائى عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أن فتاة قالت ــ بعثت للنبى ﷺ « إن أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته ، وأنا كارهة فأرسل النبى ﷺ إلى أبيها فجاء فجعل الأمر إليها فقالت : يارسول الله إنى قد أجزت ماصنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء » .

أرأيت كيف ارتفعت نفسية المرأة حتى أصبحت تعرف حقها ، وتريد أن تعرف الأخريات عليه . وأصبحت تستطيع أن تشكو إذا هضم حقها ، وتجد من يسمع لها ويعطيها إياه . متى كان ذلك ؟ لولا تربية الرسول ﷺ .

هديه ﷺ فى تربية أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين

قال ربنا تبارك اسمه ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[1].

وقال جل شأنه ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾[3].

فقد أحصت هذه الآيات المباركات من مهمات الرسول ﷺ التعليم والتربية ، تعليم الكتاب والحكمة ، وتربية الأنفس عليهما ، وكان الجانب الأعظم من حياة الرسول الكريم ﷺ مستغرقا بهذا الجانب إذ أنه هو الجانب الذى ينبع عنه كل خير ولايستقيم أى جانب من جوانب الحياة سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو عسكريا أو أخلاقيا إلا به ولايؤتى الإنسان ولاتؤتى الأمة إلا من التفريط فى العلم الصحيح والانحراف إما إلى الجهل أو إلى مايضر علمه ولاينفع .

فالأمة بلا علم يوضح لها جوانب سلوكها ، وبلا تربية يعرف كل فرد من أفرادها واجبه تصبح أمة فوضوية ، تصرفاتها غير متوقعة وغير منضبطة ، ولكل فرد من أفرادها سلوك يخالف الآخر وعادات وتصورات تختلف فلا تكاد أمة تفلح بهذا ولا فرد .

ومن فضل هذا الإسلام على البشرية أن جاءها بمنهاج قويم فى تربية النفوس ، وتنشئة

(١) سورة الجمعة الآية ٢
(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٤
(٣) سورة البقرة الآية ١٥١

لأجيال ، وتكوين الأمم ، وبناء الحضارات وإرساء قواعد المجد والمدنية .. وماذاك إلا لتحويل الإنسانية التائهة من ظلمات الشرك والجهالة والضلالة والفوضى إلى نور التوحيد والعلم والهدى والاستقرار وصدق الله العظيم إذ يقول في تنزيله ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾[1]

والظاهرة التي نجدها في تاريخ النبي محمد ﷺ أن الرسول بدأ تشكيل أمة جديدة لها كل مقوماتها الفكرية والسلوكية والأخلاقية والتشريعية والدستورية واللسانية . بحيث ينبت الفرد فيها عن صلته بأى عالم غير عالم هذه الأمة ، من حيث العقيدة والسلوك فصهر أفراد هذه الأمة انصهاراً تاما . ثم أطلق هذه الأمة في إتجاه وحيد حدد فيه لكل فرد مهمته ، ورباه على أدائها وحدد للجميع المهمة الكبرى ، ورسم لهم الطريق موضحاً لهم كل شيء في كل جانب ، وقادهم في هذا الطريق فترة ثم تركهم ماضياً إلى ربه ، فانطلقوا بعده لاغيروا ولابدلوا فكان ماكان ولازال عما نشاهده من آثار المسلم العظيم الذى كلما تعثر أخذت بيده تعاليم محمد وتربيته فأنقذته ودفعت به إلى الأمام .

ويقول الشهيد سيد قطب رحمه الله :

وانتصر محمد بن عبدالله يوم صنع أصحابه ــ عليهم رضوان الله ــ صوراً حية من إيمانه ، تأكل الطعام ، وتمشى في الأسواق ، يوم صاغ من كل منهم قرآناً حياً يدب على الأرض ، يراه الناس فيرون الإسلام ، إن النصوص وحدها لاتصنع شيئاً ، وإن المصحف لايعمل حتى يكون رجلاً ، وإن المبادىء وحدها لاتعيش إلا أن تكون سلوكاً .

ومن ثم جعل محمد ﷺ هدفه الأول أن وضع رجالاً لا أن يلقى مواعظ ، وأن يصوغ ضمائر لا أن يدبج خطبا ، وأن يبنى أمة لا أن يقيم فلسفة ، أما الفكرة ذاتها فقد تكفل بها القرآن الكريم وكان عمل محمد ﷺ أن يحول الفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيدى ، وتراهم العيون .

ولقد انتصر محمد بن عبدالله ﷺ ، يوم صاغ من فكرة الإسلام شخوصا ، وحول إيمانهم بالإسلام عملا ، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات وألوفا ، ولكنه

---

(١) سورة المائدة الآيتان ١٥ ، ١٦

لم يطبعها بالمداد على صحائف من القلوب . وأطلقها تعامل الناس وتأخذ منهم وتعطى ، وتقول بالفعل والعمل ماهو الإسلام الذى جاء به محمد بن عبدالله ﷺ من عند الله ؟

فأصبحت ترى من أصحابه العجب ، فى تكامل شخصياتهم عبادا زهادا شجعانا محاربين عادلين رحماء إداريين سياسيين حكماء مربين . كل واحد منهم أمة ، وما أسهل عليه أن يقود أمة ، ولا أدل على ذلك أنه ندر واحد منهم لم يصبح أميراً بعد ذلك ولم يفشل واحد منهم فى ماولى من قيادات .

فهل عرفت الدنيا أنبل منهم وأكرم ، أو أرأف أو أرحم ، أو أجل أو أعظم ، أو أرق أو أعلم ؟! .

ويكفيهم شرفاً وفخرا وخلودا أن يقول القرآن العظيم فى حقهم :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾(١)

وقال سبحانه : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾(٢).

وقال سبحانه وتعالى ﴿ كانوا قليلاً من الليل مايهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾(٣)

وقال سبحانه ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا ﴾(٤)

وإليكم ماقاله الصحابى الجليل (عبدالله بن مسعود) رضى الله عنه فى تعداد محامدهم وفضائلهم ، ووجوب التأسى بأفعالهم الحميدة ، وأخلاقهم الكريمة .. « من كان متأسيا فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٩ .
(٢) سورة التوبة الآية ١٠٠
(٣) سورة الذاريات الآيات ١٧ : ١٩ .
(٤) سورة الأحزاب الآية ٢٣ .

علما ، وأقلها تكلفا ، وأقومها هديا ، وأحسنها حالاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة هديه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم فى آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » .

* * *

وإذا أردت أن ترى مقدار مارفع رسول الله ﷺ النفس البشرية فاقرأ هذه الأمثلة البسيطة ذات الدلالة الكبيرة :

أرأيت كيف ارتفعت نفسية المرأة حتى أصبحت تعرف حقها ؟! وتريد أن تعرف الأخريات عليه . وأصبحت تستطيع أن تشكو إذا هضم حقها ، وشيد من يسمع لها ويعطيها إياه ، متى كان ذلك لولا تربية الرسول ﷺ لهذه الأمة ؟! .

وأخرج الرويانى وابن جرير وابن عساكر عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه قال :

كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله ﷺ ؟ فرددها ثلاث مرات فقدمنا فبايعنا رسول الله ﷺ فقلنا يارسول الله قد بايعناك فعلى أى شيء نبايعك ؟ فقال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، والصلوات الخمس وأسر كلمة خفية أن لاتسألوا الناس شيئاً . قال : فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطه فما يقول لأحد يناوله أياه .

وأخرج عبدالرزاق عن سعيد بن المسيب قال : أعطى النبى ﷺ حكيم بن حزام رضى الله عنه يوم حنين عطاء فاستقله فزاده فقال : يارسول الله : أى عطيتك خير ؟ قال : الأولى . فقال النبى ﷺ : ياحكيم بن حزام إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس وحسن أكلة بورك له فيه ، ومن أخذه باستشراف نفس وسوء أكلة لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولايشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، قال : ومنك يارسول الله ؟ قال : ومنى . قال : فوالذى بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً أبداً .

قال : فلم يقبل ديوانا ولاعطاء حتى مات .

قال : وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : اللهم إن أشهدك على حكيم بن حزام أنى أدعوه لحقه من هذا المال وهو يأبى . فقال : إنى والله ماأرزأك ولاغيرك شيئاً .

(كذا فى الكنز جـ ٣)

أرأيت هذه النقلة العظيمة من حالة إلى حالة أخرى ؟! عزة نفس لا مثيل لها وماذا فى طياتها ؟ مكن أبلغ ما تصل إليه التربية الاستقلالية التى لا يكون معها معنى من معانى الاتكال على الغير .

* * *

أخرج مالك عن عطاء بن يسار قال : أتى رجل النبى ﷺ ثائر الرأس واللحية فأشار إليه ﷺ كأنه يأمره بإصلاح شعره ففعل ثم رجع فقال ﷺ « أليس هذا خيراً من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان » .

وأخرج مالك والنسائى عن أبى قتادة قال : قلت يارسول الله : إن لى جمة أفأرجلها ؟ .

قال : نعم وأكرمها .

فكان أبو قتادة ربما دهنها فى اليوم مرتين من أجل قوله ﷺ : نعم وأكرمها .

أرأيت هذه التربية التى لاتدع جانباً من الجوانب إلا وتستوعبه دق أو أكبر مما له علاقة بظاهر الإنسان وباطنه ؟!

قال أبوداود :

« وغير رسول الله ﷺ اسم العاصى وعزيز وعتلة وشيطان والحكم وغراب وحباب وشهاب فسمى : هشاما وسمى حربا سلما ، وسمى المضطجع المنبعث ، وأرضا تسمى عفرة سماها خضرة ، وشعب الضلالة سماها شعب الهدى ، وبنى الزنية سماه بنى الرشدة وسمى بنى مغوية بنى رشد .

أرأيت هذه اللفتات الجمالية التى يرى كل شيء فى الأمة بها على نسق منسجم مع الدعوة والرسالة وهذه التربية التى وصلت إلى الأسماء .

***

وروى الطبرانى فى الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة عن رسول الله ﷺ قال : مابال أقوام لايفقهون جيرانهم ولايعلمونهم ولايعظونهم ولايأمرونهم ولاينهونهم ؟ . ومابال أقوام لايتعلمون من جيرانهم ولايتفقهون ولايتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ، ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة .

ثم نزل . فقال قوم :
من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قال : الأشعريين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب ، فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا : يارسول الله ذكرت قوما بخير وذكرتنا بشر فما بالنا ؟ .

فقال : ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا فقالوا : يارسول الله .. أنعظنَّ غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم فأعادوا قولهم . أنعظنَّ غيرنا ؟ .

فقال ذلك أيضا . فقالوا : أمهلنا سنة ؟ فأمهلهم سنة يفقونهم ويعلمونهم ويعظونهم ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ..** ﴾[1] الآيات .

أرأيت أبلغ من هذه التربية التى تفترض على المتعلم أن يعلم وعلى الجاهل أن يتعلم حتى ترق الأمة كلها ؟ وهل رأيت نصا قبل هذا النص فى العالم يفرض التعليم ويجعله إلزاميا إجباريا ؟! .

***

وأخرج الشيخان عن أنس قال : بينما نحن فى المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ : مه مه .. فقال رسول الله ﷺ : لا تزرموه (أى لاتقطعوا عليه بوله) دعوه فتركوه حتى بال ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له :

إن هذه المساجد لاتصلح لشيء من هذا البول والقذر إنما لذكر الله تعالى والصلاة وقراءة القرآن ، وأمر رجلا من القوم فجاء بدلو من الماء فشنه عليه (أى صبه عليه) .

ضربنا هذا المثال لنعرف مقدار الوعى الحضارى عند العرب إذ مامن إنسان فى العالم يبول فى معبده ، ولكن الأعرابى فعلها وكان موقف رسول الله ﷺ منها موقف المربى الذى مهمته أن يجبر النقص إلى الكمال ، وكان من آثار ذلك ماعبر عنه أحد قواد الفرس : إذ رأى المسلمين يصلون صفاً واحداً منتظما فقال :

(١) سورة المائدة الآية (٧٨) (٧٩) .

أكل عمر كبدى إذ علّم هؤلاء مكارم الأخلاق . وماكان عمر هو الذى علمهم مع فضله ، ولكن الذى علمهم وعلم عمر هو رسول الله ﷺ .

ولم تكن دائرة تربية الرسول ﷺ محدودة بل شملت كل الجزيرة العربية .. بترتيب وسائل هذه التربية . فكان لايكتفى من القبيلة بإسلامها حتى يأتيه وفدها ، وكان يبقى الوفد عنده فى المدينة أياما تمتد كثيراً أحيانا . وخلال هذه الإقامة كان يصوغهم صياغة جديدة . سواء بتوجيهاته أو بالاقتداء به . أو بأمر أصحابه أن يعلموهم .

حتى إذا ماأذن لهم بالرحيل أمّر عليهم رجلاً منهم وأمرهم أن يقوموا بعملية التربية والتعليم نيابة عنه وكان زيادة على ذلك يرسل أصحابه آحادا أو جماعات ممن فقهوا وربوا تربية عالية إلى كل مكان ليقوموا بدور المربى ، فكان من آثار ذلك أن خلال سنوات معدودة لاتتجاوز عشرا . أصبحت الجزيرة العربية وما أوسعها حتى لتكاد تكون قارة ـــ واعية لدين الله ، مرباة مهذبة إلى حد كبير ، تغيرت مفاهيمها إلى أعلى مايبلغ إنسان من تصورات ، بعد أن كانت فى أدنى دركات الانحطاط الفكرى حتى ليعبد أحدهم تمرات صباحا ويأكلهن مساء .

***

وكان القرآن العظيم حفظا وفهما وتطبيقا وسلوكا هو أداة هذه التربية العظيمة .

والرسول ﷺ كان همه أن يستوعب الناس هذا القرآن حفظا وفهما وتطبيقا . إذ على قدر مايستوعبه أفراد الأمة على قدر ماترتفع أنفسها ، ويسمو تفكيرها ، وتتفتح آفاق الحياة أمامها ، ولذلك جعل مقياس الخيرية القرآن الكريم فقال « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

وكان يختار للإمرة أكثر الناس أخذاً للقرآن حفظا وفهما وتطبيقا . وربى أصحابه على ذلك ، فكانت سياسة الخلفاء الراشدين بعده منصبة على أن يبلغ الناس بالقرآن غاية الجد فيه ، والحرص عليه ، حتى قال عمر لجيش من جيوشه وقد أرسله : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ امضوا وأنا شريككم .

ولم تمض فترة إلا وأصبح القرآن على كل لسان ، وأصبح كثير من الناس وقد حفظوه كله ، فارتقت بذلك مدارك المسلمين كلها ارتقاء لامثيل له سواء فى ذلك جوانب العقيدة أو العبادة أو السياسة أو الإدارة أو الأخلاق أو التشريع أو الحرب أو

السلم أو العلم أو العمل . فترة بسيطة من الزمان وإذا بالأمة الأمية لايغلبها غالب فكرا أو حربا أو حضارة وكل ذلك أثر من آثار رسول الله ﷺ ولايمكن أن ينسب لسواه ، وحدث بذلك مرة واحدة فى تاريخ البشر أن الإنسانية رأت أمة الحق عندها تحكم القوة ، والزهد عندها ترافقه الشجاعة والعبادة عندها ترافقها الحكمة ، أمة مارأت مثلها الدنيا لذلك فإنها ماكادت تتعرف عليها حتى دخلت فى دينها .

وسنروى الآن حادثات ثلاثا يعرف بها مقدار النضج الفكرى الذى وصل إليه أصحاب رسول الله ﷺ بحيث جابهوا به كل الثقافات الأخرى غالبين . وهو جانب من جوانب التربية المحمدية لهذه الأمة . أول هذه الحوادث مقطع من مناقشة حاطب بن أبى بلتعة ــ رسول رسول الله ﷺ إلى المقوقس ــ مع المقوقس ، وثانيهما خطاب العلاء الحضرمى للمنذر بن ساوى أمير البحرين التى كانت تشمل فى الماضى الكويت الحالية وقطر والبحرين والإحساء بأسمائها الجديدة وثالثها مناقشة المغيرة بن شعبة لكسرى ورستم وهذه هى مرتبة :

١ ــ قال المقوقس لحاطب : « مامنعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب : مامنع عيسى وقد أخذه قومه ليقتلوه أن يدعو الله عليهم فيهلكهم ؟ فقال المقوقس : أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم .

٢ ــ وقال العلاء الحضرمى لأمير البحرين :

« يامنذر إنك عظيم العقل فى الدنيا فلاتصغرن عن الآخرة . إن هذه المجوسية شر دين، ليس فيها تكرم العرب ولا علم أهل الكتاب ينكحون مايستحيا من نكاحه ، ويأكلون ماينفره عن أكله ، ويعبدون فى الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة .. ولست بعديم عقل ولا رأى فانظر : هل ينبغى لمن لايكذب فى الدنيا ألا تصدقه . ولمن لايخون ألا تأمنه ، ولمن لا يخلف ألا تثق به ؟ هذا هو النبى الأمى الذى لايستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ماأمر به نهى عنه ، أو مانهى عنه أمر به ، أو ليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه . إذ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل ، وفكر أهل النظر » . وقد أسلم المنذر .

٣ ــ ولما أرسل سعد بن أبى وقاص إلى كسرى وفداً يدعونه إلى الإسلام كان من قصتهم :

أنهم استأذنوا على كسرى فأذن لهم وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشكالهم

وأرديتهم على عواتقهم وسياطهم بأيديهم ، والنعال فى أرجلهم وخيولهم الضعيفة وخبطها فى الأرض بأرجلها وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب ، كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها وعُددها ؟! ولما استأذنوا على الملك يزدجرد أذن لهم وأجلسهم بين يديه ، وكان متكبراً قليل الأدب ــ ثم جعل يسألهم عن ملابسهم هذه ماإسمها ؟ عن الأردية والنعال والسياط .

ثم كلما قالوا له شيئا من ذلك تفاءل فرد الله فأله على رأسه . ثم قال لهم : ماالذى أقدمكم هذه البلاد ؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا ؟ فقال له النعمان بن مقرن رضى الله عنه :

إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده ، ولايدخل معه فى دينه إلا الخواص ، فمكث ذلك ماشاء الله أن يمكث . ثم أمر أن ينهض إلى من خالفه من العرب ويبدأ بهم ففعل فدخلوا معه جميعا على وجهين مكره عليه فاغتبط ، وطائع إياه فازداد ، فعرفنا جميعا فضل ماجاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين الإسلام حسن الحسن وقبح القبيح كله . فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة (المقاتلة) وإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم . وإن أتيتمونا بالجزى قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم .

قال فتكلم يزدجرد فقال :

إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم . قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى ليكفوناكم لاتغزوكم فارس ولا تطعمون أن تقوموا لهم ، فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم . فأسكت القوم .

فقام المغيرة بن شعبة رضى الله عنه فقال :

« أيها الملك ، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف الأشراف ، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ، وليس

كل ماأرسلوا له جمعوه لك . فجاوبني ، فأكون أنا الذى أبلغك ويشهدون على ذلك ، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما ، فأما ماذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا بنا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع . كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ونرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض ، ولانلبس إلا ماغزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، ويبننا أن يقتل بعضنا بعضا ، وأن يبغى بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامه ، وكانت حالنا قبل اليوم على ماذكرت لك . فبعث الله رجلاً معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا ، وبيته خير بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو نفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا ، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد ، أول ترِبٍ كان له الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئاً إلا كان فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، ومأأمرنا فهو أمر الله .

فقال لنا : إن ربكم يقول : أنا الله وحدى لاشريك لى كنت إذا لم يكن شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهى ، وأنا خلقت كل شيء والىَّ يصير كل شيء ، وإن رحمتى أدركتكم ، فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى أنجيكم بها بعد الموت من عذابى ، ولأحلكم دارى دار السلام . فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق . وقال من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ماعليكم ، ومن أبى فأعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فاقتلوه .

فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتى ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه ، فاختر إن شئت الجزية وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجو بنفسك . فقال يزدجرد :

أتستقبلنى بمثل هذا ؟ فقال : مأأستقبلت إلا من كلمنى . ولو كلمنى غيرك لم أستقبلك به .

***

عرضنا هنا جانباً من جوانب تربية الرسول ﷺ لهذه الأمة ... ، ونظن أننا بما ذكرنا حتى الآن كفاية للإقناع بأن العالم ماشهد ولن يشهد مربياً كالنبى محمد ﷺ . فعل مافعل بإمكانياته المحدودة مادياً ، وبشعب أمى عملياً ، وخذ التاريخ كله وسله هل

استطاع مرب أو زعيم أن ينقل أمة بهذه الفترة المحدودة ، والإمكانيات غير المتوافرة من الناحية النفسية والأخلاقية والفكرية والحضارية والعسكرية والسياسية . إلى معشار معشار مانقل إليه رسول الله ﷺ أمته فى سنوات معدودات ؟ اللهم لا .

ا هـ (مستفاد من كتاب « الرسول » للأستاذ . سعيد حوى)

وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[1]

• • •

أشهر الدعاة من عهد رسول الله ﷺ ومابعده وهديهم فيه

لقد كان المسلمون فى الصدر الأول ، ولاسيما على عهد الخليفتين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، يهتمون بأمر الدين ، فقد كانت خاصة الصحابة رضى الله عنهم الذين عاشروا النبى صلوات الله وسلامه عليه وتلقوا عنه ، متواصلين متكاتفين يشعر كل منهم بما يشعر به الآخر من الحاجة إلى نشر الإسلام وحراسته ، ومقاومة كل مايمس شيئاً من عقائده وأحكامه وآدابه ، وتصالح أهله .

فخطبهم فى التحريض على القتال دعوة إلى الله تعالى ورفع دينه وإعلاء كلمته ونشر دعوته وخطبهم فى الحث على الاعتصام بحبل الله وعلى الألفة والإخاء دعوة إلى الله تعالى ، وخطبهم فى الشورى مظهر لفهم الدين ، كل يدلى برأيه ويؤيد دعواه بالقواعد الدينية . والكل كان مرجعه فى هذا كتاب الله وسنة رسوله ، والمبادىء الإسلامية المعلومة من الدين ، وهكذا فى كل أغراضهم كان الدين فيها هو الأساس الذى تقوم عليه دعوتهم إلى الله تعالى ، ذلك أن الدين الحنيف كان هو المسيطر على ضمائرهم ، والقانون الذى يحتكمون إليه ، والشرع الذى على مقتضاه يسيرون ، فى كل مايأتون وما يذرون كما يعلم هذا بالوقوف على خطبهم فى قواد الجيش ووصاياهم فى عمال الولايات ، ونصائحهم فى جمهور الأمة .

وقد كان فى صدر الإسلام ومايليه يتصدر للدعوة والإرشاد فى المساجد العامة

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

والمجتمعات العامة أجلاء العلماء المشهود لهم بالفضل ، وكان يختلف إلى مجالسهم الأمراء والعظماء ، ويتبعهم العدد الكثير من عامة الأمة ، فكان لهم أحسن الآثار وأعظم الفوائد فى تصحيح العقائد وإصلاح الأعمال ، وتهذيب النفوس ، والإرشاد إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال .

ومن أحرز قصب السبق فى هذا المضمار الحسن البصرى وهو أبوسعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى كان أبوه يسار من سبى ميسان — بلدة بالعراق سباه الأمير المغيرة ابن شعبة مع سيرين أبى محمد بن سيرين ، حينما افتتحهما فى عهد ابن الخطاب ثم صار يسار هذا مولى لزيد بن ثابت الأنصارى ، وكانت أم الحسن — وتسمى خيرة — مولاة لأم سلمة زوج النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وفى بيتها ولد الحسن (٢١ هـ) . وربما غابت فى حاجة فيبكى فتعطيه أم سلمة ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه ، فدر عليه ثديها فشربه ، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة اللتين عرف بهما كانتا من بركة ذلك . ونشأ الحسن فى بوادى القرى ، وتلقى الفصاحة من الأعراب ، وسمع عثمان ، وروى عن عمران بن حصين وأبى موسى الأشعرى ، وابن عباس ، وجندب ، وزيد بن ثابت الأنصارى ، ولما أتم علومه ومعارفه ، وظهرت مخايل النجابة عليه ، عين كاتبا للربيع بن زياد الحارثى والى خراسان ، وأخذ فاتحيا لعمر بن الخطاب ، ثم شاع فقه الحسن وفضله وتناقل الخلق ورعه ونبله ، فتقلب فى الأعمال والولايات ، مع انتياب مسجد البصرة يعقد فيه مجلسه ليفقه الناس ويذيع فيهم موعظته وحكمته ، ويبثهم معارفه وينشر بينهم دعوته السياسية فى تثبيت دعائم الدولة إلى أن اختاره عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه لقضاء البصرة سنة ٩٩ هـ وقال عنه : لقد وليت قضاء البصرة سيد التابعين . وحقاً لقد كان سيد التابعين . وإمام أهل العلم والحكمة والرأى فى عصره ، وكان من الفصاحة والبلاغة فى أعلى مقام مع الزهد والورع ، والنسك والتقى ، حتى كانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخها الحسن ، وأنه سيد سمح ، وأنه أخطب الناس وأنصحهم ، وأن علانيته أشبه بسريرته ، وسريرته بعلانيته وآخذ الناس لنفسه بما يأمر به غيره ، ناهيك عن رجل استغنى عما فى أيدى الناس من دنياهم ، واحتاجوا إلى مافى يديه من أمر دينهم قيل ليونس بن عبيد : هل تعرف رجلاً يعمل بعمل الحسن البصرى ؟ فقال : رحم الله الحسن ، والله ماأعلم أحدا يقول بقوله ، فكيف يعمل بعمله ؟! كان والله إذا ذكرت عنده النار كأنه لم يخلق إلا لها ، ومارؤى قط إلا وكأن النار والجنة بين عينيه ، خشية ورجاء ، لايغلب أحدهما صاحبه — وسمعته السيدة عائشة رضى الله عنها يتكلم فقالت : من هذا الذى يتكلم بكلام الصديقين ؟ وروى عن الأعمش أنه

كان يقول . مازال الحسن البصرى يعنى بالحكمة حتى نطق بها . وسمعه آخر وهو يعظ فقال : لله درك إنك لفصيح إذا تلفظت ناصح إذا وعظت وكانت مجالس الحسن مجالس الذكر يخلو فيها مع أصحابه وأتباعه من النساك والعباد فى بيته مثل مالك بن دينار وثابت البنانى وأيوب السختيانى ومحمد بن واسع وعبدالواحد بن زيد فيقول : هاتوا انشروا النور فيتكلم عليهم . قال أبوعمرو بن العلاء : مارأيت أفصح من الحسن البصرى . إلى غير ذلك من الصفات التى ألبسه إياها شيوخ عصره .

وقد روى أبوحيان التوحيدى وصفاً جامعا له قال : « كان الحسن البصرى من درارى النجوم علماً وتقوى وزهدا وورعا وعفة ورقة وتألهاً وتنزها وفقها ومعرفة ، وفصاحة ونصاحة ، مواعظه تصل إلى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول ، وماأعرف له ثانيا ، لاقريباً ولامدانياً ، كأن منظره وفق مجده ، وعلانيته فى وزن سريرته — عاش تسعين سنة لم يقرف بمقالة شنعاء ، ولم يُزن بريبة ولافحشاء ، سليم الدين ، نقى الأديم ، محروس الحريم ، يجمع مجلسه ضروبا من الناس ، وأصناف اللباس لما يوسعهم من بيانه ، ويفيض عليهم بافتنانه ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقن منه التأويل ، وهذا يسمع منه الحلال والحرام وهذا يجود له المقالة ، وهذاُ يحكى له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة ، وهو فى جميع هذا البحر العجاج تدفقا ، وكالسراج الوهاج تألقاً ولاتنس مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، عند الأمراء وأشباه الأمراء ، بالكلام الفصل ، واللفظ الجزل ، والصدر الرحب ، والوجه الصلب ، واللسان العضب ، كالحجاج وفلان وفلان ، مع شارة الدين ، وبهجة العلم ، ورحمة التقى ، لاتثنيه لائمة فى الله ، ولاتذهله رائمة عن الله . يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير ، وعمرو وواصل صاحبا الكلام ، وابن أبى اسحاق، صاحب النحو ، وفرقد السبخى صاحب الرقائق ، وأشباه هؤلاء ونظرائهم فمن ذا مثله ؟ ومن ذا يجرى مجراه ؟ .

ولم يمنع الحسن زهده وورعه ونسكه وتقاه أن يخوض غمار السياسة ، وأن يكون له فيها سهم صائب ولسان غاضب .

« لما ولى يزيد بن عبدالملك عمر بن هبيرة العراق وخرسان سنة ١٠٣ هـ استدعى ابن هبيرة إليه الحسن والشعبى .. فقال لهما أصلحكما الله . إن أمير المؤمنين يزيد بن عبدالملك يكتب إلىّ كتابا . أعرف فى تنفيذها الهلكة . فأخاف إن أطعته غضب الله . وإن عصيته لم آمن سطوته . فما تريان لى ؟ فقال الحسن للشعبى . ياأبا عمرو أجب الأمير ، فرقق له فى القول . وانحط فى هوى ابن هبيرة . وكان ابن هبيرة لايستشفى دون أن

يسمع قول الحسن . فقال : قل ماعندك ياأبا سعيد فقال الحسن : أوليس قد الشعبى ؟ فقال ابن هبيرة : فما تقول أنت ؟ .

فقال : أقول والله إنه يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله فظ غليظ لايعصى ماأمره . فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك . فلا يغنى عنك ابن عبدالملك وإنى لأرجو أن الله عز وجل سيعصمك من يزيد وأن يزيد لايعصمك من الله . فاتق الله الأمير . فإنك لاتأمن أن ينظر الله إليك وأنت على أقبح ماتكون عليه من طاعة يزيد . يمقتك بها . فيغلق عنك باب الرحمة .

واعلم أنى أخوفك ماخوفك الله سبحانه حين يقول ﴿ ذلك لمن خاف مقامى و وعيد ﴾[1] وإذا كنت مع الله عز وجل فى طاعته كفاك بوائق يزيد ، وإن كنت مع يزيد معصية الله . وكلك الله إلى يزيد حين لايغنى عنك شيئاً . فبكى عمر بن هبيرة شديداً ثم انصرفافأجزل جائزة الحسن . وقصر فى جائزة الشعبى . ثم خرج الشعبى المسجد . فلما اجتمع أهل مجلسه . قال أيها الناس : من استطاع منكم أن يؤثر عز وجل على خلقه فليفعل إن الأمير ابن هبيرة أرسل إلىَّ وإلى الحسن فوالذى نفسى ماعلم الحسن شيئاً جهلته ولكنى راعيت ابن هبيرة وأردت رضاه . وقصرت فى قولى فأقصانى الله وأبعدنى . وكان الحسن مع الله عز وجل فقربه وأدناه وسخر له ابن هبيرة وحباه .

وروى عنه ــ رحمة الله عليه ــ أنه كان يقول : إن الله سبحانه وتعالى أخذ الخلفاء والأمراء والحكام ثلاثة أشياء ، فمن أوفى لعهد الله منهم نجا ، ومن قصر هنا أخذ عليهم ألا يتبعوا الهوى ، وألا يخشوا الناس ويخشونه ، وأن لايشتروا بآياته قليلاً . وكانت وفاته رحمه الله بالبصرة سنة ١١٠ هـ وتبع الناس كلهم جناز واشتغلوا بشأنه .. هذا قليل من كثير من مناقبه رحمة الله تعالى عليه .

وأبو إدريس الخولانى عائذ الله بن عبدالله أحد من جمع بين العلم والعمل أخذ معاذ بن جبل وكثير من الصحابة ، كان واعظ أهل دمشق وقاصهم وقاضيهم . الزهرى : كان أبو إدريس من فقهاء الشام توفى سنة ثمانين .

ــ وطاوس بن كيسان اليمانى الجندى من الأنباء سمع زيد بن ثابت و ع وأبا هريرة وغيرهم وكان رأساً فى العلم والعمل والوعظ . قال عمرو بن دينار مار

(١) سورة إبراهيم الآية (١٤) .

أحداً مثل طاوس . وقال الذهبي : شيخ أهل اليمن وبركتهم وفقيههم ، له جلالة عظيمة ، وكان جريئاً فى وعظ الملوك والأمراء وكان كثير الحج فاتفق موته بمكة سنة ستة ومائة .

وسفيان الثورى وهو أبوعبدالله سفيان بن سعد الثورى الكوفى كان إماما فى الحديث ولد سنة سبع وتسعين ، وخرج من الكوفة إلى البصرة سنة خمس وخمسين ومائة وتوفى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة .

وكان لا يعلم أحداً العلم حتى يتعلم الأدب ، ولو عشرين سنة وكان يقول :

« إذا فسد العلماء ، فمن بقى فى الدنيا يصلحهم ؟ ثم ينشد :

يامعشر العلماء ياملح البلد   مايصلح الملح إذا الملح فسد

وكان سفيان الثورى ، كما حكى عنه فى الطبقات الصغرى ، إذا جلس للعلم وأعجبه منطقه ، يقطع الكلام ، ويقوم ويقول : « أخذنا من حيث لانشعر » وتأمل فى هذه الحادثة التى تعبر عن محاولة مخلصة للابتعاد عن الفخر والعجب ، وذلك من أجل إخلاص النفس فى حركاتها وأفعالها وأقوالها لله وحده .

ولقد حاول سفيان الثورى ماستطاع ، طيلة حياته أن يكون كما أحب الله ورسوله ، وكان من أوائل مايصادف أمثال سفيان من المشاهير ،إنما هو المنزلق الذى يهوى بالكثيرين ، والشرك الذى وقع فيه من لاتحصون عدداً ، وذلك هو منزلق حب الرياسة ، أو هو منزلق الحكم والمنصب والمنزلة ، وهو شَرَك يملكه الأمراء والملوك ، يشيرون به إلى هذا أو ذاك ويلوحون به إلى كل من يحبون أن يسير على هواهم فى الفيتا ، أو أن يسير على هواهم فى القضاء أو أن يسير على هواهم فى الحكم .

ونظر سفيان إلى الشرك ، وعرف أنه شرك مهلك ، فحاول دائماً أن يتحاشاه ، وأن يحذر منه أصدقاءه :

لقد كتب إلى أخ له :

« واحذر حبَّ المنزلة ، فإن الزهادة فيها أشد من الزهادة فى الدنيا » .

« مارأيت الزهد فى شيء أقل منه فى الرياسة ، ترى الرجل يزهق فى المطعم والمشرب والمال والثياب فإذا توزع فى الرياسة حامى عليها وعادى » .

أما الاتصال بالأمراء والملوك ، فإن سفيان يقول فيه :

« إذا لم يكن لله فى العبد حاجة نبذه إليهم (يعنى السلطان) » .

ووصل الأمر بسفيان أن يقول : « النظر إلى وجه الظالم خطيئة » .

وأن يقول : « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله » .

وكان كثير من الناس يحثون سفيان على الاتصال بالأمراء والملوك فيجيبهم : إنى لألقى الرجل أبغضه فيقول لى : كيف أصبحت ؟ فيلين له قلبى ، فكيف بمن أكل ثريدهم ووطىء بساطهم ؟ » .

وعن ابن المبارك : قيل لسفيان الثورى : لو دخلت عليهم ؟ قال : إنى أخشى أن يسألنى الله عن مقامى ماقلت فيه ؟ .

قيل له : تقول وتتحفظ ؟ قال : تأمرنى أن أسبح فى البحر ولاتبتل ثيابى ؟ .

قال حيان : وبلغنى أنه قال : ليس أخاف ضربهم ، ولكنى أخاف أن يميلوا على بدنياهم ، ثم لاأرى سيئاتهم سيئة » ... رحمة الله تعالى عليه .

والأوزاعى . هو عبدالرحمن بن عمرو بن محمد شيخ الإسلام وعالم أهل الشام كما قال الذهبى . وقال ابن كثير : « اشتهر بأنه فقيه أهل الشام وسلك الأوزاعى سبيل الزهد فى حياته أيضا فلم يمسك شيئاً من نصيبه فى بيت المال ، بل كان ينفقه فى سبيل الله وفى الفقراء والمساكين ، ولم يقتن شيئاً من العقار . وقد رفض تولى القضاء حين عرض عليه .

وأصر فقيهنا عهدى بنى أمية وبنى العباس ، ودارت مناقشة بينه وبين عبدالله بن على عم السفاح يهمنا أن نستشف من خلالها أسلوب شيوخ السلف فى الرد والمناقشة . ولعله نفس الأسلوب الذى تمسك به ابن حنبل بعده .

قال :

ــ ياأوزاعى ماتقول فى ثورتنا على الأمويين ؟!

فرد الشيخ فى صرامة : قال ﷺ « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرىء مانوى » . فتمعر وجه عبدالله ، وظهر الغضب فى وجهه ، ولكنه كظم غيظه وسأل متجهماً ! .

وماقولك فى دعاء أمية ؟

فلم يلبث أن هتف الشيخ بالرأى الصريح : قد كانت بينك وبينهم عهود وكان من الواجب شرعا أن تفى بها .

فلم يتمالك الطاغية أن صاح وقد اشرأبت أعناق القوم ـــ اجعلنى وإياهم لاعهد بيننا ؟ فنظر الأوزاعى فى حدة ثم صاح : دماؤهم عليك حرام ! .

فاصطنع الهدوء وقال للأوزاعى : ومادليلك ياشيخ الشام ؟ .

فلم يمهله الأوزاعى أن هتف فى اعتداد : قال رسول الله ﷺ : « لايحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

قال عبدالله : ومارأيك فى أموالهم ؟ .

وهنا أجاب الأوزاعى فى هدوء مستقر واطمئنان لايتزعزع :

إن كانت أموالهم فى أيديهم حراماً فهى حرام عليك أيضاً وإن كانت حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعى .

هنا بلغ الغيظ حدته بالطاغية فصاح محنقاً ماهلا : أليس الأمر لنا ـــ آل البيت ـــ ديانة ؟ فابتسم الأوزاعى قائلاً : كيف هذا ؟ .

فرد عبدالله متحديا : ألم يوص رسول الله ﷺ إلى على ؟ .

فهز الأوزاعى رأسه وقال فى ابتسام : لو أوصى إليه ماحكم الحكمين !! فاستشاط ابن على من الغيظ وصاح بأتباعه أخرجوه ! أخرجوه ! .

وعاش الأوزاعى فى تلك الفترة بين الزهاد والوعاظ ، فقد كان دأبه القيام بالوعظ ، وبلغ من عمق وعظه حداً كان يبكى الناس معه ، ويحرص على ان يصبح قدوة إذ يقول « كنا قبل اليوم نضحك ونلعب ، أما إذا صرنا أئمة يقتدى بنا ، فلا نرى أن يسعنا ذلك وينبغى أن نحفظ » . ولهذا كان كثير العبادة قليل الضحك ، لم ير مقهقها قط ، طويل الصمت ، شديد الاجتهاد فى العبادة .

واقتدى بالسلف فى عباداته ، متبعاً لما سمع منهم فإذا صلى الصبح أخذ يذكر الله حتى تبزغ الشمس لأن السلف دأبوا على ذلك ثم يتذاكرون الفقه والحديث بعدها .

وقد فسر الآية ﴿ ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ، إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلاً ﴾(١) إن إطالة القيام فى صلاة الليل تهون على صاحبها طول القيام يوم الساعة . كذلك عرف فقيهنا بكثرة البكاء فى صلاته حتى يبتل مكان سجوده .

مضت الأيام وعاش الأوزاعى مبجلاً مهيباً فى دمشق ثم ارتحل إلى بيروت فأقام بها حيث جاءه اليقين ، فنفر الناس إلى تشييع جنازته متزاحمين وتطلع عامل المدينة ليرى الجند المتزاحم خلف نعشه فيقول فى تعجب :

رحمك الله أبا عمر ! فقد كنت أخافك أكثر من أمير المؤمنين .

والإمام ابن الجوزى عالم الآفاق وواعظ العراق وهو أبوالفرج عبدالرحمن بن على بن محمد الجوزى البكرى البغدادى الفقيه الحنبلى الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ . كان علامة عصره وإمام وقته فى الحديث وصناعة الوعظ . صنف فى فنون عديدة ، وله فى الوعظ المؤلفات المفيدة ومحاسنه يطول شرحها ، حضر مجلس الخلفاء والوزراء والكبار ، وحضروا مجالس وعظه وأقل ماكان يحضر مجلسه الألوف .

قال فى بعض مجالس وعظه : عقارب المنايا تلسع واحذر : إن جسم الأمل يمنع الإحساس وماء الحياة فى إناء العمر يرشح بالأنفاس .

وقال يعظ بعض الولاة : اذكر عند القدرة عدل الله فيك ، وعند العقوبة قدرة الله عليك ، وإياك أن تشفى غيظك بسقيم دينك .

وقال له قائل : أيهما أفضل أسبح أو أستغفر ؟
فقال : الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون من البخور .

توفى رحمه الله ببغداد سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

والفضيل بن عياض (١٨٧هـ = ٨٠٢ م) .
وصفه ابن حجر العسقلانى بأنه الزاهد الخراسانى فنشأته كانت بخراسان ويقول ابن كثير بأنه قدم الكوفة بعد أن انتقل إليها من مسقط رأسه خراسان وتدل الأقوال الكثيرة التى أوردها ابن حجر العسقلانى أن رجال الحديث عدوه من الثقات ، واتفقوا على أنه كان فاضلا عابدا ورعاً .

---

(١) سورة الإنسان (٢٦ ، ٢٧) .

وكون الزاهد الكبير من رجال الحديث يدلنا على تمسكه بالسنة ونهيه بشدة عن الأخذ من أصحاب البدع أو الاختلاط بهم . يقول الفضيل : « صاحب بدعة لاتأمنه على دينك ، ولاتشاوره فى أمرك ، ولا تجلس إليه ، فإنه من جلس إلى صاحب بدعة ورثه الله العمى » . وهو يقصد بأهل البدع الطوائف المخالفة للسنة .

وإذا كان الفضيل رحمه الله قد اتصف بـ « الورع الدائم والخوف الوافر ، والبكاء الكثير » فإن ذلك لايعدو كونه ارتباطا بالأئمة السابقين فإن ظاهرة الخوف واضحة عند الخلفاء الراشدين وعند أمثال أبى الدرداء وأويس القرنى والحسن البصرى ، بسبب الخشية من الله وتذكرهم الدائم للموت والمنتظر بعده .

قال له الرشيد : (ماأزهدك) ؟ فأجابه الفضيل بقوله : « أنت أزهد منى ، لأنى أنا زهدت فى الدنيا التى هى أقل من جناح بعوضة ، وأنت زهد فى الآخرة !! » .

وهكذا ينقد الخليفة بكياسة ، وبأسلوب صريح ، ولكنه لين يحمل فى طياته الكثير من المعانى .

وفى مرة كأخرى ، حينما استدعت المصارحة ألا يختفي وراء الأسلوب اللين فى المخاطبة ، كان شديداً فى حديثه للرشيد ، فقال له « إن الله لم يجعل أحداً من هؤلاء فوقك فى الدنيا ، فأجهد نفسك أن لايكون أحد منهم فوقك فى الآخرة » .

رحم الله الفضيل بن عياض رحمة واسعة فقد كان لايخشى فى الله لومة لائم .

ـــ هؤلاء الأعلام وغيرهم من أجل الذين كانوا يرون الحديث ويفتون الناس ويدعونهم إلى الخير ، وأمثال هؤلاء ممن برعوا فى الدعوة إلى الله وإرشاد العباد إلى الحق المبين .

« فى الوعظ والارشاد »

تعريفه : اعلم أن لهذا الفن ثلاثة أسماء : وعظ ، وتذكير ، وقصص . فالوعظ والموعظة والعظة النصح والتذكير بالعواقب سواء كان بالاستمالة والترغيب ، أم بالزجر والترهيب . قال ابن سيده : هو تذكيرك الإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب . يقال وعظته فاتعظ إذا أثرت فيه الموعظة وأفادت .

وفى الاصطلاح يطلق على القول الحق الذى يلين القلوب ويؤثر فى النفوس ويكبح جماح النفوس المتمردة . ويزيد النفوس المهذبة إيماناً وهداية .

والتذكير : يقال على الاتعاظ ومنه قوله تعالى ﴿ ومايتذكر إلا من ينيب ﴾[1] وقوله ﴿ سيذكر من يخشى ﴾[2] (القصص) تتبع القصة الماضية بالحكاية عنها والشرح لها . والقصاص الذى يفعل ذلك . وهو فى الغالب عبارة عمن يروى أخبار الماضين وكثير من الناس يطلق على الواعظ اسم القاص وعلى القاص اسم المذكر والتحقيق ماذكرنا .

أما الإرشاد : فهو الهداية إلى الطريق الموصل إلى المطلوب ــ والرشاد والرشد بضم فسكون والرشد بفتحات ، كما فى القاموس ، الهداية والاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه .

وقد يطلق الوعظ والإرشاد فى عرف الخطباء والأدباء على الخطابة الدينية سواء أكانت تعليمية لبيان المسائل الشرعية الاعتقادية أو العملية أو الخلقية ، أم تأديبية لإيقاظ الناس من غفلتهم بالتذكير والإنذار .

وإجمالا : فالوعظ هو النصح والتذكير بالخير والحق على الوجه الذى يرق من له القلب ويبعث على العمل . والإرشاد الحث على الخير والتحذير من الشر على الوجه المتقدم وهو الترغيب والترهيب .

وغايته : صلاح المعاش والمعاد والفوز بسعادة الدارين وفضله عظيم وشرفه جسيم . فإنه متعلق بطب الأرواح وعلاج النفوس لتصل إلى السعادة .

ويشرف فن الوعظ والإرشاد على بقية فنون الخطابة بأمور : (الأول) أنه وظيفة الأنبياء والمرسلين ، ومن على سنتهم من العلماء العاملين والهداة الراشدين والعظماء المجاهدين . فإنهم بعثوا لهداية العالم وسن طريق السعادة للناس فى الدارين بتعليمهم عند الجهالة ، وإيقاظهم من الغفلة ، ووقفهم عند حدود الأدب ، عند التمرد لينقذوهم من حضيض الجهل والرذيلة إلى ذروة العلم والفضيلة . (الثانى) من حيث إنه يتعلق بأشرف الأمور وأخطرها ــ أعنى الأمور الروحية . (الثالث) من حيث الغاية أى سعادة الحياة بالتحلى بالفضيلة والتخلى عن النقيصة ثم الفوز بالسعادة الدائمة .

---

(1) سورة غافر الآية ١٣ .

(2) سورة الأعلى الآية ١٠ .

أثـره فـي تهذيـب النفـوس

قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾(١)

وقال تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾(٢)

وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا ، وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما ﴾(٣) .

وأخرج أبو داود والترمذى عن العرباض بن سارية ـــ رضى الله عنه ـــ قال : « وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون فقلنا يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا .

قال : أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » .

فقد كان النبى ﷺ يتغير حاله عند الموعظة كما قال جابر « كان النبى ﷺ إذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته واحمّرت عيناه كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم » . أخرجه الترمذى بمعناه .

وفى الصحيحين عن عدى بن حاتم ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا النار ، قال : ثم أعرض وأشاح ثلاثاً حتى قلت إنه ينظر إليها ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم يجد فبكلمة طيبة » .

فبهذه المواعظ والنصائح دون سواها تصح النفوس وتسلم القلوب من المخاطر ، وترجع عن غيها إلى رشادها ، وتعدل عن الطريق العوجاء إلى الصراط السوى ـــ

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢ .
(٢) سورة الزمر الآية ٢٣ .
(٣) سورة النساء الآيات ٦٦ : ٦٨

وبالوعظ والتذكير تهذيب النفوس وتنبيه العقول من غفلتها . وتستيقظ من رقدتها . وتستنير البصائر بنور الطاعة بعد أن أظلمتها المعاصي قال بعض الحكماء : الموعظة موقظة للقلوب من سنة الغفلة ، ومنقذة للبصائر من سكرة الحيرة ، ومحيية لها من موت الجهالة . ومستخرجة لها من ضيق الضلالة .

قال ابن رجب الحنبلي : المواعظ سياط تضرب بها القلوب فتؤثر في القلوب كتأثير السياط في البدن ، والضرب لايؤثر بعد انقضائه كتأثيره في حال وجوده لكن يبقى أثر التألم بحسب قوته وضعفه فكلما قوى الضرب كانت مدة إبقاء الألم أكثر ، كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر خرجوا وعليهم السكينة والوقار فمنهم من كان لايستطيع أن يأكل طعاماً عقب ذلك ، ومنهم من كان يعمل بمقتضى ماسمعه مدة .

وعلى الجملة فالوعظ والإرشاد هو العلاج الوحيد لصلاح العالم ، والدين الحنيف هو الدواء المفيد لشفاء القلوب من أمراضها ، ولاسلامة للعالم من مخاطر الشقاء إلا به ، قال تعالى ﴿ **ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾[1].

ومتى أهمل تطهير النفوس من أدران النقائص والرذائل عظم خطرها وانتشر الفساد وهلك العباد ، وزاد البلاء ، وساء حال المجتمع الإنساني والبرهان الحسي قائم على أن الأمة التي انتشر فيها الوعاظ والخطباء تحيا بمقدار كثرتهم وتأثيرهم وأن المعنى الذي يتناولونه في نصحهم وإرشادهم يكون أكثر انتشارا وأشد رسوخا في نفوس تلك الأمة . وإن الأمة إذا فرطت أو أفرطت في شيء يستعان دائما على اعتدالها بوعاظها وخطبائها .

فالواعظ الماهر والخطيب الحكيم ، يستطيع بما وهبه الله عز وجل من نور الحكمة وقاطع الحجة ، وساطع البرهان وقوة البيان . ومتانة علمه بتأليف وتركيب هذه الأدوية النافعة ، أن يصحح القلوب من أمراضها ، وينبه العقول من غفلتها ويطهر النفوس من أدران النقائص والرذائل وينير أمامها السبل الموصلة إلى الرشد حتى ترجع عن غيها وتعود إلى حد الاعتدال . وتتحلى بالفضائل والكمال وبالله تعالى التوفيق .

(١) سورة يونس الآيتان ٥٧ ، ٥٨ .

آداب الداعي إلى الله تعالى

قد عرفت أن الدعوة إلى الله تعالى في الأصل عمل الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وأن السادة العلماء نواب عن الأنبياء في هذا الأمر الخطير فهم أبناء الله تعالى على شرعه والحافظون لدينه القويم ، والقائمون على حدود الله والعارفون بما يجب له تعالى من كمال وتنزيه .

لذلك كانوا أئمة الناس وقادة الخلق يسيرون بهم نحو السعادة بما يعلمونهم من أمور دينهم وبما يرشدونهم إليه من التحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة ، اعتقد الناس فيهم ذلك وأملوهم له . فأحلوهم من أنفسهم محلاً لم يبلغه سواهم من البشر حتى اكتسبوا في قلوبهم مكانة يغبطون عليها وربحوا منزلة تصبو إليها نفوس ذوى الهمة والفضل ، وناهيك بقوم إذا فعلوا لحظتهم العيون ، وإذا قالوا صغت إليهم الآذان ووعت القلوب وحكت الألسنة فهم مطمح الأنظار وموضع الثقة والحجة البالغة والبرهان القاطع ، والنور الساطع للناس أجمعين ﴿ **ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين** ﴾[1] والآية الكريمة تشير إلى أنه ينبغي للداعي أن يكون صحيحا في دينه ، مهذباً مستقيما عاملاً بعلم ليكون الناس إليه أسكن وإلى قبول دعوته أقرب .

حقاً ليس أحد أعظم شأنا وأسعد حالاً ممن جمع بين هذه الفضائل الثلاث فكان موحداً لله تعالى عارفا به عاملا بالخير داعيا إليه وماهم إلا طبقة العالمين العاملين الدعاة الى الله تعالى ، من ذوى القلوب الحية ، والإيمان الصادق والإخلاص الصحيح .

ولاريب أن الله تعالى ربط سعادة الانسان في الدنيا والآخرة بالوقوف عند حدوده وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وأنه بمقدار وقوف العبد عند حد الأدب مع مولاه يكون حظه من تلك السعادة ، وغني عن البيان أن السادة العلماء قد انفردوا بفهم الأوامر والنواهي ، ومنهم وحدهم يتعلمها سائر الناس ، وأنه بقدر قيام العلماء على حدود الله واتباعهم الأوامر واجتنابهم النواهي ، يكون اتباع الأمة واجتنابها ، فإذن سعادة الأمة في قبضة السادة العلماء

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٣ .

إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس — ومن هنا كانت وظيفتهم خطرا ومسئوليتهم عظما إذا هم تصدوا للدعوة والإرشاد لهذا وجب أن تتوافر فى الداعى إلى الله تعالى الصفاة الآتية :

« الصفة الأولى »

(العلـــم)

إن أول واجب على الداعى العلم بالقرآن والمراد به النظر فيه قبل كل شيء وإلى كونه هدى وموعظة وعبرة ، وكذلك السنة ، وماصح من أقوال الرسول وسيرته وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح ، وبالقدر الكافى من الأحكام ، وأسرار التشريع مع الصدق فى نشرها ، فإن مرتبة التبليغ عن الله تعالى لم تكن إلا لمن اتصف بالعلم مع الصدق ، والمرشد وارث لهذه المرتبة وليتمكن من تعليم ذلك على الوجه الصحيح فلا يزيغ فى عقيدة ، ولايخطىء فى حكم ، ولايعجز عن إقناع النفوس المتطلة ة إلى معرفة أسرار الأحكام الشرعية ، فيكون الإذعان له أتم ، والقبول منه أكمل — فأما الجاهل فضال مضل ، وضره أقرب من نفعه ، ومايفسده أكثر مما يصلحه ، بل لايصلح أصلاً إذ لايتميز لجاهل بين الحق والباطل ولامعرفة عنده ترشده إلى إصلاح القلوب وتهذيب النفوس .

قال الحسن البصرى رحمه الله : العامل على غير علم كالسائر على غير طريق ، والعامل على غيرمايفسد أكثر مما يصلح .

العلم والفقه شرط فى الآمر الناهى

قال شيخ الإسلام ابن تيميه : « ولايكن عمله صالحاً إن لم يكن بعلم وفقه . كما قال عمر بن عبدالعزيز — رضى الله عنه « من عبد الله بغير علم : كان مايفسد أكثر مما يصلح » كما فى حديث معاذ بن جبل — رضى الله عنه « العلم إمام العمل ، والعمل تابعه » وهذا ظاهر فإن القصد والعمل : إن لم يكن بعلم كان جهلاً وضلالاً واتباعاً للهوى ، وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الاسلام . فلابد من العلم بالمعروف والمنكر ، والتمييز بينهما . ولابد من العلم بحال المأمور وحال المنهى » .

لهذا جرم الله سبحانه القول عليه بغير علم وجعله من أفحش الكبائر فقال تعالى ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا

بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالاتعلمون ﴾[1] وهذا يعم القول عليه بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله وفى دينه وشرعه وقال تعالى ﴿ **ولاتقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون ، متاع قليل ولهم عذاب أليم** ﴾[2] فقدم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه فى أحكامه وقولهم فى شأن مالم يحله هذا حلال ، وفى شأن مالم يحرمه هذا حرام . وهذا بيان منه سبحانه وتعالى أنه لايجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام . إلا بما علم أن الله تعالى أحله أو حرمه .

وأصل الآية صد للعرب عن بدع جاهليتهم ومذاهبهم الباطلة التى كانوا عليها بأن أمرهم بأكل مارزقهم الله من الحلال الطيب وشكر إنعامه بذلك .

ثم عدد عليهم محرمات الله ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم دون اتباع ماشرع الله على لسان رسله . وهو تشريع عام لجميع المكلفين فى كل مايتعلق به الحكم بالحل والحرمة إذ العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب فحق المرشد أن يدع التكلف لما لايحسن فليس لمن تكلف مالايحسن غاية ينتهى إليها ولاحد يقف عنده ، ومن كان تكلفه غير محدود فأخلق به أن تضل ويُضل ـــ وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل » .

وقال بعض الحكماء : من العلم ألا تتكلم فيما لاتعلم بكلام من يعلم ، فحسبك جهلاً من عقلك أن تنطق بما لاتفهم .

وإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه وإذا لم يكن فى جهل بعضه عار لم يقبح به أن يقول لا أعلم فيما ليس يعلم . أخرج البخارى عن ابن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ قال : « من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم » .

وقال ابن عباس ـــ رضى الله عنهما : « إذا ترك العالم قول لاأدرى أصيبت مقاتله . أى هلك من ترك لاأدرى » .

وقال بعض البلغاء : من قال لاأدري عُلِّم فدرى . ومن انتحل مالايدرى أهمل فهوى .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٣ .

(٢) سورة النحل الآيتان ١١٦ ، ١١٧ .

اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لمالا نحس كما نعوذ بك من العجب بما نحسن إنك الجواد الكريم » .

« الصفة الثانية »

(العمـــل بما يعلـــم)

العمل بعلمه فلا يكذب فعله قوله ولا يخالف ظاهره باطنه بل لايأمر بالشيء ومالم يكن هو أول عامل به ، ولاينهى من الشيء مالم يكن هو أول تارك له ليفيد وعظه ويثمر إرشاده .

قال أبو حامد الغزالي : فمن علم وعمل وعلّم فهو الذى يدعى عظيماً فى ملكوت السموات فإنه كالشمس تضيء لغيرها ، وهى مضيئة فى نفسها ، وكالمسك الذى يطيب غيره ، وهو طيب .

فأما إن كان يأمر بالخير ولايفعله وينهى عن الشر وهو واقع فيه فهو بحاله هذه عقبة فى سبيل الاصلاح ، وهيهات وهيهات أن ينتفع به فإنه فاقد الرشد فى نفسه فكيف يرشد غيره .

قال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته من القلوب كما يزل القطر عن الصفا .

قال ابن رجب الحنبلى فى كتابه « لطائف المعارف » :

قال بعض السلف : إن العالم إذا لم يرد بموعظته وجه الله زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا . وكان يحيى بن معاذ ينشد فى مجلسه :

مواعـــظ الواعـــظ لن تقبـــلا
حتـــــــــى يحيها نفسه أولا
ياقوم من أظلـم من واعـــظ
قد خالـف ما قالـــه فى الملا
أظهـــر بين النـــاس إحسانـــه
وبـــارز الـــرحمن لما خلا

وقال : العالم الذى لايعمل بعلمه كمثل المصباح يضيء للناس ويحرق نفسه .

وقال : المواعظ ترياق الذنوب فلا ينبغى أن يسقي الترياق ألا طبيب حاذق معافى فأما لديغ الهوى فهو إلى شرب الترياق أحوج من أن يسقيه لغيره .

وفى بعض الكتب السالفة « إذا أردت أن تعظ الناس فعظ نفسك فإن اتعظت وإلا فاستحى منى » .

وغير تقى يأمر الناس بالتقى
طبيب يداوى الناس وهو سقيم
يأأيها الرجـــل المعلـــــم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى
كيمـــا يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهنـاك يقبل ماتقول ويقتدى
بالقـول منك وينفـــع التعـــليم
لاتنـه عن خلق وتأتى مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

كان بعض العلماء المشهورين له مجلس للوعظ فجلس يوما فنظر إلى من حوله وهم خلق كثير ومامنهم إلا من قد رق قلبه أو دمعت عينه فقال لنفسه فيما بينه وبينها كيف بك إن نجا هؤلاء وهلكت أنت .. !! ا هـ .

قال تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾(١) .

قال القرطبي فى تفسيره : قوله تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾(٢) الآية . هذا استفهام معناه التوبيخ ، والمراد فى قول أهل التأويل علماء اليهود . قال ابن عباس كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذى قرابته ولمن بينه رضاع من المسلمين : اثبت على الذى أنت عليه ومايأمرك به هذا الرجل ــ يريدون محمداً ﷺ ــ فإن أمره حق ، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولايفعلونه . وعن ابن عباس أيضا كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم باتباع التوراة ، وكانوا يخالفونها فى جحدهم صفة محمد ﷺ .

(١) سورة البقرة الآية ٤٤ .
(٢) سورة البقرة الآية ٤٤ .

وقال ابن جريج : كان الأحبار يحضون على طاعة الله وكانوا هم يواقعون المعاصى . وقالت فرقة : كانوا يحضون على الصدقة ويبخلون . والمعنى متقارب .

ثم قال ـــ مسألة ـــ فيشدة عذاب من هذه صفته : روى حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ليلة أسرى بى مررت على ناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، أفلا يعقلون » (رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط) .

وثبت فى الصحيحين ، من حديث أسامة بن زيد ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « يجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار ، فتندلق أقتابه ، فيدور فى النار كما يدور الحمار برحاه ، فيطوف به أهل النار ، فيقولون : يافلان ، ماأصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه » .

قال القرطبى : فقد دل الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالما بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشد ممن لم يعمله ، وإنما ذلك ، لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى ومستخف بأحكامه ، وهو ممن لاينتفع بعلمه ، قال رسول الله ﷺ « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » (أخرجه ابن ماجة فى سننه . أ هـ) .

فالآية الكريمة كما ترى ناعية على كل من يعظ غيره ولايتعظ بسوء صنيعه وعدم تأثره وأن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحمق الذى لاعقل له فإن أمر الغير بالخير مع حرمان النفس منه مما لايتفق وقضية العقل ـــ والمراد بها حثه على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوم بالحق فتكمل غيرها .

وقال تعالى ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾[1] . فهذا وعيد من الله لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو فى نفسه مقصر كمن يكذب فى قوله أو يخلف ما وعد .

قال القرطبى رحمه الله فى قوله : ﴿ **لم تقولون مالا تفعلون** ﴾[2] استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ على أن يقول الانسان عن نفسه من الخير مالايفعله . أما فى الماضى

(١) سورة الصف الآيتان ٢ ، ٣ .
(٢) سورة الصف الآية ٢ .

فيكون كذبا ، وأما فى المستقبل فيكون خُلْفاً ، وكلاهما مذموم .

وعلى الجملة فحق الواعظ أن يتعظ ثم يعظ ، ويبصر ثم يبصّر . ويهتدى ثم يهدى ولايكون دفتراً يفيد ولايستفيد . وسراجاً يضيء للناس ويحرق نفسه . ويجب ألا ينقض مقاله بفعاله ولايكذب لسانه بحاله فيكون ممن وصفهم الله تعالى ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد** ﴾[1] وبالله التوفيق .

« الصفة الثالثة »

(الحلم وسعة الصدر)

فكمال العلم فى الحلم ولين الكلام مفتاح القلوب فيستطيع أن يعالج أمراض النفوس وهو هادىء النفس مطمئن القلب لايستفزه الغضب ولا يستثيره الحمق فتنفر منه القلوب وتستثر منه النفوس ، وحسبك فى هذا قول الله تعالى لإمام الداعين صلوات الله وسلامه عليه ﴿ **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾[2] فلو كان الداعى سيىء الخلق جافياً قاسى القلب فأغلظ لهم فى القول تفرقوا عنه وانصرفوا من حوله فحرموا الهداية بأنوار دينهم فعاشوا وماتوا جهلاء وذلك هو الشقاء وهو سببه وعلته .

والرسول ﷺ هو المثل الأعلى فى الحلم وسعة الصدر وسماحة النفس التى تليق بمكانته ورسالته ، فهو صاحب دعوة جديدة يعاندها أكثر الناس ، وفيهم الأقوياء والضعفاء والحمقى والعقلاء ، والأقارب والبعداء ، وفيهم الذين يسألون أو يجادلون ليتبينوا والذين لايريدون من الجدال إلا اللجاج والعناد ، والحلم فى كل حال من هذه الحالات هو القوة النفسية التى لاتغنى قوة غناءها .

كان الحلم من شمائل المصطفى ، وكان من الوسائل التى جذبت إليه النفوس ، وألفت حوله القلوب وصدق الله العظيم فى قوله ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾[3] .

جاءه أعرابى يطلب شيئاً ، فأعطاه ، ثم قال له ﷺ هل أحسنت إليك ؟ قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت .

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابى ، وزاده شيئاً ، ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال له النبى ﷺ : إنك قلت ماقلت وفى نفس أصحابى شيء من ذلك ، فإن أحببت فقل بينهم وبين أيديهم ماقلت بين يدى ، حتى يذهب من صدورهم مافيها عليك ، قال الأعرابى : نعم ، فلما كان الغداة أو العشى جاء ، فقال النبى ﷺ : إن هذا الأعرابى قال ماقال ، فزدناه ، فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟ .

قال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال الرسول ﷺ : إن مثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض فردها هونا هونا حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها .

أرأيت إلى رسول الله ﷺ كيف يحلم على من أعطاه فجحد عطاءه ؟ .

أرأيت إليه كيف يعطيه ثانية فيسمع رضاه ودعاءه ؟ ثم أرأيت غضبتهم على هذا الأعرابى ، حتى لاينزل به أحدهم عقوبة على جلافته ونكرانه الجميل ؟.

وعن ابن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ قال : كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ضربه قومه فأدموه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ، ويقول « اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » .

وقال البخارى فى قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾(١) العرف المعروف حدثنا أبواليمان حدثنا شعيب عن الزهرى أخبرنى عبيدالله بن عبدالله بن عتبة أن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا فقال عيينه لابن أخيه ياابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه قال سأستأذن لك عليه ، قال ابن عباس فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فدخل عليه قال هى ياابن الخطاب فوالله ماتعطينا الجزل ولاتحكم فينا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر ياأمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿ خذ

(١) سورة الأعراف الآية ١٩٩

العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾[1] وإن هذا من الجاهلين والله ماجاوزها عمر حين تلاها وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل .

وعن حبيب بن حجر العيسى قال : كان يقال : ماأحسن الإيمان يزينه العلم ! وماأحسن العلم يزينه العمل ! وماأحسن العمل يزينه الرفق ! وماأحسن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم ، ومن عفو إلى مقدرة .

ويقال الحليم عليم ، والسفيه كليم . وقال محمد بن عجلان ، ماشيء أشد على الشيطان من عالم معه حلم ، إن تكلم ، تكلم بعلم ، وإن سكت سكت بحلم يقول الشيطان سكوته عليّ أشد من كلامه .

وليس بخطيب من يفقد على المنبر صوابه ، فيلجأ إلى مسابة خصمه ، وهى أوهى الحجج التى يلجأ إليها الضعاف الضيقو الأعطان . وقد ترك لنا الإمام على كرم الله وجهه فى ذلك أبلغ الدروس ، فقد خرج اثنان من أنصاره يسبان أهل الشام . ويظهران البراءة منهم ، فمنعهما من ذلك . فقالا له : ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال : بلى ، قالا : فلم منعتنا من شتمهم ؟ قال : « كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين ، تشتمون وتبرءون ، ولكن لو وصفتم مساوىء أعمالهم ، فقلتم : من سيرتهم كذا وكذا ، ومن أعمالهم كذا وكذا ، كان أصوب فى القول ، وأبلغ فى العذر ، وقلتم مكان لعنكم إياهم وبراءتكم منهم . اللهم احقن دماءهم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحق منهم من جهله ، ويرعوى عن الغى والعدوان منهم من لهج به لكان أحب إلى وخيراً لكم » .

فقالا : ياأمير المؤمنين نقبل عظتك ، ونتأدب بأدبك .

« الصفة الرابعة »

(الصــــبر)

قضى رسول الله ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة يدعو إلى التوحيد الخالص عبدة الأوثان واليهود والنصارى دعوة قوية لايخفت صوتها ، ولاينقطع صداها وهم يجدون فى هذه الدعوة تسفيها لعقولهم ولآلهتهم وتقويضا لسلطانهم ونفوذهم ونظمهم ، فيحشدون قواهم لوأدها أو لتعويق انتشارها ، فلا يزداد الرسول ﷺ إلا حماسة لدعوته وإصرارا عليها وكلما أمعنوا فى إيذائهم له تعالى على الأذى فاحتمله فى ثبات وجلد وصبر ، ثم أذن الله له فى الجهاد فجاهد حتى كتب الله لدينه النصر ، فصار أعداء الأمس أصدقاء اليوم ، وأقبل المشركون

(١) سورة الأعراف الآية ١٩٩ .

على دين الله أفواجا ، يحملون شعاره ويرفعون مناره ، ويفدونه بأغلى مايفتدى به عزيز .

١ ـــ لقد صبر الرسول على جراح الألسنة ، وإنها لأليمة فى مجتمع يحرص على الثناء وحسن الأحدوثة أيما حرص ، وينفر من المذمة أيما نفور ، لأن الألسنة تقوم فيه مقام الصحف والإذاعة ووسائل الإعلام فى المجتمع المعاصر ، حتى لقد كان بعض السَّراة يغدق على الشعراء استدراراً لمدائحهم واتقاء لهجائهم ، وكثيرا ما آذوه بأفعال قبيحة مصدرها الحنق والطيش والسفه والاستهانة ، يريدون أن يصدوه عن دين الله ، ويريدون أن يوئسوه من نجاح دعوته ، وأن يفضوا أتباعه من حوله فكان يتلقى قبائحهم بالصبر الذى يشق طريقه إلى النصر ، وبالجلد الذى يغلب بحكمته جهلهم ، ويفوت عليهم أغراضهم ، إذ كان هذا الصبر العظيم دليلا على أن الرسول صادق مبلغ عن ربه ، وإلا مااحتمل هذا العدوان ، وهو لايطلب ملكا ، ولايبتغي جاهاً ، ولايتطلع إلى مال ، فجعل الناس يقبلون على الإسلام فرادى وجماعات ، وجعلوا يتحملون أذى المشركين فى شجاعة وثبات ، وهم يودون أن يفتدوا رسول الله ﷺ مما يحتمل من عدوان وإعنات .

وقد مر بك نماذج من صبره ﷺ يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله لابد أن يكون الداعى إلى الله ـــ حليماً ، صبوراً على الأذى . فإنه لابد أن يحصل أذى . فإن لم يحلم ويصبر كان مايفسد أكثر مما يصلح ، كما قال تعالى حاكيا عن لقمان وهو يعظ ابنه ﴿ **وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾(١) .

ولهذا أمر الله الرسل ـــ وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـــ بالصبر ، كقوله لخاتم الرسل ﷺ ، بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة ، فإنه أول ماأرسل أنزلت عليه سورة (ياأيها المدثر) بعد أن أنزلت عليه سورة (اقرأ) التى بها نبىء . فقال الله تعالى ﴿ **ياأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولاتمنن تستكثر . ولربك فاصبر** ﴾(٢) .

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة وختمها بالأمر بالصبر .

ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهى عن المنكر . فعلم أنه يجب بعد ذلك الصبر وقال

---

(١) سورة لقمان الآية ١٧ .

(٢) سورة المدثر الآيات ١ : ٧ .

تعالى ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾[1] وقال تعالى ﴿ واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾[2] وقال تعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾[3] وقال تعالى ﴿ واصبر وماصبرك إلا بالله ﴾[4] وقال تعالى ﴿ واصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾[5].

فلابد من هذه الثلاثة : العلم ، والرفق ، والصبر العلم قبل الأمر والنهى ، والرفق معه . والصبر بعده . وإن كان كل من الثلاثة لابد أن يكون مستصحباً فى هذا الأحوال .

وهذا كما جاء فى الأثر عن بعض السلف ـــ ورووه مرفوعاً ـــ ذكره القاضى أبو يعلى فى المعتمد « لايأمر بالمعروف وينهى عن المنكر : إلا من كان فقيها فيما يأمر به فقيها فيما ينهى عنه . حليماً فيما يأمر به . حليماً فيما ينهى عنه » .

« الصفة الخامسة »

(التواضع ومجانبة العجب)

التواضع تنزل بالنفس فى غير ابتذال لها ، ولاتهاون بقدرها ولاتجزئة للآخرين على الاستخفاف بمكانة المتواضع فهو إذاً نقيض الكبر ، لأن الكبر يزين للمتكبر أنه أعظم قدراً وكالأً من سواه ، فيركن إلى هذا الاعتقاد ، ويدأب على تحقير من دونه ، ويزدريه ويقصيه ، ويترفع عن مجالسته ومخالطته ، ويأنف من أن يخالفه غيره أو يعظه ، فإن جرؤ أحد على شيء من هذا غضب وعنفه ووبخه .

ولهذا فإن المتكبر إذا علّم استذل المتعلمين وأنتهرهم وأمتن عليهم ، وإن خالط الناس أستجهلهم واستحقرهم وإن تولى عملاً استبد واستأثر .

وعلى قدر مايحقق التواضع من مساواة وإيثار وسماحة ومشاركة فى المشاعر وشغف بالإنصاف ، يجر الكبر إلى رذائل كالحقد والغضب والأثرة والغرور والتسلط ، قال

---

(١) سورة الطور الآية ٤٨ .
(٢) سورة المزمل الآية ١٠ .
(٣) سورة الأحقاف الآية ٣٥ .
(٤) سورة النحل الآية ١٢٧ .
(٥) سورة هود الآية ١١٥ .

مطرف رحمه الله : لأن أبيت نائما وأصبح نادماً ، أحب إلىّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً .

. قال الشيخ ابن قدامة المقدسى : واعلم أن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه ، فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة ، وهذا مع الخلق ، فأما مع الخالق ، فإن العجب بالطاعات نتيجة استعظامها ، فكأنه يمن على الله تعالى بفعلها ، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها ، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها . وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأعجب بها .

والعجب إنما يكون بوصف كال من علم أو عمل ، فإن نصاف إلى ذلك أن يرى حقاً له عند الله . إذلالاً ، فالعجب يحصل باستعظام ماعجب به ، والإذلال يوجب توقع الجزاء ، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده .

قال بعض السلف : من تكبر بعلمه ، وترفع وضعه الله به ، ومن تواضع بعلمه رفعه الله به .

وقد أجمع من عاصر النبى ﷺ ورآه أنه صلوات ربى وسلامه عليه كان يبدأ أصحابه بالسلام ، وينصرف بكليته إلى محدثه صغيراً كان أو كبيراً ، ويكون آخر من يسحب يده إذا صافح وإذا أقبل جلس حيث ينتهى بأصحابه المجلس وكان يذهب إلى السوق ويحمل بضاعته ، ويقول : أنا أولى بحملها ، ولم يتكبر عن عمل الأجير والصانع .. سواء كان فى بناء مسجد المدينة ، أو الخندق .. وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة .. ويقبل عذر المعتذر ، وكان يرقع ثوبه ، ويخصف نعله ويخدم فى مهنة أهله ــ وكان يعقل بعيره ــ ويأكل مع الخادم ، ويقضى حاجة الضعيف ، والبائس ، ويجلس على الأرض .

وكيف لا ، وقد أدبه الله سبحانه وتعالى بهذا الأدب القرآنى حين قال ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾[1]

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٥ .

« الصفة السادسة »

(الشـــجاعة)

ينبغي للداعية أن يكون شجاعاً حتى لايهاب أحداً فى الجهر بالحق ولاتأخذه فى نصرة الله لومة لائم ففى حديث عبادة بن الصامت — رضى الله عنه — قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقول بالحق أينما كنا لانخاف فى الله لومة لائم » متفق عليه .

وعن عبدالله بن عمرو — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : « إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم ياظالم فقد تودع منها » رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد . وروى ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر — رضى الله عنه — قال : أوصانى خليلى بخصال من الخير ، أوصانى أن لا أخاف فى الله لومة لائم وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مراً » .

وقال ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (الجامع الصغير) .

فإن كان جباناً ضعيف القلب ، عجز عن الأخذ بناصر الحق وتغيير المنكر وتقرب إلى الناس بأنواع المداهنة وتودد إليهم بضروب الملق — وماهكذا تكون الأطباء ولا اللائق بقادة الأمم — الطبيب الرحيم هو الذى إذا عرف نوع المرض فى أى شخص كان بادر إلى علاجه بما يستأصله حرصاً على سلامة المريض وهو لايبالى بكراهة المريض للدواء ، وتألمه من العلاج فأما إذا عمل لذلك حساباً وتساهل مع المريض حتى استفحل أمر المرض واستعصى على الدواء فأودى بحياة المريض فإنه غاش لاناصح ، وسفيه لاحكيم .

والمداهنة : السكوت على المنكر لداعى الهوى لا الدين ، فإذا سكت العلماء على المنكرات لداعى الدين كأن يكون فى الإنكار محذور يزيد على محذور السكوت سمى سكوتهم مرارة وهى جائزة شرعاً . والملق : الود والتلطف ، ورجل ملق يعطى بلسانه ماليس فى قلبه ، وتملقه تودد إليه وتلطف له . وعلى الداعى فى مقام الحجة على الخصم أن يذكر حجته خالية من السب والشتم وأنواع الغلظة إذ لو اشتملت على شيء من هذا لجاز أن يقابل بمثله كما قال تعالى : ﴿ ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾[1] ويشتد الغضب وتقع النفرة ، ويمتنع حصول المقصود من الدعوة .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٨ .

« الصفة السابعة »

(الكـــــرم)

الكرم والجود والسخاء : الانفاق عن رضا فيما يعظم نفعه وخطره أو بذل المال فى سبيل من سبل الخير والبر .

وقد كان الكرم من سجايا النبى ﷺ فطرة وتربية إلهية وتوجيهاً من القرآن الكريم ــ إذ الكرم ــ بمعنى البذل فى سبيل الخير والحق ، ومازال وسيلة من وسائل القوة والتعاون والتواد ، والأمن والصلاح .

ولم يكن جوده ﷺ لكسب محمدة أو اتقاء منقصة ، ولم يكن للمباهاة أو الاستغلال أو لاجتذاب المادحين ، بل كان فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاة الله .

كان فى حماية الدين ، وفى مؤازرة الدعوة ، وفى محاربة الإنفاق على الفقراء من المسلمين الذين فقدوا أموالهم فى سبيل الله ، أو عجزوا عن الكسب .

وكان فى رعاية اليتامى والأيامى ، وكان فى اجتذاب من يرى تألف قلوبهم من غير المسلمين ، ليتقوى باجتذابهم إلى الإسلام .

وكان كرم النبى ﷺ إيثارا على نفسه وأهله ، فهو يعطى أحوج مايكن إلى مايعطيه ويبذل وهو محتاج إلى القليل ، لأنه يستطيع أن يصبر ، ولأنه يحيا حياة الزهاد ، ولأنه الملاذ الرفيق والأب الشفيق الذى تشغله حاجات بنيه أضعاف ماتشغله حاجات نفسه .

وهذه هى الدرجة العليا من الكرم التى امتدحها الله تعالى فى قوله : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾[1].

ولطالما حض النبى ﷺ على الكرم بمعناه الذى يرتضيه الإسلام ، من بذل فى تقوية الجيش ، أو فى الدفاع عن الدعوة ، أو فى البر بالفقراء .

من هذا قوله ﷺ حينما سأله رجل أى الصدقة أفضل ؟ قال : أن تتصدق وأنت صحيح حريص ، تأمل الغنى وتخشى الفقر ، ولاتمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان » (رواه البخارى) .

---

(١) سورة الحشر الآية ٩ .

وسأل رجل النبى ﷺ : أى الإسلام خير ؟ ـــ يريد أن يعرف أى خصال الإسلام خير ـــ فقال له : تطعم الطعام ، وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف . (رواه البخارى) .

وعد ﷺ من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم القيامة رجلاً تصدق فأخفى ، حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه » .

وعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : السخى قريب من الله ، قريب من الناس قريب من الجنة ، بعيد عن النار ، والبخيل بعيد عن الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار ، والجاهل سخى أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل . (أخرجه الترمذى) .

« الصفة الثامنة »

(العفـــة)

العفة فضيلة تقى الإنسان من أن يرتكب بيده أو بلسانه أو بشهواته مالايحل له وربما تمنعه من الحلال إباء وأنفة .

وقد وردت كلمة العفة ومشتقاتها فى كتاب الله دالة على هذه الأنواع :

١ ـــ حفظ الفروج عن الحرام قال تعالى ﴿ **وليستعفف الذين لايجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله** ﴾[1].

فهنا أمر بالاجتهاد فى طلب العفة والحرص عليها للذين لايستطيعون الزواج لعجزهم عن الإنفاق .

٢ ـــ نزاهة النفس وأمانة اليد . قال تعالى فى النهى عن أكل مال اليتامى ﴿ **وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولاتأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف** ﴾[2].

---

(١) سورة النور الآية ٣٣ .

(٢) سورة النساء الآية ٦ .

٣ ـ الأنفة من طلب الطعام أو المال مع شدة الفقر والحاجة ، قال تعالى ﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لايستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلحافا ﴾[(١)].

ولقد حرص رسول الله ﷺ على تكوين المجتمع الفاضل ، فأمر المسلمين بالعفة فى كثير من أحاديثه كقوله ﷺ « اليد العليا خير من اليد السفلى » . متفق عليه .

وكقوله « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه » . متفق عليه .

وكقوله ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس » .

وفى الصحيحين أيضاً : سأل ناس من الأنصار رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفذ ماعنده فقال : مايكون عندى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وماأعطى أحد عطاء خير وأوسع من الصبر » .

وقال ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فمن لم يستطع ، فعليه بالصوم فالصوم وجاء » .

وبالجملة فواجب الداعى نزاهة النفس عن شبه المكاسب ، والاكتفاء بالميسور عن ذل المطالب فإن شبه المكتسب إثم . وكد الطلب ذل . والأجر أجدر به من الإثم . والعز أليق به من الذل .

وماأحسن قول على بن عبدالعزيز القاضى رحمه الله :

يقولـــون فيك انقبـــاض وإنما
رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم
ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما
بدا طمع صيرته لى سلمـــا

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٣ .

وماكل برق لاح لى يستفزنى
ولاكل من لاقيت أرضاه منعما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى
ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنهنهها عن بعض مالا يشينها
مخافة أقوال العدا فيم أولما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى
لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرساً واجنيه ذلة
إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا
محياه بالأطماع حتى تجهما

على أن العلم عوض من كل ذلة ، ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بدلاً منه . نسأل الله الكريم أن يغنينا عمن سواه .

« الصفة التاسعة »

(القنــاعة)

القناعة فى الدنيا والرضا منها باليسير فإن كان حريصا على الدنيا منهمكا فى طلبها كانت حالة هذه داعية الترغيب فى حبها « وحب الدنيا رأس كل خطيئة » وبذلك يكون مفسداً لامصلحا وضارا لانافعاً . وماهكذا تكون الدعاة إلى الله تعالى .

وإليكم يادعاة الإسلام بعض الأمثلة من زهده ﷺ .

يقول عبدالله بن مسعود : دخلت على الرسول ﷺ وقد نام على حصير ، وقد أثر فى جنبه الشريف ، فقلت : يارسول الله لو اتخذنا لك وطاء تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه ! فقال ﷺ : « مالى وللدنيا ، ماأنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل

شجرة ، ثم راح وتركها » وهو القائل « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً ». أى لايزيد على الحاجة .

وروى البخارى عن عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ أنها قالت لعروة : « ياابن أختى ، إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين ومأأوقدت فى بيوت رسول الله ﷺ ناراً » . (أى لايطبخ طعام) .

فقلت : ياخالة ماكان عيشكم ؟ قالت الأسودان : التمر والماء إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار لهم منائح وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا » (والمنيحة هى الشاة تعار لينتفع بها) .

وأخرج أحمد عن أنس رضى الله عنه قال : إن فاطمة رضى الله عنها ، ناولت النبى ﷺ كسرة من خبز الشعير ، فقال لها : « هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام » .

وكيف لايكون النبى ﷺ فى أعلى مراتب الزهد وهو المنفذ لما أراده الله منه ، وماخاطبه به : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ [1] .

﴿ ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ .

وعليكم ألا تفهموا ـــ يادعاة الإسلام ـــ أن نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه حين أقام نفسه على خلق الزهد والقناعة وعيش الكفاف أراد من ذلك أن يحرم على نفسه وأهله زينة الله التى أخرجها لعباده والطيبات من الرزق .. حاشاه أن يفعل ذلك وهو الذى أنكر على بعض أصحابه تحريمهم على أنفسهم الزواج واللحم والفطير والأخذ بحظوظ الدنيا .. وعليكم ألا تفهموا أيضا أنه ﷺ كان زاهدا لفقر أو لضيق ذات اليد أو قلة طعام .. ولو أراد مباهج الحياة الدنيا ، لجاءته الدنيا طائعة صاغرة راغمة .. ولكن أراد من زهده وتعففه عليه الصلاة والسلام أمورا أذكر لكم أظهرها وأهمها :

ـــ أراد أن يعلم الأجيال المسلمة بزهده هذا معنى المحبة والبذل والإيثار .

روى البيهقى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « ماشبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية ولو شئنا شبعنا ولكنه كان يؤثر على نفسه » وقد صح عنه عليه الصلاة

(١) سورة الضحى الآية ٤ .
(٢) سورة طه الآية ١٣١

والسلام أنه كان يعطي عطاء من لايخشى الفاقة .

ـــ أراد أن تتأسى الأجيال المسلمة بالعيش الكفاف القنوع .. مخافة أن تقعدهم زهرة الحياة الدنيا وفتنتها عن واجب الدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله وتبطرهم النعمة والمغالاة فى الطيبات عن إعلاء كلمة الله ، ومخافة أن تبسط عليهم الدنيا فتهلكهم كما أهلكت من كان قبلهم .

روى البخارى ومسلم أن أباعبيدة ـــ رضى الله عنه ـــ لما قدم بمال من البحرين خرج الأنصار لاستقباله بعد صلاة الفجر ، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال : « أظنكم سمعتم أن أباعبيدة قدم بشيء من البحرين فقالوا : أجل يارسول الله ، فقال : أبشروا وأملوا مايسركم ، فوالله ماالفقر أخشى عليكم ، ولكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » .

ـــ أراد أن يفهم الذين فى قلوبهم مرض من منافقين ومبشرين وغيرهم من أعداء الإسلام أنه ﷺ ماأراد من دعوته التى كان يدعو الناس إليها جمع المال ، ولا المظاهر الفانية ، ولا الدنيا الزائلة ، ولا النعيم ، ولا الترف ، ولا أن يصطاد الدنيا باسم الدين .. وإنما أراد التماس الأجر من الله وحده : وأن يلقى الله عز وجل وليس عنده من حطام هذه الدنيا إلا الطعام الذى يكفيه ليلته ، والكساء الذى يستر عورته ، ومايبقى فى بيته من أثاث ودراهم .. فهو صدقة . وهذا شأنه وشأن الأنبياء من قبل **﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله ﴾**(1) . وهكذا كان أصحابه الكرام .

دخل رجل على أبى ذر الغفارى ـــ رضى الله عنه ـــ ذات مرة فجعل يقلب الطرف فى بيته فلم يجد فيه متاعاً فقال : ياأبا ذر ، أين متاعكم ؟! فقال : لنا بيت هناك (يعنى الآخرة) نرسل إليه صالح متاعنا . ففهم الرجل مراده وقال له : ولكن لابد لك من متاع مادمت فى هذه الدار (يعنى الدنيا) فأجاب : ولكن صاحب المنزل لايتركنا فيه .

وهذا أبوالدرداء لما رأى التجارة تنغص عليه لذة العبادة ، وتفوت عليه مجالس العلم تركها غير متردد ، ولا آسف . وقد سأله فى ذلك سائل فأجاب : لقد كنت تاجراً قبل عهدى برسول الله ﷺ فلما أسلمت أردت أن أجمع بين التجارة والعبادة فلم يستقم لى ماأردت فتركت التجارة وأقبلت على العبادة .

(1) سورة هود الآية ٢٩ .

ثم قال والذى نفس أبى الدرداء بيده ، ماأحب أن يكون لى اليوم حانوت على باب المسجد فلا تفوتنى صلاة مع الجماعة ، ثم أبيع وأشترى فأربح كل يوم ثلاثمائة دينار .

ثم نظر إلى سائله وقال :

إنى لاأقول : إن الله عز وجل حرم البيع ولكننى أحب أن أكون من الذين لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله .

ولم يترك أبوالدرداء التجارة فحسب وإنما ترك الدنيا ، وأعرض عن زينتها وزخرفها واكتفى فيها بلقمة خشنة تقيم صلبه ، وثوب يستر جسده .

فقد نزل به جماعة فى ليلة شديدة البرد فأرسل إليهم طعاما ساخنا ، ولم يبعث إليهم باللحف ، فلما هموا بالنوم جعلوا يتشاورون فى أمر اللحف ، فقال واحد منهم : أنا أذهب إليه وأكلمه ، فقال له آخر : دعه ، فأبى ومضى حتى وقف على باب حجرته فرآه قد اضطجع وامرأته جالسة قريبا منه ليس عليها وعليه إلا ثوب خفيف لايقى من حر ولايصون من برد .

فقال الرجل لأبى الدرداء : ماأراك بت إلا كما نبيت نحن !! أين متاعكم ؟! .

فقال : لنا دار هناك نرسل إليها تباعاً كل مانملك ، ولو كنا استبقينا فى هذه الدار شيئاً منه لبعثنا به إليكم .

ثم إن فى طريقنا الذى سنسلكه إلى تلك الدار عقبة كؤوداً المخف فيها خير من المثقل ، فأردنا أن نتخفف من أثقالنا علنا نجتاز . ثم قال للرجل : أفهمت ؟ . فقال : نعم فهمت ، وجزيت خيراً .

وفى خلافة الفاروق رضوان الله عليه أراد من أبى الدرداء أن يلى له عملاً فى الشام فأبى فأصر عليه فقال : إذا رضيت منى أن أذهب إليهم لأعلمهم كتاب ربهم وسنة نبيهم وأصلى بهم ذهبت ، فرضى منه عمر بذلك ، ومضى أبوالدرداء إلى دمشق فلما بلغها وجد الناس قد أولعوا بالترف وانغمسوا فى النعيم ، فهاله ذلك ، ودعا الناس إلى المسجد فاجتمعوا عليه فوقف فيهم وقال :

ياأهل دمشق أنتم الإخوان فى الدين ، والجيران فى الدار ، والأنصار على الأعداء .

ياأهل دمشق ، ماالذى يمنعكم من مودتى والاستجابة لنصحيتى وأنا لاابتغى منكم

شيئاً ، فنصحيتى لكم ، ومؤنتى على غيركم ، مالى أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكم لايتعلمون ؟ وأراكم قد أقبلتم على ماتكفل لكم به الله عز وجل وتركتم ماأمرتم به ؟! .

مالى أراكم تجمعون ما لاتأكلون !! وتبنون مالاتسكنون !! وتؤملون مالاتبلغون لقد جمعت الأقوام التى قبلكم وأملت . فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بورا وأملهم غرورا ، وبيوتهم قبوراً ، هذه عاد ـــ ياأهل دمشق ـــ قد ملأت الأرض مالا وولداً فمن يشترى منى تركة عاد اليوم بدرهمين ؟ فجعل الناس يبكون حتى سُمع نشيجهم من خارج المسجد .

وفى خلال وجود أبى الدرداء فى بلاد الشام قدم عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب متفقداً أحوالها ، فزار صاحبه أباالدرداء فى منزله ليلاً ، فدفع الباب ، فإذا ليس له غلق فدخل فى بيت مظلم لاضوء فيه ، فلما سمع أبوالدرداء حسه قام إليه ، ورحب به وأجلسه وأخذ الرجلان يتفاوضان الأحاديث ، والظلام يحجب كلا منهما عن عينى صاحبه .

فجس عمر وساد أبى الدرداء فإذا هو برذعة وجس فراشه فإذا هو حصى ، وجس دثاره فإذا هو كساء رقيق لايفعل شيئاً فى برد دمشق .

فقال له : رحمك الله ، ألم أوسع عليك ؟ ألم أبعث إليك ؟! .

فقال له أبوالدرداء : أتذكر حديثاً حدثناه رسول الله ﷺ ؟ .

قال : أى حديث ؟

قال : ألم يقل : ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب ؟

قال : بلى .

قال : فماذا فعلنا بعده ياعمر ؟!!

فبكى عمر وبكى أبوالدرداء .

ومازالا يتجاوبان البكاء حتى طلع عليهما الصبح .

ظل أبوالدرداء فى دمشق يعظ أهلها ويذكرهم ويعلمهم الكتاب والحكمة حتى أتاه اليقين . فلما مرض مرض الموت ، دخل عليه أصحابه فقالوا : ماتشتكى ؟

قال : ذنوبى .

قالوا : وماتشتهى ؟

قال : عفو ربى .

ثم قال لمن حوله : لقنونى : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فمازال يرددها حتى فارق الحياة .

ولما لحق أبوالدرداء بجوار ربه رأى الصحابى الجليل عوف بن مالك الأشجعى فيما يراه النائم مرجاً أخضر فسيح الأرجاء وارف الأفياء فيه قبة عظيمة من أدم ، حولها غنم رابضة لم تر العين مثلها قط ، فقال : لمن هذا ؟! فقيل له : لعبدالرحمن بن عوف ، فطلع عليه عبدالرحمن بن عوف من القبة ، وقال له ياابن مالك ، هذا ماأعطانا الله عز وجل بالقرآن . ولو أشرفت على هذه الثنية رأيت مالم تر عينك وسمعت مالم تسمع أذنك ولم يخطر على قلبك . فقال ابن مالك : ولمن ذلك كله ياأبامحمد ؟! فقال : أعده الله عزوجل لأبى الدرداء ، لأنه كان يدفع عنه الدنيا بالراحتين والصدر .

وهذا سعيد بن عامر الجمحى الصحابى الجليل دعاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى موازرته وقال : ياسعيد إنا مولوك على أهل « حمص » فقال ياعمر نشدتك الله لا تفتننى ، فغضب عمر وقال : ويحكم وضعتم هذا الأمر فى عنقىَ ثم تخليتم عنى ، والله لاأدعك ، ثم ولاه على « حمص » وقال : ألا نفرض لك رزقاً ؟ قال : وماأفعل به ياأمير المؤمنين ؟ فإن عطائى من بيت المال يزيد على حاجتى ، ثم مضى إلى « حمص » وماهو إلا قليل حتى وفد على أمير المؤمنين بعض من يثق بهم من أهل « حمص » فقال لهم : اكتبوا لى أسماء فقرائكم حتى أسد حاجتهم ، فرفعوا إليه كتاباً فإذا فيه : فلان وفلان وسعيد بن عامر ، فقال ومن سعيد بن عامر ؟ فقالوا أميرنا ، قال : أميركم فقير ؟! قالوا : نعم ، ووالله إنه ليمر عليه الأيام الطوال ولايوقد فى بيته نار ، فبكى عمر حتى بللت دموعه لحيته ، ثم عمد إلى ألف دينار فجعلها فى صرة ، وقال اقرؤوا عليه السلام منى ، وقولوا له : بعث إليك أمير المؤمنين بهذا المال لتستعين به على قضاء حاجاتك

جاء الوفد لسعيد بالصرة فنظر إليها فإذا هى دنانير ، فجعل يبعدها عنه وهو يقول : إنا لله وإنا اليه راجعون — كأنما نزلت به نازلة أو حل بساحته خطب — فهبت زوجته مذعورة وقالت : ماشأنك ياسعيد ؟! أمات أمير المؤمنين ؟! قال : بل أعظم من ذلك ، قالت : أأصيب المسلمون فى وقعة قال : بل أعظم من ذلك قالت : وماأعظم من ذلك ؟! قال : دخلت علىَّ الدنيا لتفسد آخرتى ، وحلت الفتنة فى بيتى . قالت تخلص منها — وهى لاتدرى من أمر الدنانير شيئاً — قال : أو تعينينى على ذلك ؟ قالت : نعم ، فأخذ الدنانير فجعلها فى صرر ثم وزعها على فقراء المسلمين .

رضى الله عنهم أجمعين فقد كانوا كما وصفهم المولى سبحانه وتعالى ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾[1].

* * *

«الصفة العاشرة»

(مـن صفـات الدعـاة)
(قوة البيان وفصاحة اللسان)

قال الجاحظ : البيان اسم جامع لكل ماكشف لك من المعنى . وقال ابن المعتز : البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول . أما الفصاحة : فقال الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله تعالى : اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد وأصلها من قولهم أفصح اللبن ، إذا أخذت عنه الرغوة .. واللفظ الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف فى الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحاً حسناً .

ومن المستحسن فى الألفاظ تباعد مخارج الحروف فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة فى مواضعها غير قلقة ولامكدودة .

روى الشيخان عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : « ماكان رسول الله ﷺ يسرد الحديث كسردكم هذا ، يحدث حديثاً لو عدّه العاد لأحصاه » .

وروى أبوداود عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : « كان كلامه ﷺ فصلاً يفهمه كل من سمعه » .

وفى الصحيحين عن أنس أن النبى ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه ، وكان ﷺ يتكلم بكلام فصل لاهزر ولانذر ويكره الثرثرة فى الكلام والتشدق به . وكان ﷺ يكره التنطع فى الكلام والتكلف فى فصاحته كما ورد فى سنن أبى داود والترمذى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « إن الله عزوجل يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه كما يتخلل البقر بلسانها » . (وهو الذى يتشدق فى الكلام ، ويضخم به لسانه ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفاً) .

(١) سورة الحشر الآية ٩ .

وكلما كان اللسان أبين كان أقوى وأجمل . كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد وأكمل . وقد سألها موسى عليه السلام ربه حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته والإبانة عن حجته والإفصاح عن أدلته . والحُبْسة التى كانت فى بيانه ﴿ واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ﴾[1] والحبسة بالضم تعذر الكلام عند إرادته . وقال ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى ﴾[2] . وقال ﴿ ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ﴾[3] رغبة منه عليه السلام فى غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة فى وضوح الدلالة لتكون الأعناق إليه أميل ، والمقول عنه أفهم . والنفوس إليه أسرع . فإن خصمه فرعون كان مشاغباً ، سباباً كل جاحد معاند وشأن كل مختال مكايد .

وذكر الله عز وجل فى كتابه عظيم منته فى تعليم البيان ، وجميل نعمته فى تقويم اللسان فقال تعالى : ﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان ﴾[4] أى مكنه من التعبير عما فى ضميره لإفهام الغير ، كما مكنه من فهم بيان غيره . وأصل البيان جمع الفصاحة فى اللفظ والبلاغة فى المعنى وقال الزمخشرى : هو إظهار المقصود بأبلغ لفظ ، والعى ضد البيان والحصَر (بفتح الصاد) ضيق الصدر عند النطق ، وبالجملة فقوة البيان وفصاحة اللسان ، من جلائل نعم الله تعالى على الداعى ، بهما يملك القلوب ، وبهما يؤثر فى الأرواح .

« الصفة الحادية عشرة »

(الثقــة باللــه)

إن نصر الله تعالى مدخر لمن يستحقونه ، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية ، الذين يثبتون على البأساء والضراء ، الذين لايحنون رؤوسهم للعاصفة ، الذين يستيقنون أن لانصر إلا نصر الله ، وعندما يشاء الله ، وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها ، فهم يتطلعون فحسب إلى نصر الله لا إلى أى حل آخر ، ولا إلى أى نصر لايجىء من

---

(١) سورة طه الآيتان ٢٧ ، ٢٨

(٢) سورة القصص الآية ٣٤ .

(٣) سورة الشعراء الآية ١٣ .

(٤) سورة الرحمن الآيات ١ : ٤ .

عند الله ، بهذا يدخل المؤمنون الجنة ، مستحقين لها جديرين بها بعد الجهاد والامتحان والصبر والثبات والتجرد لله وحده . قال تعالى لسيد الدعاة إلى الله ﴿ **فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ، فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ، وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون** ﴾(١)

ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه سيد الداعين إلى الله تعالى ، لم يثن عزمه عن الدعوة إلى الله تعالى عناد أهل الضلال والعناد ، ومقابلتهم له بالانكار وإيقاع الأذى به وبأصحابه المجاهدين المخلصين ، بل ثابروا عليها ، وفى نهاية الأمر كان الظفر لهم والنصر حليفهم ، وحقق الله تعالى لهم ماوعد . قال تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾(٢) وجملة الأمر أنه لايليق بالداعى أن ييأس من الإصلاح إن لم يؤثر عمله لأول مرة ، بل عليه أن يكرر النصيحة والعظة المرة بعد الأخرى ، ألا ترى دعاة الباطل يثابرون على نشره بين المسلمين بنشاط لايعرف الملل . ورجاء لايعتريه اليأس وإن لم يحصلوا على سعيهم الآن على طائل مع مايقاسون من الشدائد ومايتحملون من المشاق فى سبيل الدعوة إلى النصرانية !! كما يفعل الطبيب الناصح مع المريض . يصف له الدواء على قدر الداء فإن لم يفد وصف له غيره وهكذا حتى يتم البرء ويصل بالمريض إلى ساحل السلامة فالقلوب القاسية بتكرير النصيحة والتذكير بالعواقب تلين إن شاء الله تعالى بعد صلابتها قال تعالى ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾(٣).

« الصفة الثانية عشرة »

(ثقافــة الداعيــة)

قال الدكتور عبدالله ناصح علوان ـــ رحمه الله ـــ فى كتابه (ثقافة الداعية) ـــ ماملخصه ـــ إذا كانت الأخلاق الفاضلة ـــ كما سبق الحديث عنها ـــ هى من الصفات البارزة فى الدعاة ومن ملامح شخصيتهم الإجتماعية حين يندمجون فى الناس .. فإن تزودهم بالعدة الفكرية والثقافة الدعوية .. هى من أبرز خصائصهم ، ومن أظهر ملامح نضجهم وقوة شخصيتهم ، ومن المسلم به لدى ذوى العقول والبصائر أن الذى لم يكن عنده علم ولا ثقافة كيف يعطى غيره !؟ وكيف ينفع أمته ؟ وكيف يقوم بدوره

(١) سورة الزخرف الآيات ٤١ : ٤٤ .
(٢) سورة محمد الآية ٧ .
(٣) سورة الذاريات الآية ٥٥ .

فى الاصلاح والتغيير ؟ وكيف يستطيع أن يؤثر فى الناس ؟ أو على الأقل كيف يكون محل ثقة واحترام إذا عرف فى الأمة أنه جاهل لم يثقف ولم يتعلم ؟! فاقد الشيء لايعطيه أبداً والحوض الفارغ لايفيض على غيره ، ومن لم يملك نصاب الزكاة كيف يعطى ؟ وكيف يزكى ؟ ولقد أحسن الداعية العالم الدكتور « يوسف القرضاوى » حين عدد فى كتابه « ثقافة الداعية » أنواع الثقافات التى يجب أن يتزود بها الداعية ، إن أراد أن يكون داعية موفقاً له فى المجتمع احترام وفى الأمة أثر ..

والأستاذ يوسف القرضاوى قسم الثقافات التى يحتاجها الداعية إلى ستة أقسام وهى مرتبة كمايلى :

١ ـــ الثقافة الإسلامية .
٢ ـــ الثقافة التاريخية .
٣ ـــ الثقافة الأدبية واللغوية .
٤ ـــ الثقافة الإنسانية .
٥ ـــ الثقافة العلمية .
٦ ـــ الثقافة الواقعية .

أولاً : الثقافة الإسلامية :

ونعنى بها الثقافة التى محورها الإسلام ، وهى على الترتيب التالى :

أ ـــ القرآن الكريم وتفسيره

والقرآن الكريم هو المصدر الأول للإسلام ، وبالتالى هو الركن الأساسى للثقافة الإسلامية .

كل تعاليم الإسلام يجب أن ترجع فى أصولها إلى القرآن الكريم : العقائد ، والمفاهيم ، والقيم ، والموازين ، والعبادات ، والشعائر ، والأخلاق ، والآداب ، والقوانين ، والشرائع .. كل هذه قد وضع القرآن أسسها ، وأرسى دعائمها وجاءت السنة فبينت وفصلت ، وأقامت عليها بنياناً شامخاً لاتنال منه الليالى والأيام .

وينبغى للداعية أن يحفظ من القرآن قدر مايستطيع بل يحسن بالداعية أن يحفظ القرآن كله ويستظهره متى تيسرت له أسباب ذلك ، ليكون أقدر على استحضاره والاستشهاد به فى كل مناسبة ممكنة ، فالقرآن بحر لاينفد ، ومعين لاينضب لإعداد

الدعاة . بل إن مما يلزم الداعية الموفق أن يحسن تلاوة القرآن بإتقان وترتيل كما أمر الله ، وأن يدرس من أحكام التجويد مايصحح به قراءته ، حتى يتلوه بخشوع وتأثر وحزن فإن وجد بكاء بكى ، وإلا تباكى .

وعلى الداعية أن يحذر من الانحراف ، وسوء التأويل لآيات الكتاب ، وحملها على معان تخرجها كما أراد الله بها .

وإليك ـــ أخي الداعية ـــ طرفاً من هذا الانحراف والتحريف :

١ ـــ إخضاع النصوص للواقع الزمني ، وإن كان مخالفا لأحكام الإسلام ، كما رأينا ذلك في محاولات تسويغ نظام الفائدة في البنوك عند سطوة النظام الرأسمالي في البلاد الإسلامية ، ومثلها محاولات تبرير التأميم للشركات الخاصة ، والمصادرة للملكيات المشروعة بعد ذلك أيام سطوة الإشتراكية !! .

٢ ـــ تجزئة النصوص وتفكيكها ، وعدم معرفة واقعها وسبب نزولها ، مثل من يفسر قوله تعالى ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة** ﴾[(١)] دون أن يضم إليها قوله تعالى ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون** ﴾[(٢)].

فنزلت الآية الثانية على أن مازاد على رأس المال فهو ربا ، قليلا كان أو كثيراً ، أما عبارة (أضعافا مضاعفة) في الآية الأولى فهي وصف لبيان الواقع الذى كان عليه الجاهلون قبل الإسلام في تعاملهم بالربا ، وليس قيداً لإباحة الربا القليل .

ـــ اتباع المتشابهات وترك المحكمات ، وهذا أصل من أصول الزيغ والضلال كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم ﴿ **هو الذى أنزل إليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر إلا أولوا الألباب** ﴾[(٣)].

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٠ .
(٢) سورة البقرة الآيتان ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٧ .

أما علم التفسير :

فهومن أهم العلوم على الإطلاق لكونه يعين على فهم المراد من كلام الله تعالى بقدر الطاقة البشرية وقد دون فى تفسير القرآن الكريم مئات ومئات من الكتب والمجلدات منها ماطبع ومنها مايزال مخطوطا ، من كتب التفسير مايذهب أصحابها مذهب الرواية . ويسمى « التفسير المأثور » وأشهرها « تفسير ابن جرير الطبرى » و« تفسير ابن كثير الدمشقى » .

ومن كتب التفسير ماينحو أصحابها منحى الدراية ويسمى « التفسير بالرأى » وهذا النوع من التفسير يتلون بلون مذهب صاحبه ، وينطبع بطابع عصره وثقافته وتخصصه .. فإن كان يغلب عليه النحو واللغة والبلاغة والاعتزال فيأتى تفسيره مصبوغاً بصبغة اللغة والنحو والمباحث البلاغية ، والآراء الاعتزالية ـ كتفسير الكشاف ـ للزمخشرى ، وإن كان يغلب عليه الفقه ، والأحكام التشريعية ، والآراء المذهبية . فيأتى تفسيره مصبوغاً بصبغة الفقه والأحكام وعرض الآراء كتفسير القرطبى للإمام القرطبى .

« قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، أما التفاسير التى فى أيدى الناس ، فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبرى فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة وليس فيه بدعة ، ولا ينقل عن المتهمين ، والتفاسير المأثورة بالأسانيد كتفسير وكيع بن أبى قتيبة وأحمد بن حنبل وإسحق بن راهوية . وأما الزمخشرى فتفسيره محشو بالبدعة وطريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية وأن الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد وغير ذلك من أصولهم مع مافيه من الأحاديث الموضوعة ، وتفسير القرطبى خير منه بكثير وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنة وأبعد عن البدع ، وإن كان كل من هذه الكتب ، لابد أن يشتمل علي ماينقد ، ولكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها ، ومن ثم تفاسير أخرى كثيرة جداً كتفسير ابن الجوزى والماوردى ». ا هـ .

ويحسن بالداعية أن لايكتفى بكتاب واحد من كتب التفسير القديمة أو الحديثة .. بل عليه أن يقتبس من كل كتاب خير مافيه ، ولب مايتميز به ، ويحترز مما فيه من آراء ومذاهب مخالفة لعقيدة السلف ، ومذهب أهل السنة والجماعة ، بل ينبغى عليه أن يأخذ بالحكمة التى تقول « كل بشر غير معصوم يؤخذ من كلامه ويترك » .

وأريد أن أوصى كل من يقرأ أى كتاب من كتب التفسير هذه الوصايا .

١ ـــ الاهتمام بلباب التفسير .

وذلك بالإعراض عن الحشو والفضول والاستطراد ، والتطويل فى المجادلات الكلامية ، والخلافات الفقهية والمباحث النحوية ، والنكات البلاغية .. وغير ذلك من ألوان الثقافات التى شغلت حيزاً ضخما من كتب التفسير ، حتى حجبت قارئها عن إدراك أسرار كلام الله تعالى ..

٢ ـــ الإعراض عن الإسرائيليات :

ويمكن أن نصنف الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ماجاء مؤكدا للقرآن الكريم .

القسم الثاني : ماجاء مخالفاً لها .

القسم الثالث : ماجاء مسكوتا عنه .

أما ماجاء مؤكدا للقرآن الكريم فيجوز نقله وروايته والاستشهاد به لحديث البخارى عن عبدالله بن عمر مرفوعا : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » . كقصص الأنبياء مع أقوامهم ، وأحوال اليوم الآخر وغيرها .

أما ماجاء مخالفا للقرآن والشريعة بشكل عام فلا يصح روايته والاستشهاد به على أنه حق ثابت ووحي منزل كقول اليهود : عزيز بن الله ، وأنهم شعب الله المختار ، ولن تمسهم النار إلا أياما معدودة ، وكقولهم على الأنبياء بما لايتفق مع عصمتهم ، وما لايليق بهم . علماً بأن القرآن سجل على أهل الكتاب عامة ، واليهود خاصة تحريفهم لكتبهم وقولهم على الله بغير علم .

أما ماجاء مسكوتاً عنه ، ولم يعلم فى الشرع صحته أو نفيه .. فلا نصدقه ولانكذبه ، وإن كان يجوز لنا حكايته والتحدث عنه لا على سبيل الاستدلال ، وإنما على سبيل الحكاية ونقل الخبر .. لعموم قوله ﷺ « حدثوا عن بنى اسرائيل ولاحرج .. » . من هذا القبيل أسماء وأصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعدتهم ، وعصا موسى من أى شجر كانت ، وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم عليه السلام ، وتعيين البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة .. إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن مما لافائدة فى ذكره ، ولا مصلحة فى التفصيل فيه .

وقد عقب العلامة الشيخ « أحمد محمد شاكر ـــ رحمه الله ـــ فى كتابه (عمدة التفسير) فقال وأحسن فيما قال : إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه أو كذبه شيء ، وذكر ذلك فى تفسير القرآن وجعله قولاً أو رواية فى معنى الآيات ، أو تعيين مالم يعين فيها ، أو تفصيل ماأجمل فيها شيء آخر ، لان فى إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله مايوهم أن هذا الذى لانعرفه صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه ، ومفصل لما أجمل فيه ، وحاشا لله ولكتابه من ذلك !! » .

وأن رسول الله ﷺ ـــ إذ أذن بالتحدث عنهم ـــ أمرنا أن لانصدقهم ولا نكذبهم ، فأى تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها البيان ؟ اللهم غفراً .. اهـ .

٣ ـــ الحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة : وإذا كان على الداعية أن يحذر من الإسرائيليات التى تتنافى مع قدسية التشريع ، وعصمة الأنبياء .. فإن عليه كذلك أن يحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة التى تتنافى أيضاً مع حقائق التشريع وعصمة الأنبياء .

٤ ـــ الحذر من الأقوال الضعيفة والآراء الفاسدة : ومما ينبغى أن يحذر منه الداعية : الأقوال الضعيفة بل الفاسدة فى بعض الأحيان ، وقد تكون هذه الأقوال صحيحة النسبة إلى قائليها من جهة الرواية ولكنها ضعيفة أو مردودة من جهة الدراية ومقاصد التشريع ، وليس هذا بمستغرب مادامت صادرة من غير معصوم ، فكل بشر يصيب ويخطىء وهو معذور فى خطئه إذا كان بعد تحر واجتهاد ، واستفراغ الوسع فى طلب الحق .

فما على الداعية أو المفسر إلا أن يتجنب فى تفسيره هذه الأقوال والآراء مهما تكن مكانة قائلها حتى لانعطى لأعداء الإسلام الفرصة فى الطعن فى مبادىء الإسلام الخالدة ـــ لأن الحق دائما ـــ كما يقول الإمام على كرم الله وجهه ـــ لايقاس بالرجال ، وإنما يقاس الرجال بالحق .

ب ـــ السنة النبوية وكتبها :

السنة النبوية هى المصدر الثانى لشريعة الإسلام ، وبالتالى هى الركن الأساسى لثقافة الداعية .. والسنة ـــ كما هو معلوم ـــ هى شارحة القرآن والمبينة له ، والمفصلة لما

أجمله .. وفيها يتمثل التفسير النظرى ، والتطبيق العملى لكتاب الله ، قال تعالى يخاطب رسوله ﷺ ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ﴾[1].

والسنة النبوية تشمل أقوال النبى ﷺ وأفعاله وتقريراته وأوصافه وسيرته ، فهى سجل حافل لحياته ، وجهاده ﷺ فى سبيل دعوته ، صوت من جوامع الكلم ، وجواهر الحكم ، وكنوز المعرفة ، وأسرار الدين وحقائق الوجود ، ومكارم الأخلاق ، وروائع التشريع ، وخوالد التوجيه ، ودقائق التربية وشوامخ المواقف ، وآيات البلاغة .. ثروة طائلة هائلة ، لاتنفد على كثرة الإنفاق ، ولاتبلى جدتها على طول الزمن والأيام ، ولايستغنى داعية يريد أن يحدث أو يدرسّ أو يحاضر أو يخطف أو يكتب .. عن الرجوع إلى هذا المعين الفياض ، والمنهل العذب ، ليستقى منه ــ بقدر مايتسع واديه ــ فيرتوى ويروى ويأخذ ويعطى ، ويمتلىء ويفيض .

ثم ماذا عن كتب السنة ؟

فى الحقيقة أن كتب السنة كثيرة جداً ، ولكن ينبغى للداعية أن يقدم ماهو الأهم منها مثل الكتب الستة (صحيح البخارى ــ صحيح مسلم ــ سنن أبى داود ــ سنن النسائى ــ سنن الترمذى ــ سنن ابن ماجه) وسند الدارمى وموطأ مالك ، ومسند أحمد .

ولبعض هذه الكتب مختصرات يمكن أن تكفى من لم تسعفه الهمة والوقت بقراءة لأصول ذاتها وأهم هذه المختصرات هى :

ــ التجديد الصريح للزبيدى : وهو مختصر للبخارى حذف منه المكرّرات والمعلقات والأسانيد .

ــ مختصر صحيح مسلم للمنذرى : قام على تحقيقه ناصر الدين الألبانى .

وهناك كتب جامعة عملت على جمع هذه الكتب أو بعضها مثل :

ــ جامع الأصول لابن الأثير جمع فيه أحاديث الأصول الخمسة : الصحيحين ، وسنن أبى داود والترمذى والنسائى ، وجعل سادسها موطأ مالك بدلاً من سنن ابن ماجة .

(١) سورة النحل الآية ٤٤ .

ـــ مجمع الزوائد للهيثمي : جمع فيه زوائد مسانيد الإمام أحمد ، والبزار ، وأبي يعلى ، ومعاجم الطبراني الثلاثة ، وهو مطبوع في عشرة أجزاء ، والمراد زوائد هذه الكتب على الكتب الستة على اعتبار ابن ماجه منها .

وقد قام أحد علماء الحديث في القرن الحادي عشر ـــ وهو العلامة محمد بن محمد سليمان الروداني ـــ المتوفى بدمشق عام ١٠٩٤ هـ بجهد مشكور في الجمع بين كتابي ابن الأثير والهيثمي وأضاف إليهما زوائد الدارمي ، وابن ماجة ، فكان هذا الكتاب بحق موسوعة حديثية جمعت أكثر من عشرة آلاف حديث نبوي من أربعة عشر كتاباً ، وسمّى كتابه « جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد » .

وهناك لون آخر من تجميع الأحاديث وهو التجميع حسب أوائل الحديث ، وفقاً لترتيب الحروف الهجائية من ذلك :

ـــ « الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير » للحافظ السيوطي .

ـــ « الفتح الكبير بزيادة الجامع الصغير » للحافظ السيوطي وقد أضاف إليه زيادات ضمها الشيخ النبهاني .

ـــ « الجامع الكبير » للحافظ السيوطي » الذي حاول فيه أن يجمع كل ماوصل إليه من كتب الحديث وقد رتبه الشيخ « علاء الدين على المتقي » من علماء الهند على الأبواب والموضوعات في كتابه الذي سماه « كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال » .

وثمت كتب أخرى متخصصة هدفها تجميع نوع معين من الأحاديث من ذلك :

ـــ كتاب « الأذكار» للإمام النووي .
ـــ كتاب « الكلم الطيب » لابن تيمية .
ـــ كتاب « الأدب المفرد » للبخاري .
ـــ كتاب « شعب الإيمان » للبيهقي .
ـــ كتاب « رياض الصالحين » للنووي .
ـــ كتاب « الترغيب والترهيب » للمنذري .
ـــ كتاب « عمدة الأحكام » للحافظ المقدسي .
ـــ كتاب « بلوغ المرام من أدلة الأحكام » للحافظ ابن حجر .
ـــ كتاب « الإلمام » لابن دقيق العيد .

وإلى جانب هذه الأنواع من الكتب توجد كتب الشروح وهى كتب مهمة نافعة ولايستغنى عنها داعية أو عالم .. وهى مفاتيح لمن أراد أن يفتح مغاليق ما أشكل عليه من الأحاديث ، وهى مصابيح تنير الطريق لمن يريد معرفة ماتتضمنه الأحاديث النبوية من أحكام وآداب وتشريع وتوجيه ولايسع عالماً أن يعُرض عن هذه الثروة ويبدأ وحده من جديد ، فهذا مناف لمنطق العلم ، ومنطق العقل ومنطق التاريخ .

ومن هذه الكتب :

أ — شروح البخارى مثل عمدة القارى للعينى ، وإرشاد السارى للقسطلانى ، وفتح البارى لابن حجر .

ب —شروح مسلم ، وأبرزها : شرح النووى ، وشرح الأبىّ والسنوسى .

ج — شروح أبى داود مثل « معالم السنن » للخطابى ، و« تهذيب السنن » لابن القيم ، و« عون المعبود » للديانوى « وبذل المجهود » للسهارنفورى .

د — شروح الترمذى مثل : « عارضة الأحوذى » لابن العربى ، و« وتحفة الأحوذى » للمباركفورى .

هـ — شروح النسائى مثل : تعليقات « السيوطى » و« السندى » على السنن الكبرى .

— وشرح الموطأ : مثل « المنتقى » لأبى الوليد الباجى ، و« تنوير الحوالك » للسيوطى ، و« المسوى » للدهلوى و« أوجز المسالك » لمحمد زكريا الكاندهلوى .

— شرح المسند ، مثل : « الفتح الربانى » لأحمد عبدالرحمن البنا ، وتعليقات أحمد محمد شاكر على بعض الأجزاء .

— شروح « مشكاة المصابيح » المسمى « مرقاة المفاتيح » للشيخ على القارى ، ومرعاة المفاتيح للمباركفورى .

— شروح الجامع الصغير : مثل « فيض القدير » للعلامة المناوى ، و« السراج المنير » للعزيزى .

— شروح الأربعين النووية ، والخمسين الرجبية وأعظم شروحها : هو شرح ابن رجب الذى سماه « جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم » .

ـــ شرح رياض الصالحين ، وهو المسمى « دليل الصالحين » فى أربعة مجلدات .

ـــ شرح أحاديث الأحكام مثل « الأحكام » شرح « عمدة الأحكام » لابن دقيق العيد ، و« نيل الأوطار » شرح « منتقى الأخبار » للعلامة الشوكانى ، و« سبل السلام » شرح « بلوغ المرام » للعالم الصنعانى .

كما ينبغى على الداعية أن يهتم بكتب « غريب الحديث» وهى التى تعنى بشرح المفردات ، والجمل الغريبة فى الحديث مثل « غريب الحديث » لأبى عبيد ، و« الفائق فى غريب الحديث » للزمخشرى . و« النهاية فى غريب الحديث والأثر » لابن الأثير ، و« مشارق الأنوار » للقاضى عياض .

تنبيهات لابد منها :

١ ـــ الحذر من وضع الأحاديث فى غير موضعها : وعلى الداعية كذلك أن يحذر من سوء الفهم للأحاديث الصحاح والحسان التى وردت فى كتب السنة .. فحرّفها بعض الناس عن مواضعها ، وتأولوها على غير تأويلها ، وبعدوا بها عمّا أراد الله ورسوله .

من ذلك : رأينا بعض الناس فى العصر الحديث يتخذ من الحديث الصحيح الذى رواه مسلم فى قصة تأبير النخل ـــ وهو قوله ﷺ : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » مستنداً لعزل التشريع الإسلامى فى المجالات الاقتصادية والسياسية ونحوها بزعم أن الرسول ﷺ فوض لنا تنظيم أمر دنيانا ، وشئون حياتنا بهذا الحديث .. والحديث إنما يقصد بأمر دنيانا : الشئون الفنية المتعلقة بالوسائل والكيفيات ، مثل شئون الزراعة والصناعة ونحوها مما ترك لعقول الناس واجتهادهم ـــ ولو كان الأمر كذلك كما يتقوّلون ـــ لما أنزل الله أطول آية فى كتابه لتنظيم شأن دنيوى اقتصادى وهو كتابه الدين ، ولما جاءت مئات النصوص من الآيات والأحاديث تنظم علاقات الناس فى حياتهم الدنيوية والاقتصادية .

٢ ـــ الحذر من دعاة التشكيك فى الأحاديث الصحيحة :

وعلى الداعية أن يكون واعياً لحملات التشكيك التى شنها خصوم الإسلام من مبشرين ومستشرقين وعملاء ملاحدة .. على الحديث والسنة ؛ والتى أثرت ـــ وياللأسف ـــ فى بعض من ينتمون إلى الإسلام بأسمائهم وأنسابهم ومن عمل الغزو الفكرى عمله فى رؤوسهم ، حتى رأينا منهم من ينكر السنة أصلاً ، ومنهم من يطعن فى كرام الصحابة ، ومنهم من يشكك فى دواوين السنة الأصلية حتى

صحيح البخارى ، ومنهم من يرد الأحاديث الصحاح المشهورة اتباعا للهوى ، ومنهم من يفسر الأحاديث على مزاجه ليتخذ من ذلك وسيلة للطعن عليها ، والتشهير بها ، ومنهم من يردد شبهات المستشرقين والمبشرين ترديد الببغاوات وهو لايدرى أو يدرى .

ولقد صادف هذا الغزو التبشيرى الاستشراقى فراغاً ثقافياً وتخلفاً فكريا بالنسبة لمصادر الإسلام وثقافته ، فتمكن وعشش وفرّخ .. وتطاول الجهل بعنقه ، ورأسه ليفرض نفسه على الأحاديث المتفق عليها ، المتلقاة بالقبول من الأمة ليردها بجرأة وقحة ..

ومن الكتب التى يستفاد منها رد الحملة التبشيرية على السنة وكشف عوارها :

١ ـ السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى د . مصطفى السباعى .

٢ ـ السنة قبل التدوين د . عجاج الخطيب .

٣ ـ الأنوار الكاشفة (فى الرد على كتاب أبى رية) . ا . عبدالرحمن اليمانى .

٤ ـ الحديث والمحدثون د . محمد أبو زهرة .

٥ ـ دفاع عن أبى هريرة : د . عجاج الخطيب .

٦ ـ دفاع عن السنة : د . محمد أبوشهبة .

٣ ـ الحذر من الأحاديث الضعيفة والواهية :

وعلى الداعية أيضا أن يحذر من الأحاديث الواهية والمنكرة بل الموضوعة .

وقد حذر علماء السنة من رواية الحديث الموضوع إلا مع التنبيه عليه ، وبيان أنه موضوع ليحذر منه قارئه أو سامعه ، قال الإمام النووى : « تحرم رواية الحديث الموضوع مع العلم به فى أى معنى كان ، سواء الأحكام والقصص والترغيب والترهيب وغيرها إلا مبيناً ، أى مقرونا ببيان وضعه وذلك لما جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن سمرة بن جندب مرفوعا ، « من حدّث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » .

وقد تخصص لهذه الأحاديث من علماء الأمة من كشف عوارها ، ووضح باطلها ، وفضح عورات الوضاع والمزيفين .

وإذا كان الله تعالى قد تكفل بحفظ القرآن الكريم من التحريف والتبديل إلى يوم

البعث والدين .. فتكفله جل جلاله لحفظ السنة من الدس والوضع تبع لذلك .. ذلك لأن السنة النبوية مؤكدة للقرآن الكريم ومبينة له ، ومفصلة لما أجمل فيه . وباستطاعة كل مسلم أن يرجع إلى أى مصدر من مصادر السنة ، ليعرف بيقين درجة الحديث من حيث الصحة أو الضعف أو الوضع .. بما لايقبل الالتباس أو الشك .

ونحن لاننكر أن كثيراً من الأحاديث الواهية والموضوعة قد تسللت إلى كثير من الكتب فى مختلف العلوم من التفسير والتصوف والرقائق ، حتى فى بعض كتب الفقه والأحكام ومن ثم دخلت على كثير من الدعاة .. وبخاصة ذوو الطابع الشعبى منهم آفة الاستشهاد بهذا النوع من الأحاديث لما فيها من الغرائب والمبالغات التى ترضى أذواق العوام ، وتثير إعجابهم .

وكثيراً مايستند هؤلاء إلى ماشتهر من أن الأحاديث الضعيفة تجوز روايتها فى فضائل الأعمال ، ومجال الترغيب والترهيب .. ونحو ذلك .

علماً أن العلماء الذين أجازوا الاستشهاد بالضعيف فى فضائل الأعمال لم يفتحوا الباب على مصراعيه وإنما وضعوا شروطا ثلاثة :

١ ــ ألا يكون الحديث شديد الضعف حيث يكون واهياً قريبا من الموضوع .

٢ ــ أن يندرج تحت أصل شرعى معمول به ، ثابت بالقرآن أو السنة الصحيحة .

٣ ــ ألا يعتقد عند الاستشهاد به ثبوته عن النبى ﷺ بل يعتقد الاحتياط ، وبناء على الشرط الثالث لايجوز للمستشهد أن يضيف الحديث الذى استشهد به إلى النبى ﷺ بصيغة الجزم والقطع ، بل عليه أن يقول : روى عن كذا ، أو نقل عن كذا ، أو ورد عن كذا .. وماأشبه من صيغ التضعيف والتمريض ، وأما قوله : قال رسول الله ﷺ كذا .. فمردود وغير جائز وغير لائق .

ومن هذا يتبين أن أحداً من علماء الأمة لم يفتح الباب على مصراعيه لرواية الأحاديث الضعيفة بل اشترطوا الشروط الثلاثة المذكورة ، فضلاً عن الشرط الأساسى وهو : أن يكون فى فضائل الأعمال ونحوها ، مما لايترتب عليه حكم شرعى .

وأنصح الداعية أن يرجع إلى الكتب التالية لمعرفة تحقيق أى حديث شك فى صحته ، أو تبين له وضعه :

١ ــ كتاب « الإحياء » للإمام الغزالى مع تخريج أحاديثه للحافظ العراقى ، وهو مطبوع

متداول ومراجعته ضرورية لطالب العلم .

٢ ـــ قراءة مقدمة كتاب « الترغيب والترهيب » للمنذرى التى بين فيها أنواع الأحاديث التى يذكرها ، والمصطلحات التى يستخدمها لبيان درجاتها قوة وضعفاً ، حتى لاينقل الضعيف الشديد الضعف ، وهو يحسب أنه حسن أو صحيح لجهله باصطلاح صاحب الكتاب .

٣ ـــ كتاب « فيض القدير » أو المختصر « التيسير للمناوى الذى رمز لما جاء فى « الجامع الصغير » للسيوطى بـ (ص) للصحيح و(ض) للضعيف .

٤ ـــ كتاب تخريج أحاديث « الكشاف » للحافظ ابن حجر .

٥ ـــ كتاب تخريج أحاديث « الهداية » للإمام الزيلعى .

٦ ـــ كتاب« المقاصد الحسنة » للإمام السخاوى .

٧ ـــ كتاب « تمييز الطيب من الخبيث فيما ورد على ألسنة الناس من الحديث » لابن الديبع الشيبانى .

٨ ـــ كتاب « كشف الخفاء ومزيل الإلباس فيما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس » للعجلونى ، وهو أجمعها وأوفاها ، وهو مرتب على حروف المعجم .

٩ ـــ كتاب التفسير لابن كثير ، لكون ابن كثير حافظاً متقنا ناقداً ، يعنى بتخريج مايورده ، والتعقيب عليه غالباً ، بالتوثيق أو التضعيف .

ومن الكتب المهمة أيضا التى لايستغنى عنها داعية أو طالب علم ـــ كتب « الموضوعات » أى الكتب التى جمعت فى طياتها الأحاديث المفتراة على رسول الله ﷺ وهى مرتبة كمايلى :

١ ـــ كتاب « الموضوعات » لابن الجوزى .

٢ ـــ كتاب « اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة » للإمام السيوطى .

٣ ـــ كتاب « تحذير الخواص من أكاذيب القصاص للسيوطى .

٤ ـــ كتاب المنار المنيف فى الصحيح والضعيف لابن القيم .

٥ ـــ كتابا « الموضوعات الكبرى » و« الموضوعات الصغرى » للشيخ على القارى .

٦ ـــ كتاب « تنزيه الشريعة المرفوعة من الأحاديث الموضوعة » لابن عراق .

٧ ـــ كتاب « الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة » للإمام الشوكانى .

٨ ـــ كتاب « الأسرار المرفوعة » للشيخ اللكنوى .

فعليك ـــ أخى الداعية ـــ اقتناء هذه الكتب جميعاً ومطالعتها ، والاستفادة منها ـــ لتكون عندك الحصيلة الكافية فى معرفة أى حديث من حيث صحته أو حسنه أو ضعفه أو وضعه ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

جـ - السيرة النبوية وأهميتها :

على الداعية أن يوجه عناية خاصة للجزء العملى من السنة ، وهو الذى يتعلق بسيرة النبى ﷺ وهديه فى كافة شئون الدين والدنيا .. ولعل من النافع هنا أن نذكر الأخوة الدعاة بأن للسيرة مصادر شتى غير كتب السيرة الرسمية المعروفة مثل : « سيرة ابن هشام » وشرحها للسهيلى المسمى « الروض الأنف » أو « السيرة الحلبية » ونحوها .. فلابد من الانتفاع بتلك المصادر كلها ماأمكن ذلك .

من هذه المصادر :

١ ـــ القرآن الكريم وتفاسيره وبخاصة المأثورة منها .

٢ ـــ كتب الحديث ، فهى كما تتضمن أقوال النبى ﷺ تتضمن أيضا أفعاله وتقريراته وأوصافه الخلقية ، ومن ذلك مراحل دعوته وجهاده وغزواته وهى سجل حافل لحياته كلها ﷺ .

٣ ـــ كتب الشمائل والهدى النبوى مثل : « الشمائل المحمدية » للترمذى ، و« الشفاء » للقاضى عياض ، و« زاد المعاد فى هدى خير العباد » لابن القيم .

٤ ـــ كتب التاريخ العام مثل : تواريخ الطبرى ، وابن الأثير ، وابن كثير ، ففى كل منها فصول ضافية عن السيرة النبوية ، ولاسيما « ابن كثير » وقد فصلت السيرة من تاريخه ، وطبعت محققة مستقلة .

٥ ـــ كتب « دلائل النبوة » وهى التى تعنى بما ظهر على يديه من الآيات والخوارق وماأنبأ به من الغيوب .

٦ ـــ وأخيراً كتب فى السيرة مستحدثة كتب فيها أعلام الكتاب والمحققين فى العصر الحديث من أظهرها : « خاتم النبيين » للشيخ محمد أبوزهرة ، « فقه السيرة » للشيخ محمد الغزالى ، « فقه السيرة » للشيخ سعيد رمضان البوطى ، وغيرها من الكتب الهامة .

د ـــ علم التوحيد :

لانريد بدراسة هذا الفن دراسة منظومات المتأخرين فى علم التوحيد وشروحها مثل « الجوهرة » ونحوها ولادراسة « العقائد النسفية » ومايتبعها من شروح وحواش : ولادراسة المطولات الكلامية مثل شرح المقاصد أو شرح المواقف وماشابهها .

فلم يعد كثير من مباحث هذه الكتب يحتاج إليه العقل المعاصر أو يستسيغه ، ولم يعد يكفى للرد على شبهات الفلسفة الحديثة ، وماتثيره من مشكلات فكرية واعتقادية .

لهذا يجب توفير الجهد الذهنى الضخم الذى يبذل فى هضم هذه الكتب ، وحل ألغازها ، لما هو أجدى فى الدفاع عن العقيدة وتثبيتها ، ومواجهة تحديات أعداء الإسلام ومؤامراتهم .. فالذى نريده من دراسة العقيدة الإسلامية مراعاة مايلى :

١ ـــ أن يكون كتاب الله عز وجل ، ومابينه من صحيح السنة هو المصدر الفذ للعقيدة الإسلامية المنشودة ، بعيداً عن الشوائب والزوائد والفضول .. وبهذا تبقى العقيدة على صفائها ووضوحها وبساطتها ، ولانجعل آراء مدرسة معينة أصلاً يحمل القرآن عليه ، وتجر الآيات لتأييده .

٢ ـــ أن نتبع منهج القرآن الكريم فى مخاطبة العقل والقلب معا من أجل تكوين الإيمان الصحيح الثابت ، فبناء العقيدة على العقل وحده كما هو إتجاه الفلاسفة ، أو على القلب وحده كما هو إتجاه الصوفية .. لايتفق مع شمول المنهج الإسلامى الذى يقوم الإيمان فيه على اقتناع العقل ، وانفعال القلب ، وصدق الإرادة .

٣ ـــ الاهتمام بأدلة القرآن الكريم التى ذكرها لإثبات معتقداته ، وإقناع مدعوية ، والرد على خصومه .. مثل : أدلة القرآن على وجود الله التى أشار إليها ابن رشد فى

كتاب «مناهج الأدلة» والعقاد فى كتابه «الله» والشيخ الجسر فى كتابه « قصة الإيمان » وغيرهم ، وتلك أدلته على التوحيد ، وعلى البعث وعلى نبوة محمد ﷺ وكلها أدلة عقلية برهانية صريحة وليست خطابية كما وهم بعض المتكلمين .

٤ ــ الاستفادة من ثقافة العصر ، وخصوصاً فى ميادين العلوم البحتة كالفلك والطب والفيزياء وعلم الحيوان والنبات .. لتأييد قضايا العقيدة وتثبيتها ، كما فعل ذلك كثير من المؤلفين فى زماننا من المسلمين والأجانب مثل « قصة الإيمان » للشيخ نديم الجسر ، وصاحب كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان » وأصحاب كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » ومؤلف « الله والعلم الحديث » ومؤلف « الإسلام يتحدى » وكتاب « الله جلَّ جلاله » لسعيد حوى .

٥ ــ أن نتبنى طريقة السلف فيما وصف الله سبحانه به نفسه من غير تكييف ولاتمثيل ، ولاتأويل ولاتعليل ، وهى الطريقة التى انتهى إليها أساطين علم الكلام من الأشاعرة وغيرهم .. فما وجدوا بدا سوى ان يقرّوا بطريقة القرآن فيما وصف الله به نفسه ، وفيما يليق بجلاله إثباتا ونفياً .

يقول الإمام فخر الدين الرازى فى كتابه « أقسام الذات » : « لقد تأملت المناهج الفلسفية ، والطرق الكلامية ــ فلم أرها تشفى عليلاً ، أو تروى غليلاً ، ورأيت خير الطرق طريقة القرآن » .

اقرأ فى الإثبات ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[1] ، واقرأ فى النفى ﴿ ليس كمثله شىء ﴾[2] ومن جرّب مثل تجربتى ، عرف مثل معرفتى .

٦ ــ نتتبع شبهات المبشرين والمستشرقين والشيوعيين وغيرهم من خصوم الإسلام وتلاميذهم .. والرد عليها رداً علميا فكرياً مركزاً بلسان العصر منطق الحجة ، وسلاح العلم .. حتى لاتبقى شبهة لمتشكك ، أو حجة لمعترض .

ويمكنك أن تستعين بهذه الكتب « حقائق الإسلام ، وأباطيل خصومه » للعقاد ، و« المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام » لمحمد محمود الصواف ، « ومفتريات على الإسلام » لأحمد محمد جمال ، « الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى المعاصر » للدكتور على عبدالحليم محمود وغيرها من الكتب .

---

(١) سورة طه الآية (٥) .

(٢) سورة الشورى الآية (١١) .

هـ ــ الفقه وأصوله :

ولابد للداعية من قدر يناسب من الثقافة الفقهية ، بحيث يعرف أهم الأحكام الشرعية فى العبادات ، والمعاملات والآداب ، والأحوال الشخصية .. ومالم يعرفه أو يستحضره يكون قادراً على مراجعة حكمه فى مصادره ومظانه الموثقة ، وذلك مهم للداعية من عدة نواح ليستطيع أن يجيب السائلين عن شئون العبادة ، وقضايا الزواج والطلاق ، وأحكام الحلال والحرام ، وأصول البيع والشراء ، والتعامل الاقتصادى ـــ مما يكثر الناس السؤال عنه ، ويلجئون عادة إلى الدعاة يلتمسون منهم الفتوى فى ذلك ، فمن لم يكن متضلعاً من الفقه سكت أو تهرب ، وفى ذلك إضعاف لموقفه وتأثيره .. أو أفتى بغير علم ، وهذه هى الطامة والضلال المبين كما فى حديث صحيح عن ابن عمر مرفوعا : « إن الله لايقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رءوساً جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

ولاشك أن الداعية إذا كان متمكناً من الفقه يصحح مايقابله من أخطاء ، وأن يقوم مايواجهه من انحرافات فى ضوء الأحكام الشرعية .

وكذلك يعمل جاهداً على تطعيم عظاته ودروسه بالأحكام المهمة التى يحتاج إليها الناس ، فى وقتها فإن تحدث مثلاً عن الزكاة أو الصيام أو الحج أو غيرها .. لم يقتصر حديثه على محض الترغيب والترهيب ، بل يحرص على اعطاء سامعه أو قارئه خلاصة الأحكام الأساسية لكل منها بأسلوب سهل قريب مقبول .

فالداعية الناجح هو الذى يعظ الناس ويفقههم بحيث لا يطغى وعظه على فقهه ، ولافقهه على وعظه .. فهذا يكون أكثر تشويقاً ، وأحسن جاذبية فى ميادين التبليغ والدعوة إلى الله تعالى :

ونوصى الداعية هنا بعدة أمور :

١ ـــ أن يحرص على ربط الأحكام بأدلتها من الكتاب والسنة والقياس والإجماع .. لأن الدليل يكسو الحكم أو الفتوى نوراً وجمالاً ، ويعطيه قوة قناعة واستجابة .

ويمكنه هنا الانتفاع بكتاب « أحكام القرآن » للجصاص وابن العربى ، وكتاب « آيات الأحكام » للشيخ السايس ، والشيخ الصابونى عدا عن كتاب « تفسير أحكام القرآن » للقرطبى .

ويمكنه أيضاً الانتفاع بكتب فقه الحديث مثل : « الأحكام » لابن دقيق العيد ، و« نيل الأوطار » للشوكانى ، و« سبل السلام » للصنعانى ، و« فقه السنة » للشيخ سيد سابق ، ويمكن أيضا الانتفاع بكتب الفقه مثل « المغنى » لابن قدامة الحنبلى ، و« المجموع » للنووى الشافعى و« والاستذكار » لابن عبدالله المالكى ، و« المحلى » لابن حزم الظاهرى ، و« البدايع » فى الفقه الحنفى .

وعلينا أن لاننسى الانتفاع بكتب الشيخين الجليلين : « الفتاوى » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، و« زاد المعاد » لابن القيم .. وكذلك الانتفاع بكتاب « الفقه على المذاهب الأربعة » للجزيرى .

٢ ـــ وإذا كان الداعية ملتزماً بمذهب من المذاهب الفقهية المتبوعة المعتمدة .. فلايمنعه هذا من التعرف على أدلة مذهبه ليطمئن قلبه ، ولامانع شرعاً من ترك المذهب واعتناق مذهب آخر معتمد إن رأى ضرورة ذلك ، ورحم الله من قال : « من قلد عالماً لقى الله سالماً » .

فإذا كان أهلاً للنظر فى الأدلة ، واستوفت فيه شروط الترجيح .. فلابأس أن يترك بعض مسائل المذهب ويأخذ بأحكام مذهب آخر لكونها أنهض دليلاً ، وأقوى حجة .. وهذا مايعرف بالاجتهاد الجزئى عند علماء الفقه والأصول .

٣ ـــ ويحسن بالداعية أن يتعرف على المذاهب الأخرى ، وبخاصة التى يتبعها بعض من يدعوهم ، فإن كان مالكيا وهو فى بيئة حنبلية ، أو كان شافعياً وهو فى بيئة حنفية .. مثلاً ، فينبغى له أن يلم بأهم مايتميز به مذهب البلد عن مذهبه ، حتى لاينكر على الناس مالايجوز أن ينكر ، لأن المنكر لايمكن أن نقول عنه أنه منكر إلا إذا اتفق على إنكاره ، أما إذا كان الحكم فى حدود الاجتهاد ووجهات النظر .. فلايجوز أن نسمى الحكم المخالف منكراً .

فلايجوز للداعية مثلاً إن كان حنفى المذهب أن ينكر وهو فى خطبة الجمعة على من يدخل المسجد ويصلى ركعتين خفيفتين بحجة أن الفقه الحنفى يمنع من الصلاة والإمام يخطب ، لأن الإمامين الجليلين الشافعى ، وابن حنبل يجيزان لمن يدخل المسجد والإمام يخطب أن يصلى ركعتين تحية المسجد لحديث جابر الذى رواه مسلم وأحمد وأبوداود قال جاء سليك الغطفانى يوم الجمعة ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر ، فقعد سليك قبل أن يصلى ، فقال له النبى ﷺ أركعت ركعتين ؟ قال : لا ، قال : قم فاركعهما » .

ومما ينصح به الداعية أن يقرأ ـــ على الأقل ـــ كتاباً فى الفقه المقارن مثل : « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » لابن رشد .

٤ ـــ ينبغى على الداعية أن يقتدى بالقرآن والسنة فى تعليل الأحكام ، وبيان حكمتها ومعقوليتها وثمراتها فى الأنفس والحياة ، وربطها بواقع الحياة حتى تقع من النفس موقع القبول .

ثم ماذا عن علوم أصول الفقه ؟

ولابد للداعية أن يلم بعلم أصول الفقه حتى يعرف الأدلة المتفق عليها وهى : الكتاب والسنة ، والتى اتفق عليها جمهورهم وهى : القياس والإجماع والتى اختلفوا فيها بعد ذلك كالاستحسان ، والاستصلاح ، والاستصحاب ، وشرع من قبلنا ، وقول الصحابى ، وما إلى ذلك مما تفرقت فيه وجهات النظر .

وإذا كان الكتاب والسنة هما الأصليين والمصدرين الأساسيين ، فكيف نستنبط منهما الأحكام ؟ ومن يجوز له الاستنباط ومن لايجوز ؟ ومن يجوز له التقليد ومن لايجوز ؟ .

ولابد للداعية ـــ إن كان أهلاً للنظر ـــ أن يعرف الراجح من المرجوح ، ليأخذ بالراجح بعد جهد واستيعاب ويعذر الآخرين بالمرجوح ، أو يقنعهم إن استطاع دون أن يحدث فى ذلك ضجة ، أو يسبب فرقة أو فتنة ، وليكن شعاره فى اختلاف وجهات النظر : « نعمل فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه » .

وليس من الضرورى للداعية أن يقرأ المطولات فى الأصول فهذا شأن المتخصص ، وحسبه أن يقرأ مايعطيه فكرة ملائمة مثل « جنة الناظر » لابن قدامة ، و« إرشاد الفحول » للشوكانى .

ومن كتب المحدثين فى الأصول : كتاب « أصول الفقه » للشيخ الخضرى ، و« علم أصول الفقه » للشيخ خلاف وهو أحسن ماكتب بأسلوب العصر .

ويحسن للداعية تتمة لهذا أن يعرف نبذة عن تاريخ الفقه الإسلامى ، ونشأة المذاهب وتطورها ويكفى فى هذا « تاريخ التشريع » للخضرى ، و« خلاصة تاريخ التشريع » لخلاف .

و ـــ علم التربية وآداب السلوك :

ولابد للداعية أيضاً من قدر مناسب من الثقافة السلوكية التى تبحث الجانب

الأخلاق والعاطفى فى تكوين المسلم وإعداده روحيا وتربوياً وسلوكياً .. وتبحث أيضاً دراسة آفات النفوس ، ومداخل الشيطان إليها ، وكيفية وقايتها وعلاجها وتبحث كذلك تقوية صلة العبد بالله وكيفية تغذيتها والسبيل إليها ، والوصول إلى أعلى مراتبها .

وعلينا أن نلحظ فى هذا العلم أمرين هامين :

الأول : الانحراف :

لاينكر المتخصصون لدراسة هذا العالم أن بعض الذين دخلوا فى سلك التصوف ، واهتموا بعلاج آفات النفوس التى أثرت فيهم عوامل أجنبية من مسيحية أو هندية أو فارسية أو يونانية إلى جوار العوامل الإسلامية أيضاً وأنها قد دخلت فيهم على مر الأزمان أفكار غريبة من شتى المصادر المذكورة وغيرها ، حتى وجد من ينسب إلى التصوف من يقول بالحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود ، وكان لبعضهم كلام عن « قدم النور المحمدى » وكلام عن تربية المريد أن يكون بين يدى الشيخ كالميت بين يدى الغاسل ، وأن يعتقد فى شيخه العصمة ، وأن يعترف لشيخه بكل شيء حتى بخاطرة السوء .. هذا عدا عن بعض غلوّ بعض المتصوفة فى الزهد إلى حد خروجهم عن وسطية الإسلام إلى رهبانية النصارى — إلى غير ذلك من هذه الانحرافات الاعتقادية والفكرية والسلوكية والذى نريد أن نؤكد عليه فى هذا المجال :

أولا : أن التصوف الفلسفى كله مرفوض من أساسه وإذا مرّ عليه الداعية فى طور الدراسة فإنما يمر للرد عليه وتبيان فساده ومنافاته للإسلام ونريد بالتصوف الفلسفى ، التصوف القائم على فكرة « الحلول » و« الاتحاد » و« وحدة الوجود » .

ثانيا : وجد من المتصوفة من نسب إليهم فكرة « الحلول ووحدة الوجود » ولكن هم فى الواقع براء مما اتهموا به ونسب إليهم — ونحن لايمكن أن نتهم إنسانا بالكفر إلا إذا أقر به باللفظ الواضح الصريح أو قامت البينة على كفره وفساد اعتقاده .. أما أن نأخذه بالشبهة أو الظن فإن الظن — فى نظر الشرع — لايغنى من الحق شيئاً .

ثالثاً : يجب أن ننتقى من التصوف مايخدم العقيدة الإسلامية ، والأخلاق الإسلامية ، وندع كل مافيه شائبة أو ريبة ، وننتفع فى ذلك بمن نقد الصوفية كأمثال ابن الجوزى فى كتابه « تلبيس إبليس » ، وشيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه « الفتاوى » للاستئناس بما كتبوه فى نقدهم لما ذهب به بعض المتصوفة من مخالفات شرعية .

كما نرى أن من الإنصاف أن نبين أن فى التراث الصوفى على مافيه من بعض المآخذ — فوائد لاتنكر — وإليك أخى الداعية أهمها :

١ ــ إنه يجمع كثيراً من أقوال الصالحين ، وحكم الزهاد والعباد ، ومآثر أهل التقوى والبصيرة .

٢ ــ إن فيه لفتات روحية مشرقة فى فهم الآيات والأحاديث والتعليق عليها لاتوجد عند غيرهم .

٣ ــ إن للمتصوفة من الممارسات والتجارب فى إصلاح الباطن وعلاج آفات النفوس ، وتقويم اعوجاج السلوك مالايوجد عند طائفة أخرى .

٤ ــ إن فى أقوالهم ومواعظهم حرارة وحيوية يلمسها قارئها ، ولعل ذلك نتيجة المجاهدة النفسية ، والرياضة الروحية التى يعانونها ، وليست النائحة كالثكلى .

٥ ــ إن الصوفية الأوائل الذين وضعوا أسس التصوف ومهدوا طريقه ، رفضوا كل محاولة لإخراجه عن الشرع ، وأبوا إلا تقييده بالقرآن والسنة . يقول الإمام الربانى الجنيد رحمه الله : « مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ، الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ » .

ويقول أبويزيد البسطامى رحمه الله : « لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى تربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة » .

ويقول الإمام سهل التسترى رحمه الله : « أصول طريقتنا سبعة : التمسك بالكتاب والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » .

٦ ــ إن من أئمة الدعوة السلفية من تكلم فى التصوف وألف فيه ، وردّ على باطله ، وأشاد بما فيه من حق كما يتضح ذلك فى رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية مثل « العبودية » و « التحفة العراقية فى الأعمال القلبية » و « رسالة الفقراء » وغيرها من الفتاوى والرسائل والبحوث التى ظهرت فى مجلدين من مجموع الفتاوى .

أحدهما : تحت عنوان « التصوف » المجلد الحادى عشر .

ثانيهما : تحت عنوان « علم السلوك » المجلد العاشر .

وكذلك مؤلفات تلميذه المحقق العلامة ابن القيم فى ذلك وهى كثيرة منها « طريق

الهجرتين وباب السعادتين » و« وعدة الصابرين » و« الداء والدواء » وأعظمها « مدارج السالكين شرح منازل السائرين » فى ثلاثة مجلدات » .

وأنصح الداعية بالإضافة إلى الكتب التى سبق ذكرها أن يقتنى الكتب التربوية السلوكية التالية :

١ ـــ إحياء علوم الدين للإمام الغزالى .

٢ ـــ الرقائق للإمام عبدالله بن المبارك .

٣ ـــ رسالة المسترشدين للحارث المحاسبى .

٤ ـــ منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسى .

الثانى : النظام الإسلامى :

ومن أهم ماينبغى للداعية أن يدرسه دراسة وعى وفهم وهضم النظام الإسلامى أو شمولية مبادىء الإسلام ، أو فلسفة الإسلام التشريعية .

ونعنى بهذا دراسة الإسلام خالصاً غير مشوب متكاملاً غير مجزأ .. الإسلام باعتباره نظاماً كاملاً للحياة ، الحياة الفردية ، والحياة الإجتماعية ، والحياة المادية ، والحياة المعنوية .. ولايغنى عن هذه الدراسة للإسلام المتكامل دراسة العلوم الإسلامية من التفسير والحديث والفقه والتوحيد ونحوها ، لأنها لاتعطى نظرة عامة للإسلام فى الكون والحياة والانسان ، وإنما تعطى نظرات متفرقة لجوانب معينة ، كل على حدة ، دون أن يكون بينها أى ارتباط أو تنسيق .

وأن الخطر على فهم الإسلام فهما صحيحاً يتمثل فى عدة أمور يجب التحرز منها :

١ ـــ أن يزداد على الإسلام ، وتلصق به ماليس منه من رواسب الديانات السابقة ، وثنية محرفة وشوائب النحل والمذاهب شرقية كانت أو غربية .. وذلك بعد أن أكمله الله للأمة ، وأتم عليها به النعمة ، والكامل لايقبل الزيادة كما لايقبل النقص ، ولهذا شدد الرسول ﷺ التحذير من الإحداث والابتداع فى الدين .

٢ ـــ أن ينقص من الإسلام ماهو من أجزائه وصلب كيانه أو يأخذ بعضه دون بعض ، كما فعل بنو اسرائيل بدينهم ، آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض .. وفى هذا العصر قامت محاولات لتجزئة الإسلام ، أو إهدار بعض تعاليمه ، كالذين يريدون الإسلام عقيدة بغير شريعة ، أو عبادة بلا جهاد ، أو ديناً بلا دولة ، أو سلاماً

بلاحرب ، أو زواجا بلاطلاق ، والإسلام كما هو معلوم ـــ وحدة متكاملة لاتقبل التجزئة ولا الانقسام .

٣ ـــ أن تشوه تعاليم الإسلام فى العقيدة أو العبادة أو الأخلاق أو التشريع .. فتعرض على غير حقيقتها ممسوخة مشوهة محرفة ، بفعل الجهل أو الهوى أو الغرض ، كما شوهت فكرة القضاء والقدر فى العقيدة أو فكرة الجمع فى العبادة ، أو فكرة الزهد فى الأخلاق ، أو فكرة الطلاق وتعدد الزوجات فى نظام الأسرة ، أو فكرة الجهاد فى نظام الدولة ، أو فكرة الحدود فى نظام العقوبات .

٤ ـــ أن يختل التوازن بين قيم الإسلام وتعاليمه فيعطى بعضها دون حقه ، ويقدم مايستحق التأخير ، ويؤخر مايستحق التقديم .. فلاتوضع الفروع موضع الأصول ، ولاتحتل النوافل مكان الفرائض ولاتقدم أعمال الجوارح على أعمال القلوب بل يوضع كل شيء فى مرتبته دون غلو ولاتقصير وإلا اضطربت المعايير ، واختلت المقاييس .

ومن هنا ينبغي لمن يدرس النظام الإسلامي أويكتب فيه تفادى هذه الأخطار الأربعة : من الزيادة فيه ، أو النقص منه ، أو التشويه له ، أو الإخلال بتوازنه .

فبناء على ماذكر ينبغي للداعية أن يدرس نظام الإسلام على هذه الصورة .

أ ـــ خالصاً مصفى من الشوائب والفضول والزيادات التى التصقت به على مر العصور ، ويجب العودة إلى نقاء الإسلام الأول المتمثل بالقرآن والسنة ، وسيرة الصحابة والسلف الصالح قبل أن تظهر الفرق وتطرأ البدع وتتفاقم الفتن .

ب ـــ شاملاً متكاملاً غير مبتور ولامجزأ ، ولامحذوف منه .. بعقائده وتصوراته ، بشعائره وعباداته ، بأخلاقه وآدابه ، بنظمه وتشريعاته الإجتماعية والإقتصادية والسياسية والمدنية والجنائية .. مع وجوب الربط بينها وشدها جميعا إلى أصل أصولها ، وأسس بنائها وهو توحيد الله عز وجل .

ج ـــ سليما كاملاً ، مبرءً من تشويه المشوهين وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وذلك بالرجوع إلى المصادر الأصلية للإسلام ، مع العناية بتوثيق الدليل ، وحسن التعديل ، والاهتمام بإبراز خصائص الإسلام : ربانيته ، شموليته ، عالميته ، وسطيته ، توازنه ، واقعيته .

د ـــ متوازياً منسقاً واضح التقاسيم محدد المفاهيم ، مرتب التعاليم ، بحيث يقدم فيه الأهم على المهم ، والمهم على غير المهم وتوضح مبادئه وأحكامه فى مراتبها الشرعية العقيدة قبل العمل ، والعبادة قبل المعاملة ، والفرائض قبل النوافل ، والكبائر قبل الصغائر ، والأركان قبل غيرها .

لابد للداعية إذن أن يقف على أرض صلبة من دراسة العلوم الإسلامية ومصادرها وأصولها دراسة وعى وهضم وتذوق ، ثم يستطيع أن ينفع بها ، وأن يخرج منها شراباً سائغاً مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس .

ثانياً الثقافة التاريخية :

ومن الثقافة اللازمة لمن نصّب نفسه للدعوة الثقافة التاريخية والإطلاع على وقائع التاريخ على حقيقتها .

فالتاريخ هو ذاكرة البشرية وسجل أحداثها ، وديوان عبرها ، والشاهد العدل لها أو عليها ، ويهمنا فى ذلك تاريخ الإسلام والأمة الإسلامية بخاصة ، وتاريخ الإنسانية بصفة عامة ، أعنى المواقف الحاسمة منه والملامح الرئيسية فيه .

وإنما يحتاج الداعية إلى التاريخ : لأن التاريخ يوسع آفاقه فى اطلاعه على أحوال الأمم وتاريخ الرجال ، فقد يرى الانسان بعين بصيرته كيف تعلم سنن الله فى المجتمعات بلامحاباة ولاجور ؟ وكيف ترق الأمم وتهبط وكيف تقوم الدول وتسقط وكيف تنتصر الدعوات وتنهزم وكيف تحيا الحضارات وتموت وكيف ينجح القادة ويفشلون وكيف تنام القلوب وتصحو .

قال تعالى ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾[1]

ولأن التاريخ أصدق شاهد على مايدعو إليه الدين من قيم ومفاهيم ، فهو مرآة مصقولة تتجلى فيها عاقبة الشاكرين لأنعم الله ، وعقوبة الكافرين بها .. وكيف يجنى من يغرس الخير ، ويحصد من يزرع الشوك ، ولذا عنى القرآن الكريم بذكر قصص السابقين ، وتواريخ الغابرين ، لما فيها من عبر بليغة وعظات حية .. كما قال تعالى ﴿ وكم

---

(١) سورة الحج الآية ٤٦

أهلكنا من قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[1].

وكثيراً مايعقب القرآن على نهاية الأمم تعقيبات تبرز ماوراءها من دروس وعبر مثل قوله تعالى بعد قصة نوح ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولاقومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾[2] وكقوله تعالى بعد قصة ثمود : ﴿ **فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ، وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾[3].

ويقول القرآن بعد قصة موسى عليه السلام وفرعون : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون** ﴾[4].

والداعية يحتاج إلى أن يستشهد للمعانى والقيم التى يدعو إليها بأحداث التاريخ ، ومواقف الأبطال ، وأحوال الأمم فهذا أعون على تثبيتها فى العقول والقلوب .

ولأن التاريخ كثيراً مايعين على فهم الواقع الماثل ، ولاسيما إذا تماثلت الظروف ، وتشابهت الدوافع ، وهذا ماجعل العرب قديما يقولون : « ماأشبه الليلة بالبارحة » ، وجعل الغربيين يقولون « التاريخ يعيد نفسه » بل القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى حين أشار إلى تشابه الأقوال عند تشابه البواعث .. وذلك فى مثل قوله تعالى عن المشركين وطلبهم الآيات الكونية من رسول الله ﷺ كقولهم ﴿ **لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية** ﴾[5] فرد الله عليهم حين طلبوا هذا الطلب الذى يقصد منه التعجيز ﴿ **كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم** ﴾[6].

ونود أن ننبه الداعية الذى يطالع التاريخ إلى الحقائق التالية :

١ ــ أن يستخرج المغزى الأخلاقى للتاريخ ، واتجاهات الأحداث فيه ، وحصادها الناطق بلسان الحال وأن يستنبط منه رؤوس العبر ، ومواقع العظمة لا أن يستكثر

(١) سورة ق الآيتان ٣٦ ، ٣٧
(٢) سورة هود الآية ٤٩
(٣) سورة النمل الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .
(٤) سورة الأعراف الآية ١٣٧ .
(٥) سورة البقرة الآية ١١٨ .
(٦) سورة البقرة الآية ١١٨ .

من الجزئيات ، ويسهب بالتفصيلات والوقائع .

ب ــ أن يكون ذا وعي يقظ للوقائع التي تخدم موضوعه ، وتعمق فكرته ، وتقدم لها الشواهد الحية .. وليس من اللازم أن يجد هذه الوقائع فى كتب التاريخ المتخصصة ، بل كثيرا مايلتقطها بحسه الواعي من مصادر قد لايلتفت إليها كثيراً رجال التاريخ ، فقد يلتقطها من القرآن الكريم فيما قص علينا من أخبار الأمم ، وقد يلتقطها من كتب الحديث والآثار .. وقد يلتقطها من بعض كتب الأحكام مثل كتاب « الخراج » لأبي يوسف ، وقد يلتقطها من كتب الأدب ، أو كتب الحسبة ، أو كتب الرحلات ، أو كتب الفتاوى ، أو غيرها .

ج ــ أن يعنى بسير الرجال ، ومواقف الأبطال ، وبخاصة العلماء ، والدعاة ، والمرشدون الربانيون ، والأئمة المجتهدون .. فى تاريخنا ثروة من السير تتمثل فيها الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة ، وتبرز الشخصية المسلمة مجسّدة فى مواقف وأعمال .. كما نلمس ذلك فى كتب الطبقات والتراجم ، ونجد ذلك فى « وفيات الأعيان » و« طبقات ابن سعد » و« تهذيب التهذيب » و« حلية الأولياء » و« وصفة الصفوة » .

د ــ أن يهتم بربط الحوادث والوقائع بأسبابها وعللها المعنوية والأخلاقية ، فالذى يطالع تاريخنا الإسلامى بعمق ويتأمل سيره بدقة ، يجد أن المد والجزر ، والامتداد والانكماش ، والنصر والهزيمة ، والازدهار والذبول ، والغنى والفقر .. كلها ترتبط بمقدار صلة الأمة بالاسلام أو انفصالها عنه ، وقربها من تعاليمه أو بعدها عنها ، وحسبنا أن نلقى نظرة عجلى إلى عصر الراشدين ، أو عصر عمر بن عبدالعزيز ، أو عصر الرشيد أو عصر نور الدين وصلاح الدين .. لنرى تمسكاً بالدين أو رجعة إليه ، ونرى ثمارها عزاً وازدهاراً ، والعكس بالعكس فى عصور أخرى .

هـ ــ أن يكون محور التاريخ الإسلامى هو الإسلام نفسه دعوة ورسالة ، وأثره فى تربية الأجيال ، وتكوين الأمة المسلمة ، وإقامة الدولة الإسلامية ، وبناء الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية ، وتأثير الإسلام فى العالم كله ، وقدرته على الانتشار عند القوة ، والمقاومة عند الضعف ، واستطاعته التأثير فى الناس ليعتنقوه عن رضى واختيار ، كما تم ذلك مع السلاجقة والتتار ــ واختزانه أيضا كل أسباب الحيوية ، وطاقات القوة لإمداد أمة الإسلام بروح الجهاد ، وعنصر المقاومة .. لإثبات الذات واستعادة المجد .

وينبغي للداعية أن يركز على الحقائق التاريخية التالية :

١ ـــ يجب إبراز الجاهلية العالمية والعربية بكل أفكارها وتصوراتها ، ودعواتها ، وأساليبها .. بلا إفراط ولاتفريط .

ذلك أن النزعات التبشيرية ، والاستشراقية .. تريد أن تلبس الجاهلية الحاضرة لبوساً حسناً ، مضخمة ماكان لها من حسنات ، متغاضية عما عجت به من مثالب ، فقد طرب لذلك القوميون ، وخصوصا من العرب ، فحرصوا على عرض الجاهلية العربية مبرأة من كل عيب .. كما يبدو ذلك فى دراسة التاريخ والأدب ، وماسمى « المجتمع القبلى » متجاهلين كل التجاهل ماكان عليه العرب قبل الإسلام من فساد العقائد ، والأخلاق ، والأنظمة ، والتقاليد !! ورضى الله عن عمر الذى قال : « إنما تنقص عرى الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ فى الإسلام من لايعرف الجاهلية » .

وهذا بشرط ألا يمس ذلك ماتميزت به أمة العرب ولغة العرب ، وأرض العرب .. من خصائص ومزايا رشحتها لحمل الرسالة الإسلامية الخالدة إلى الناس ..

يقول الله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[1]

٢ ـــ ينبغى الاهتمام بحركات الإصلاح والتجديد فى تاريخ الإسلام ، وبرجال التجديد الذين يبعثهم الله تعالى بين حين وآخر ليجددوا لأمة الإسلام أمر دينها .

٣ ـــ كما يجب الالتفات إلى دور الإسلام ورجاله وأثره فى حركات المقاومة والتحرير التى ظهرت فى العالم الإسلامى ، منذ وطئت أرضه جيوش الاستعمار فرغم المكر الصليبى ، ومحاولات التخدير والتضليل .. لم يسلم الاستعمار من المقاومة الباسلة فى كل بلد دخله وأريقت الدماء ، وسقط الشهداء تلو الشهداء .. ولم تزل المقاومة على مر الزمن حتى كان التحرير ، وكان الإسلام وعلماؤه ودعاته . وراء هذا الجهاد للاستعمار بريطانياً كان أو فرنسيا أو إيطالياً ، أو أسبانياً ، كأمثال الشيخ ابن باديس فى الجزائر ، والشيخ عمر المختار فى ليبيا ، والشيخ العربى الدرقاوى فى المغرب ، والشيخ عزالدين القسّام فى فلسطين ، ومئات غيرهم ، وقد شهد بذلك مؤرخون غربيون مثل « برنارد لويس » فى كتابه « الغرب والشرق الأوسط » .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٤ .

وعلى الداعية أن يحذر فى المجال التاريخى أمرين هامين :

الأول : أن يحذر الروايات التاريخية التى دونت بلا تمحيص ولا تحقيق .

الثانى : على الداعية أن يحذر التفسيرات المشوهة للتاريخ من قبل أعداء الإسلام .

فى عصرنا اليوم الذى هو عصر الأهواء والعصبيات والتيارات الفكرية يتعرض تاريخنا الإسلامى لتفسيرات مشوهة مغرضة من قبل أناس قلبوا الحقائق وحرفوا الكلم عن مواضعه وإليك ، أخى الداعية ـــ نماذج من هذا القلب والتشويه ! .

فالمستشرقون والمبشرون .. حين يبحثون فى التاريخ يخدمون به فكرة بيتوها عن محمد ﷺ ودينه وأصحابه ، فمحمد عند هؤلاء ليس برسول الله ، والإسلام ليس بدين الله ، وأصحابه ليس إلا عصابات من المغامرين المتنافسين على الدنيا المتعطشين لإراقة الدماء ، المكرهين الأمم بالقوة على الإسلام .. لايعتقدون بدين سوى اليهودية والنصرانية ، أما الإسلام فى زعمهم فهو نسخة محرفة منهما ، وتعليم بشر ، حتى الحضارة الإسلامية فإنها طبق الأصل عن حضارة اليونان والرومان .. **﴿ ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾**(١) .

وفى سبيل هذا يغفلون أحداثاً قيمة ، ويضخمون أحداثاً تافهة ، ويعتمدون أخباراً ضعيفة أو مكذوبة يتصيدونها من اى كتاب ، ولو كان كتاب « الأغانى » للأصفهانى .

ويوجهون هذا كله توجيهاً مغرضاً مسموماً يؤيد اعتقادهم السابق عن الإسلام وكتابه ورسوله وأصحابه وأمته .. كأمثال المبشرين وجرجى زيدان وفيليب متى ، وسلامة موسى .

والماركسيون الشيوعيون .. يفسرون التاريخ ـــ وفقاً لفلسفتهم المعروفة ـــ تفسيرا ماديا طبقياً ، ويحاولون أن يطبقوا ذلك على نشأة الإسلام وظهوره ، ويسفون غاية الاسفاف ، ويحملون الوقائع والأحداث مالاتحتمل ويقسمون الصحابة ـــ رضى الله عنهم ـــ إلى يمين ويسار ، ويديرون صراعاً موهوما بينهم .

وكثيراً من كتاب المسلمين أنفسهم ـــ ويالالأسف ـــ يخلعون على حوادث التاريخ ، ومواقف رجاله ، ماعرفوه وخبروه من ألاعيب السياسة ، ومواقف رجالها فى هذا ..

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٠ .

ويتخيلون العلاقة بين عمر وخالد ، أو بين عثمان وعلى ، أو بين على ومعاوية وطلحة والزبير — رضى الله عنهم أجمعين — من أمثال العلاقة بين الطامحين والطامعين من رجالات الأحزاب وتجار السياسة فى عصرنا ، ويفسرون المواقف والأحداث تبعاً لهذا التصور الظالم ، المتجنى على هذا الجيل المثالى الذى لم يكتحل عين الدنيا برؤية مثله ، بل عقمت أم التاريخ أن تلد جيلاً مثل هؤلاء .

والقوميون من العرب .. يوجهون التاريخ الإسلامى كله وجهة قومية بحتة ، فالإسلام فى نظرهم انتفاضة عربية أو وثبة من وثبات العبقرية .. ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه بطل قومى جادت به أمة العرب على الإنسانية !! .

فمن الطبيعى بعد هذا التفسير المشوه للتاريخ أن يغدو أبطال الإسلام ، وعلماؤه ، ورجالاته الكبار على مدار الزمن فى نظر هؤلاء أبطالا عربا ، وأن تسمى الحضارة الإسلامية أيضا « حضارة عربية » وذلك لقطع الصلة بين العرب وبين الإسلام علماً بأنه لولا الإسلام لما كان للمسلمين فى التاريخ بطولات ولاحضارة ولاأمجاد — ورحم الله الفاروق القائل فيما رواه الحاكم ! « نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فمهما ابتغينا العزة بغير ماأعزنا الله به أذلنا الله » .

فعلى الداعية أن يحذر مثل هذه التشويهات والتفسيرات للتاريخ الإسلامى ، بل عليه أن يحذر الجيل المسلم من أن يقعوا فى شراكها ، ويتأثروا بمفاهيمها .

ثالثاً الثقافة اللغوية والأدبية :

وإذا كانت الثقافة الإسلامية لازمة للداعية فى الدرجة الأولى ، فإن الثقافة الأدبية واللغوية لازمة له كذلك ، لكونها مقومة للسان ، محسنة للتعبير ، محببة للسامع ..

واللغة بمفرداتها ونحوها وصرفها لازمة لسلامة اللسان ، وصحة الأداء ، وجودة التعبير .. فضلاً عن حسن أثرها فى السامع ، فالأخطاء اللغوية إن لم تحرف المعنى وتشوه المراد — يمجها الطبع ، وينفر منها السمع .

وانظر — أخى الداعية — كم يقشعر جلدك ، ويتأذى سمعك حين تسمع داعية ينصب المرفوع ، ويرفع المنصوب ، ولايفرق بين الفاعل والمفعول ، فلايكاد ينهى كلمة من كلماته إلا أصابك ذهول ووهلة ، أو لطمك — ولطم الخليل وسيبويه معك — لطمة أى لطمة !! .

مثال ذلك : ذكر القرطبى فى تفسير الآية الثالثة من سورة براءة أن أعرابيا قدم المدينة المنورة فقال : من يقرئنى مما أنزل على محمد ﷺ ؟ فأقرأه رجل سورة براءة حتى أتى الآية الكريمة ﴿ أن الله برىء من المشركين ورسوله ﴾[1] فقرأها عليه بالجر « رسوله » فقال أيضا أبرأ من رسوله !! فاستعظم الناس الأمر وبلغ عمر — رضى الله عنه — فدعاه فقال : ياأعرابى أتبرأ من رسول الله ﷺ ؟ فقال ياأمير المؤمنين : قدمت المدينة فأقرأنى رجل سورة براءة ، فقلت إن يكن الله بريئاً من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال عمر : ماهكذا الآية ياأعرابى قال : كيف ياأمير المؤمنين ؟! فقرأها عليه بالضم « ورسولُه » فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ مما برىء الله ورسوله منه ، فأمر عمر ألا يقرىء الناس إلا عالم بلغة العرب .

والأدب بشعره ونثره وأمثاله وحكمه ووصاياه وخطبه .. مهم جداً للداعية ، يثقف به لسانه ويجود أسلوبه ، ويرهف حسه ، ويقفه على أبواب من العبارات الرائقة ، والأساليب الفائقة ، والصور المعبّرة ، والأمثال السائرة والحكم البالغة ، ويفتح له نافذة على الروائع والشوامخ ، ويضع يده على مئات بل ألوف من الشواهد البليغة التى يستخدمها الداعية فى محلها فتقع من القلوب أحسن موقع وأبلغه وفى طليعة ذلك القرآن الكريم المعجز للبشر فى أسلوبه وبيانه ، وكذلك السنة النبوية التى تحاكى إعجاز القرآن الكريم فى جمال تعبيرها وبلاغتها .

ومما يؤكد هذه المعانى الشواهد التالية :

جاء فى الحديث الذى رواه أحمد وأبوداود : « إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة » .

وسمع النبى ﷺ الشعر من أكثر من شاعر واستجاده واستزاد منه ، وكان من أصحابه شعراء معروفون مثل : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة — رضى الله عنهم — وأذن ﷺ لحسان — رضى الله عنه — أن ينود عن الإسلام بلسانه وشعره ، ويرد عن رسول الله ﷺ هجو شعراء قريش وكان يقول له : « اهجهم وروح القدس معك ، إن كلامك أشد عليهم من وقع النبل » .

وروى مؤرخو الأدب كثيراً من الشعر للخلفاء الراشدين وخصوصا لعلى بن أبى طالب — رضى الله عنه — فقد روى عنه كثير من الشعر الجيد البليغ ، كما رووا أيضا لكثير غيرهم .

ومن لم يقل الشعر منهم فقد رواه ورغب فى روايته :

(١) سورة التوبة الآية (٣) .

فعن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال : « علموا أبناءكم السباحة والرماية وركوب الخيل ، ورووهم ماجمل من الشعر » .

وكان عبدالله بن عباس ــ رضي الله عنهما ــ من أروى الناس للشعر ، حتى حكوا أنه كان يحفظ رائية عمر بن ربيعة وكان يستند إلى الشعر فى تفسيره للقرآن ، كما يعرف ذلك من محاورته لنافع بن الأزرق .

وهذا يدلنا على مقدار ما للأدب عامة ، وللشعر خاصة من تأثير فى النفس البشرية ، كمايدلنا على أن العناية بالأدب ، والتضلع به ، والاطلاع على مصادره ، والحرص على ترديد فوائده ، والاستفادة منها عند الحاجة أمر لازم للداعية الناجح الموفق .

رابعاً : الثقافة الإنسانية :

ونعنى بها أن يلم الداعية إلماماً مناسباً بأصول مايعرف الآن باسم « العلوم الإنسانية » مثل : علم النفس وعلم الإجتماع ، وعلم الإقتصاد ، وعلم الفلسفة ، وعلم الأخلاق ، وعلم التربية وعلم الجغرافيا .

وإنما أوصينا الداعية بالإلمام بهذه العلوم لعدة أسباب :

ــ لأن موضوعها له علاقة وثيقة بموضوع الدعوة ، أو قل : إن موضوعهما واحد وهو الإنسان ... الإنسان فى الماضى أو الحاضر ، الإنسان فرداً أو مجتمعا ، الإنسان ريفياً او متحضرا ، الإنسان أمياً أو متعلما ، الإنسان مفكرا أو مقلداً ، الإنسان حيث كان وكيف يكون

ــ ولأن الإلمام بهذه العلوم يعين على فهم الناس ، وبخاصة الذين تثقفوا بهذه العلوم ، وأصبحت جزءاً من تكوينهم الفكرى ، وإعدادهم الثقافى ، والداعية مأمور شرعا أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ، وأن يبين لهم بلسان ثقافتهم ليفهموا عنه ، ولايستطيع ذلك مالم يكن بينه وبينهم قاسم مشترك من الثقافة ، ويقرب المسافة ، ويزيل الفجوة العقلية والنفسية بين عالم الدين والمثقفين بالعلوم الحديثة .

ــ ولأن لهذه العلوم فى كثير من الأحيان رشحات ضارة على الثقافة المعاصرة ، وسموماً تنفثها فى شتى المجالات ، لايكاد يسلم منها كتاب أو مجلة أو صحيفة أو إذاعة أو غيرها ، ومن لم يعرف مصادر هذه الرشحات والسموم لم يستطع أن يقاومها بأسلوب علمى رصين بل لعلها ــ فى بعض الأحيان ــ تتسلل إلى نفسه وتؤثر فى فكره وقلبه ولسانه وهو لايشعر ، ولهذا قيل : عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ..

والإمام الغزالى رحمه الله الذى سُمى بحجة الإسلام لو لم يكن عارفا بالفلسفة الإغريقية ، والفلسفة اليونانية ، وغيرهما من الفلسفات التى سادت فى عصره .. ولو لم يكن مطلعاً على سموم هذه الفلسفات وتأثيرها على الفكر الإسلامى وقتئذ لما أخرج لنا كتابه « تهافت الفلاسفة » الذى رد فيه على كثير من مفاهيم الفلسفة الباطلة . التى أثرت ببعض المسلمين .

وإليكم مثلا فيما يستفيده الداعية من دراسة هذه العلوم :

حينما يقف الداعية ليتحدث إلى الناس عن موضوع « أثر التدين فى بناء الأمم » مثلاً ، يمكن أن يستشهد بما قام به علماء النفس المحدثون من تجارب نفسية فى بناء الشخصية الإنسانية على أساس التدين والإيمان .

من هذه الشواهد : ماسجله الطبيب النفسى الأمريكى الكبير المشهور الدكتور « هنرى لنك » فى كتابه « العودة إلى الإيمان » وقد طبع كتابه إلى ماقبل سنوات — ٤٧ — مرة فى أمريكا ، وقد أجرى أكثر من (ثلاثة وسبعين ألف) اختبار نفسى على عشرة آلاف نفس ، خرج منها بنتيجة هامة هى : « أن كل من يعتنق ديناً ، أو يتردد على دار العبادة ، يتمتع بشخصية أقوى ، وهو أفضل ممن لادين له ، ولايزاول أية عبادة » .

ويستطيع الداعية بعد هذه الاستشهادات العلمية والتجارب الواقعية .. أن يرد على الذين يزعمون أن الدين أفيون الشعوب ، مخدر للشخصية الإنسانية ..

ومما يدعم هذا : ماقاله الفيلسوف الأمريكي الشهير « وليم جيمس » (أن أعظم علاج للقلق هو الإيمان حقاً ولاشك » .

ومن المؤيدات : مانقله « ديل كارينجى » عن الدكتور « أ.أ. بريل » قوله « إن المرء المتدين حقاً لايعانى مرضا نفسياً قط » .

ويعقب على ذلك « كارينجى » نفسه بقوله : « وعندى أن أطباء النفس ليسوا إلا وعاظاً من نوع جديد ، فهم لايحضوننا على الاستمساك بالدين توقياً لعذاب الجحيم فى الدار الآخرة فحسب ، وإنما يوصوننا بالدين توقيا للجحيم المنصوب فى هذه الدنيا : جحيم قرحات المعدة ، والانهيار العصبى والجنون والانتحار » .

وأريد فى هذا المجال — أخى الداعية — أن أقف قليلاً عند علم الفلسفة : إن الداعية

الواعى حين يلم بالفلسفة واتجاهاتها المادية والروحية ، والوضعية والمثالية وبتاريخ الفكر الإنسانى عامة والإسلامى خاصة يفيد من وراء دراستها جوانب عدة أذكر لك أهمها :

ـــ أن يتمكن من فهم الأفكار والفلسفات التى غزت كثيراً من عقول أبناء المسلمين اليوم ، وأصبح لهم دعاة وعلماء ومروّجون فى قلب ديار الإسلام من أساتذة الجامعات ، ورجال الأدب ، والثقافة والإعلام .. فهذا تقدمى ، وآخر ماركسى ، وثالث وجودى ، ورابع لامنتمى .. إلى غير ذلك من المدارس الغربية أو الشرقية ، الواقعية أو المثالية ، اليمينية أو اليسارية .. تختلف اتجاهاتها وتتفق على محاربة الإسلام .

فهذه المدارس لانستطيع مقاومتها فكرياً مالم نحسن فهمها وتصورها ودراستها .. وقديماً قال أهل النظر : « الحكم على الشىء فرع من تصوره » .

ـــ أن يتمكن من الرد على الفكر المخالف للإسلام بسلاح الفكر نفسه ، لأن الرد على المخالفين بأدلة القرآن والحديث لايصلح لهؤلاء إذ هم لايؤمنون بهما .

وهذا مافعله الإمام الغزالى ـــ رحمه الله ـــ فى كتابه « تهافت الفلاسفة » ومافعله شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابيه « نقض المنطق » و« درء تعارض العقل والنقل » .. ولولا هضم هذين الإمامين للأفكار الفلسفية فى عصرهما مااستطاعا نقضها من القواعد .

وهذا مايجب أن يصنعه كل داعية للإسلام مع الأفكار الوافدة الهدامة .

ـــ أن يعرف ـــ بدراسة تاريخ الفكر ـــ الأصول والمنابع لكثير من التيارات الفلسفية ، والمذاهب الفكرية الحديثة كالمادية ، والشيوعية ، والوجودية .. وهذا يعين الأخ الداعية على تقويمها ونقدها نقداً علميا مستوعباً كما يعرف الجذور التاريخية لكثير من التحريفات التى دخلت على الأديان الكتابية ذاتها كما يتضح ذلك من فكرة التثليث ، والصلب ، والفداء ، والبنوة لله وإلى ذلك يشير القرآن الكريم فى أهل الكتاب ﴿ **ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل** ﴾[1] .

ـــ أن ينتفع بما يجده من نتاج العقل ، وثمار الحكمة مؤيداً لما معه من حق خالص جاء به الوحى ، وفى الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجة « الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها » .

(١) سورة التوبة الآية ٣٠ .

أما عن علمى التربية والأخلاق :

فهما من العلوم الإنسانية التى ينبغى للداعية أن يلم بهما وتختص فلسفة الأخلاق بالبحث عن الخير والشر كما هو معلوم .

ومن الكتب النابغة فى علم الأخلاق :

« الفلسفة الخلقية » للدكتور توفيق الطويل .

« كلمات فى مبادىء علم الأخلاق » للشيخ الدكتور محمد عبدالله دراز .

« تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه .

« دستور الأخلاق فى القرآن » للشيخ الدكتور محمد عبدالله دراز .

ولابد للداعية أيضاً من الاستفادة بعلوم التربية وخبرات المربين ، وتجاربهم العديدة المتنوعة في مجالات تعليم الكبار والصغار ، والانتفاع من أصول التربية وطرائقها فى حسن توجيه المخاطبين ، وإيصال المعرفة إليهم وكيف يمكن التأثير فى عقولهم وعواطفهم ، وإثارة حوافز الخير فى نفوسهم ، ومطاردة نوازع الشر بين جنوبهم ، مع وجوب الاحتراز من النزعات الهدامة ، والشطحات المتطرفة فى الفلسفات التربوية الحديثة والمعاصرة والاستفادة أيضاً بما سطرته الأقلام الإسلامية ، وأبرزته فى كل مجال من مجالات التربية ، ومن الكتب النافعة فى هذا الباب :

« فلسفة التربية الإسلامية » للدكتور عمر الشيبانى . « فى أصول التربية الإسلامية » للدكتور عبدالغنى عبود . « منهج القرآن فى التربية » للأستاذ محمد شديد . « منهج التربية الإسلامية » للأستاذ محمد قطب . « تربية الأولاد فى الإسلام » للشيخ عبدالله ناصح علوان .

خامساً : الثقافة العلمية :

نعنى بكلمة « العلم » مفهومها الشائع : ماقام على الملاحظة والتجربة ، وخضع للقياس والاختبار أو بعبارة أوضح ماكان تحت نطاق الحس ، وتجارب المخبر ، مثل علوم الفيزياء ، والكيمياء ، والأحياء ، والفلك ، والطب ، والتشريح ، وغيرها .

ولانريد للداعية أن يتعمق فى دراسة هذه العلوم ، فإن هذا غير مقدور عليه ، والعمر لايتسع ، والطاقة لاتتحمل والمعارف لاتنتهى .

إنما نريد أن يطالع بعض الكتب الميسرة منها ، مما يعد لغير المتخصصين ، ولابد أنه درس طرفا من هذه العلوم فى المرحلتين : الإعدادية ، والثانوية دراسة تمكنه من متابعة الفكر العلمى ولو بقدر فيما بعد .

والثقافة العلمية ــ أخى الداعية ــ مهمة فى عصرنا للمثقفين عامة ، وللدعاة خاصة ، وذلك لعدة أسباب :

أ ــ إنها مهمة لفهم الحياة المعاصرة ، وقد أصبح العلم شريانها ، والمحرك لكثير من أمورها ، فما من بيت إلا دخلته آثار العلم الحديث من كهرباء ، وأجهزة وأدوات .. حتى بيوت العبادة ، ولايحسن بالداعية أن يعيش فى دنيا يسيرها العلم ، ويدير رحاها ، ولايدرك الأوليات والأساسيات لهذا العلم .

ب ــ إن بعض مايعزى إلى العلم يتخذ وسيلة للتشكيك فى الدين مثل : « نظرية النشوء والارتقاء » فى الكائنات الحية التى تعرف بنظرية التطور « لداروين » وغيره ، فلابد من معرفة الأدلة العلمية فى الرد على هذه النظرية حتى يستطيع الداعية أن يبين للناس حقيقتها وأدلة بطلانها علميا ، فلايتأثر بالدعايات الكاذبة .

ج ــ إن من الحقائق العلمية مايمكن للداعية استخدامه فى تأييد الدين ، وتوضيح مفاهيمه ، ونصر قضاياه ، والذب عنه ، بدفع شبهات خصومه ، ومفتريات أعدائه .

كيف يستخدم العلم فى تأييد الدين ؟

١ ــ عن طريق العلم يضع الداعية النقاط على الحروف فى الظواهر التى تدل على الله لمواجهة الماديين والملاحدة ، فيقيم الأدلة ، ويدحض الشبهات ، بوساطة فروع العلم المتنوعة ، من رياضيات ، وفلك ، وفيزياء ، وكيمياء ، وأحياء ، وطب وغيرها . كالاستشهاد بحقائق علمية أوردها « كريسنى موريسون » فى كتابه « العلم يدعو إلى الايمان » وأوردها ثلاثون عالما امريكياً فى كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » ، وأوردها الدكتور أحمد زكى فى كتابه « مع الله فى السماء » . وأوردها الشيخ « سعيد حوى » فى كتابه « الله جلّ جلاله » وكتب كثيرة غيرها .

٢ ــ عن طريق العلم يستطيع أن يؤيد الداعية كثيراً من الأحكام الشرعية ، ببيان

ماشتملت عليه من جلب المصالح للناس ، ودرء المفاسد عنهم .. وبذلك يزداد الذين آمنوا إيمانا ، ويثبت المرتابون إن حصل لهم شك فى كمال الشريعة ، وصلاحيتها للزمن .

فمثلاً يستطيع علم الطب أن يعطينا صورة واضحة لما تجنيه « أم الخبائث الخمر » على شاربها من أضرار جسمية ونفسية وعقلية .. على الفرد والمجتمع ومثل ذلك المخدرات ، والتدخين ، وأكل لحم الخنزير ، والزنا .. وكذلك يستطيع علم الأحياء ، ووظائف الأعضاء وعلم الطب وغيره ، أن يبين لنا حقيقة الفوارق الفطرية بين الذكر والأنثى ، وأن هذا التفاوت لم يكن عبثاً وأنه من الخير لكلا الجنسين ، وللجماعة كلها .. أن يكون لكل منهما عمله الذى يتناسب مع حدود استطاعته وقابلية فطرته .

٣ ـــ ثمت مجال آخر يمكننا فيه استخدام حقائق العلم الحديث لتأييد حقائق الدين ، وذلك بتعميق مدلولات بعض النصوص ، وتوسيع نطاق مفهومها ، وزيادة توضيحها :

ـــ فإذا قال القرآن الكريم عن النحل ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾[1] يستطيع عالم الأحياء ، أو الطب ، أو الأغذية .. أن يحدثنا بسعة عن عسل النحل وألوانه ، ومافيه من شفاء ؟ وفيم يكون ؟ وكيف يكون ؟ .

ـــ وإذا قال تعالى ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾[2] أو قال ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديرا** ﴾[3] أمكن للعلم هنا بشتى فروعه أن يفيض فى بيان دقة التقدير فى كل ماخلق الله فى الكون : فحجم الكرة الأرضية ، وبعدها عن الشمس بمسافة محدودة كذلك ، واشتمالها على كمية المياه فى بحارها ومحيطاتها بهذا المقدار ، ووجود الغازات فيها بنسب ومقادير معلومة .. وغيرها .

كل ذلك يدل على روعة التقدير الإلهى ، والنظام الكونى لكل ما فى الكون من مخلوقات وبهذا يستطيع الداعية أن يعمق فى عقول الناس وقلوبهم هذه المعانى الرائعة .. فيزدادوا بها إيمانا ويقيناً .

---

(١) سورة النحل الآية (٦٩) .
(٢) سورة القمر الآية (٤٩) .
(٣) سورة الفرقان (٢) .

سادساً : الثقافة الواقعية

ومن أهم مايلزم الداعية أن يتسلح بسلاح الثقافة الواقعية ، ونعنى بها : الثقافة المستمدة من واقع الحياة الحاضرة ، ومايدور به الفلك فى دنيا الناس الآن .. فى داخل العالم الإسلامى وخارجه .

ومن هنا يجب على الداعية فى عصرنا أن يدرس :

١ ـــ واقع العالم الإسلامى : بمعرفة خلاصة مركزة عن أوضاعه الجغرافية والإقتصادية ، والسياسية ، وتوزيع سكانه ، وأسباب تخلفه وتفرقه ، وعوامل تقدمه ووحدته ، وإمكانات تكامله اقتصاديا ، وتضامنه سياسياً وعسكرياً فضلاً عن تقاربه إجتماعيا وثقافياً ، أضواء على فكرة « الجامعة الإسلامية » أو « الكتلة الإسلامية » أو « التضامن الإسلامى » باعتباره خطوة عملية فى طريق « الخلافة الإسلامية » مشكلات الأقليات والأكثريات الإسلامية المضطهدة فى الفلبين ، فى قبرص ، فى أريتريا ، فى الحبشة ، فى الإتحاد السوفيتى ، فى أوروبا الشرقية ، فى البانيا ، فى يوغسلافيا ، فى الصين ، فى الهند .

أخذ فكرة عن اندلاع الثورات الاسلامية فى عدة مناطق فى المجتمع الاسلامى للانتصار على الأنظمة الكافرة من شيوعية واشتراكية .. كما يحدث فى أفغانستان وسوريا والفلبين .

٢ ـــ واقع القوى العالمية المعادية للإسلام :
وتتمثل هذه القوى فى المثلث الرهيب : اليهودية العالمية ، والصليبية العالمية ، والشيوعية الدولية ، وهى قد تختلف فيما بينها مبدءاً وسياسة لكنها متفقة علينا معاداة وتآمراً .
لابد من دراسة الأسباب والدوافع من وراء كيدها لنا : الحقد ، الطمع ، الخوف ، الاستعلاء ، التسلط .

ولابد من معرفة وسائلها فى حربنا المتمثلة فى الحرب السياسية ، فى الحرب الاقتصادية ، فى الحرب الفكرية ، خطورة هذه الحرب الأخيرة ، وأساليبها ، وأجهزتها التبشير مؤسساته وإمكاناته الهائلة الغارة النصرانية على العالم الاسلامى ، والصراع بين الإسلام والتبشير فى إفريقيا ، التخطيط لتنصير أندونيسيا أكبر بلد إسلامى ، محاولات التنصير فى

العالم العربى ، التعاون بين التبشير والاستعمار وكذلك الارتباط بين التبشير والشيوعية أخيراً .

ولابد من معرفة الاستشراق : أهدافه ووسائله ، إسهامه فى إحياء التراث ، كتابات المستشرقين عن الإسلام ومدى علميتها ، المنصفون والمتحاملون من المستشرقين ، سموم الفكر الاستشراق وآثارها فى عالمنا العربى والإسلامى من تلاميذ المستشرقين .

ـــ ولابد من معرفة الغزو الشيوعى : عن طريق الخبراء والمساعدات ، والمؤسسات الثقافية ، والبعثات التعليمية والتدريبية إلى البلاد الشيوعية ، وتأييد الأحزاب الشيوعية فى الدخل بالتمويل والتوجيه والعمالة .

ـــ ولابد من معرفة المؤسسات المشبوهة : الماسونية ، وماتفرع عنها : خطرها وأساليبها الماكرة ، وتغلغلها فى الطبقات الاستقراطية ، وأصحاب الجاه والسلطان ، وتسيير اليهودية العالمية لها بالخفاء للوصول إلى أغراضها ومخططاتها

ولابد من معرفة الغزو من الداخل : عن طريق العملاء ، وعبيد الفكر الغربى ، والأحزاب الموالية من ليبرالية ، ويسارية ، من احتضان الفرق المنشقة عن الإسلام كالقاديانية والإسماعيلية .. وغيرها من الفرق الباطنية الكافرة .

وينبغى هنا التنبيه على أمرين هامين :

أ ـــ عدم التهويل أو التهوين من شأن القوى المعادية ومخططاتها حتى لايؤدى ذلك إلى اليأس من مقاومتها .. أو الاستهانة بها والسكوت عليها .

ب ـــ الاستفادة من الصراع القائم بينها بذكاء ودهاء واستغلال الفرص المناسبة لذلك ، كالصراع بين روسيا والصين ، وقد كان السلف يقولون : اللهم أهلك الكافرين بالكافرين وأخرجنا من بينهم سالمين .

٣ ـــ واقع الأديان المعاصرة : معرفة اليهودية : توراتها المنحرفة ، وتلمودها الرهيب ، ونظرتها إلى الأميين (أى الأمم غير اليهودية » ، وانعكاس ذلك على الحركة الصهيونية وقيام إسرائيل . ومعرفة « المسيحية » طوائفها ، وكنائسها المختلفة ومابينها من صراع ، محاولات التقارب بين بعضها بعضا ، محاولات تقربها من اليهودية ، وثيقة الفاتيكان بتبرئة اليهود من دم المسيح (عليه السلام) ، محاولات مايسمى « التقارب الإسلامى المسيحى » وأبعادها وأهدافها .

ومعرفة « أديان الشرق الأقصى الكبرى » مثل : « الهندوكية » ومدى انتشارها فى بلاد الشرق الأقصى وأثرها فى حياة اتباعها .

٤ ـــ واقع المذاهب المعاصرة : ماأكثر المذاهب السياسية فى عصرنا الحاضر ، وماأكثر مدارسها واختلاف تطبيقاتها ، وتعدد مناهجها ! .

نرى ذلك فى النظرية « الشيوعية الماركسية » ومدى اختلافها فى تطبيق « لينين » وخلفائه فى روسيا عن تطبيق « ماو » فى الصين بل الخلافات التى وقعت بين « ستالين » ومن بعده « خروشوف » إلى « بريجنيف » .. وهذا يؤكد عجز الشيوعية عن تحقيق فلسفتها الخيالية فى مساواة الدخول ، وزوال الدول ، وإشتراكية المال .. ويؤكد هذا تخلى بعض زعماء الشيوعية فى أوروبا الغربية عن بعض المفاهيم الأساسية للماركسية كنظرية الصراع الطبقى .

هذا عدا عن موقف الشيوعية عن الأديان عامة ، والإسلام خاصة ، وموقفها من القيم الأخلاقية وموقفها من الحريات .. فإنها معروفة لدى جميع الناس .

ونرى ذلك فى « الرأسمالية » المعاصرة ، ومدى مغايرتها للرأسمالية فى بداية نشأتها ، ويجب أن يتعرف الداعية : على الرأسمالية فى أمريكا ، وأوربا ، واليابان ، وعلى آثار الرأسمالية الآن وموقفها من الدين ، وعلى معنى قيام أحزاب ديمقراطية مسيحية فى اوروبا .

ونرى ذلك فى « الاشتراكية » وكثرة مدارسها ، واختلافها فيما بينها من إصلاحية إلى علمية والجامع بين الاشتراكيات المختلفة ، والفرق بين الاشتراكية والشيوعية ، والاشتراكية وموقفها من الدين ، ومعنى قيام أحزاب اشتراكية مسيحية فى أوروبا .

ونرى ذلك فى « الديمقراطية » وكثرة مدارسها واختلافها فيما بينها ، وادعاء كل من الشيوعية والرأسمالية والاشتراكيين لها ، وديمقراطية الصراع السياسى أو الاجتماع السياسى ، أو التحالف السياسى ، وكذلك أزمة الديمقراطية فى العالم .

ونرى ذلك فى « الدكتاتورية » وكثرة مسمياتها واختلافها فيما بينها ، وأنواعها : من دكتاتورية الفرد إلى دكتاتورية الطبقة إلى دكتاتورية الحزب .. وكذلك التعرف على التجربة الفاشية والنازية ، وأيضاً التعرف على أحوال الدكتاتوريات فى عالمنا المعاصر ولاشك أن توقف الإسلام من هذه المذاهب المعاصرة نسيج وحده ، ماوافق الاسلام

منها فى شيء خالفه فى أشياء كثيرة ـــ تميز الاسلام عنها فى خصائصه ، فى غاياته ، فى وسائله ، فى الدقة فى تطبيقه .

ومن الخطأ الفادح إضافة الاسلام إلى مذهب أو تسمية أنظمة الاسلام بمسميات هذه المذاهب كأن تقول « ديمقراطية الاسلام » و« اشتراكية الاسلام » .

وعلينا أن نعلم أى جناية نجنيها على ديننا وأمتنا حين نضع الحلول المستوردة موضع الأنظمة الاسلامية المتميزة . يجب أن يؤمن جيل الاسلام اليوم بحتمية الحل الإسلامى ، وخلود الشريعة الإسلامية على مدى الزمان ولأن الإسلام دين الله الخالد الشامل المتجدد العالمى .. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾[1].

٥ ـــ واقع الحركات الإسلامية المعاصرة : يجب على الداعية أن يتعرف على الحركات العالمية ، والحركات الإقليمية ، والحركات الجزئية ، والحركة الشاملة فى العالم الإسلامى وأهم هذه الحركات : حركة الإخوان المسلمين الممتدة فى (١٥) دولة من دول العالم الإسلامى ، وحركة الجماعة الاسلامية فى باكستان ، والهند ، وحركة « ماشومى » فى أندونيسيا ، والحركة الاسلامية فى تركيا ، والحركة الاسلامية فى افغانستان ، وحزب التحرير الاسلامى فى الأردن وفلسطين ، وحركة التبليغ الإسلامى فى مناطق عدة من العالم .

ويجب أن يتعرف أيضاً على أهمية الجامعات والمعاهد الاسلامية ، ووظيفتها ، وعلى دور وزارات الأوقاف ، والشئون الإسلامية وارابطة العالم الإسلامى ، والندوة العالمية للشباب المسلم ، وغيرها من المؤسسات فى نشر الدعوة الاسلامية ، وأخيراً على دور الدعاة المرشدين وأثرهم فى تبليغ رسالة الاسلام .

٦ ـــ واقع التيارات الفكرية المعارضة للإسلام : مثل التيار اليسارى أو الماركسى ، وهو تيار مادى النظر ، إلحادى الفكرة ، موال للمعسكر الشيوعى .

التيار الليبرالى ، وهو تيار استعمارى النظرة والفكرة الموالى للمعسكر الغربى ، ويمثله كتاب وصحف وأحزاب .. وهو تيار علمانى لادينى .. التيار القومى (القومية العربية ، أو الطورانية ، أو الفارسية ، أو الكردية .. ونحوها) ، وهو تيار علمانى أيضاً ينادى دعاته بفصل الدين عن الدولة .

---

(١) سورة المائدة الآية (٥٠) .

٧ ــ واقع الفرق المنشقة على الإسلام : وأبرزها وأخطرها البهائية والقاديانية . أما البهائية فهى دين جديد مخالف للإسلام كل المخالفة ، ولايزعم دعاتها أنفسهم أنهم من الإسلام وإن نشأت أول مانشأت فى أرض الإسلام .

وأما القاديانية فهى فرقة مارقة تدعى نبوة جديدة بعد أن ختمت بنبوة محمد ﷺ وهذه تحاول جاهدة أن تلتصق بالإسلام ، وأمة الإسلام ، والمسلمين منها براء .. وكلا الفرقتين تحظى بمساندة القوى العالمية المعادية للإسلام .

وأريد أن أنبه بأن هناك فرقاً باطنية منبثة فى العالم الاسلامى والعربى هنا وهناك ، وكلها حرب على الإسلام وأهله :

فرق تقول : بألوهية على ــ رضى الله عنه ــ وعصمة الأئمة .

وأخرى تقول : بألوهية أغاخان ، واستباحة المحرمات وشيوعية النساء والأموال .

وثالثة تقول : بألوهية الحاكم بأمر الله ، وإسماعيل الدرزى ، واستباحة المحرمات .

ورابعة تقول : بالدهرية ، وأساسها إنكار الخالق ، ونبذ الأديان .

إلى غير ذلك من الاعتقادات الباطلة ، والمبادىء الكافرة التى تأصلت فى كثير من الفرق والملل والتى تعود جذورها ــ عند الأكثر منهم ــ إلى أصول يهودية .

٨ ــ واقع البيئة المحلية :

وعلى الداعية أن يدرس أيضا البيئة التى يعيش فيها ، ويعرف أوضاعها وتقاليدها ، ويتعمق فى فهم مشكلاتها ، ونفسيات أهلها ومايؤثر فيها وأن يعرف أيضا أسلوب العمل الذى يتفق مع عقلية الناس واستعدادتهم ومستوى تفكيرهم ، ومبلغ استجابتهم وتقلبهم وتأثرهم .

فبلد انتشرت فيه الشيوعية أو الوجودية أو الاشتراكية مثلاً ، وأصبحت عند أهله انحرافات فكرية ، وعقدية وخلقية .. مثل هذا البلد تختلف الكتب التى ينبغى أن تنشر فيه ، ونوعية المحاضرات التى تحاضر فيه ــ تختلف كليا عن بلد فيه نصارى ، وعن بلد فيه أفكار رأسمالية ، وعن بلد فيه نزعة إلى الحرية والديمقراطية .

ولابد من معرفة شاملة للمنحرفين .. ولابد من تخطيط شامل ، وأسلوب مناسب ، منسجم مع هذا وذاك .. كما على الداعية أن يعرف لغة هذه البيئة التى يدعوها إلى الله ،

ليكلمهم بلسانهم ، قال تعالى ﴿ وماأرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ .

ولهذا نرى معرفة اللغات الحية . أو لغة منها على الأقل ــ ضرورة للداعية فى عصرنا اليوم ، وقد ثبت أنه ﷺ أذن لبعض أصحابه بأن يتعلموا بعض اللغات فى عصرهم !! .

تلكم لمحات خاطفة لما ينبغى أن تقوم عليه ثقافة الواقع ولايخفى أن هذه الثقافة لاتستمد من الكتب وحدها فهى ثقافة نامية متجددة مستمرة ، يمكن للداعية أن يجدها فى الصحف ، والمجلات ، والنشرات ، وبطون كتب المطالعة .

والداعية ذو العقل اليقظ ، والحس المرهف .. يستطيع أن يأخذ مدداً جديداً من كل ماحوله من وقائع الحياة اليومية من أخبار الصحف ، ووكالات الأنباء ، وتعليقات المعلقين ويمكنه أن يعد لذلك سجلاً ، أو إرشيفاً فيه مايهمه من هذه الوقائع والأخبار ، ويصنفها ويضعها عند الحاجة فى مكانها ، فإن أحداث اليوم هى تاريخ الغد الذى يدرسه الدارسون ، ويحلّله الناقدون ويعتبر به المعتبرون .

على أن لهذه الأخبار والأحداث مزيّة على الأحداث والأخبار الماضية ، وهى جدتها ، وحضورها فى الأذهان ، والانفعال العاطفى .. ولهذا يكون لها أبلغ الوقع والتأثير !! .

بل يستطيع الداعية أن يتلقى معلوماته عن الواقع من مصادره الحية المباشرة ، بلقاء الناس ومخالطتهم ومشاهدة أحوالهم ، والاستماع إلى أحاديثهم فى الحضر والسفر ، فإن السفر نصف العلم ، ولهذا كان علماؤنا الأولون أكثر الناس ترحالاً فى طلب العلم من أهله فى مواطنهم.

تلكم ــ إخوتى الدعاة ــ أهم المعالم الأساسية فى تبيان الوسائل لإعداد الداعية ثقافياً ، وتكوينه علمياً وتهيئته حركياً ودعوياً .

وبدون هذه الثقافة الشاملة لايمكن للداعية بحال أن يعطى غيره ، وينفع أمته ، ويصلح مجتمعه ويعالج آفات القلوب ، ولايمكنه أيضاً أن يكون داعية موفقاً ناجحاً ، له فى الأمة أثر ، وفى الناس محبة وإجلال .

(١) سورة إبراهيم الآية ٤ .

فاحرص ــ أخي الداعية ــ أن تتزود بهذه الثقافات النافعة لتكون فى المجتمع منارة دعوة ، وفى الأمة بدر وإصلاح ، وفى الإنسانية شمس هداية ، ولاشك إنك إن أخلصت وثابرت وبلّغت فالله سبحانه وتعالى يحقق على يديك ، وتبنى ــ بعون الله ــ مجد الإسلام على ساعديك فتعتز أمة الإسلام بعد ذل ، وتغتنى بعد فقر ، وتتوحد بعد فرقة ، وتتآخى بعد عداوة ، وتعود ــ بإذنه تعالى ــ خير أمة أخرجت للناس ، وماذلك على الله بعزيز .

آداب الداعى إلى الله تعالى مع السـامعين

وهى كثيرة من أهمها ، وهو من دقائق هذه الصنعة ، أن يصرف من يريد إرشاده عن الرذيلة إلى الفضيلة بتلويح فى المقال ، وتعريض فى الخطاب ماأمكن فالتعريض فى ذلك أبلغ من التصريح ، فإن التأمل فيه إذا أداه إلى الشعور بالمقصود منه كان أوقع فى نفسه ، وأعظم تأثيراً فى قلبه ، وأدعى إلى التنبه للخطأ مع مافيه من مراعاة حرمة المخاطب بترك المجاهرة بالتوبيخ ـــ وأيضاً التعريض لاتنتهك به سُجُف الهيبة ولايرتفع معه ستر الحشمة ، أما صريح التوبيخ والتقريع الشديد العنيف فقد يورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار والبقاء على ماليم عليه لاسيما النفوس المنطوية على الكبر .

ألا ترى قوله تعالى فى شأن ذلك الرجل الغيور على دين الله والدعاة إليه ﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لايسألكم أجراً وهم مهتدون** ﴾[1] لما سمع بخبر الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وإنكار القوم لهم حضر مسرعاً ودعاهم إلى اتباع هؤلاء الرسل برفق ولين ، تأليفا لقلوبهم ، واستمالة لها نحو قبول النصيحة ، ووصف المرسلين بما يرغبهم فى اتباعهم من التنزه عن الغرض الدنيوى . والاهتداء إلى خير الدين والدنيا ، ثم أبرز الكلام فى معرض النصيحة لنفسه[2] ، وهو يريد مناصحة قومه فقال ﴿ **ومالى لاأعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون** ﴾ أى أى مانع من جانبى يمنعنى من عبادة الذى خلقنى ، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم الى عبادة غيره ، كما ينبىء عنه قوله : ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾[3] مبالغة فى التهديد على وجه لطيف ، ثم

---

(١) سورة يس الآيتان ٢٠ ، ٢١ .
(٢) سورة يس الآية ٢٢ .
(٣) سورة يس الآية ٢٢ .

عاد إلى المساق الأول لقصد التأكيد ، وزيادة الإيضاح فقال ﴿ **أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولاينقذون إنى إذا لفى ضلال مبين** ﴾[1] فوجه الإنكار إلى نفسه وهو يريدهم به ، أى لاأتخذ من دون الله آلهة وأعبدها ، وأترك عبادة من يستحق العبادة وهو الذى فطرنى ، مبينا حال هذه الأصنام التى يعبدونها من دون الله سبحانه إنكاراً عليهم ، وبياناً لضلال عقولهم ، وقصور إدراكهم ، لأنى إذا فعلت ذلك أكون ساقطا فى وهدة الضلال الذى لاشك فيه ، فإن اشراك ماليس من شأنه النفع ، ولادفع الضر ، بالخالق المقتدر الذى لاقادر غيره ، ولاخير إلا خيره ضلال واضح وخسران مبين ، وهذا تعريض بهم . هذا سبيل الحكمة فاسلكه والله تعالى الموفق للصواب .

ومنها : التلطف فى القول والرفق فى المعاملة مع تحرى الإقناع ، فلهذا شأنه فى نجاح المرشد فى مقام الدعوة إلى الخير ، والقرآن يرشد إلى ذلك فى مواضع كثيرة ، تأمل قوله تعالى ﴿ **وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾[2] أى أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين ليسكن شغبهم وتلين عريكتهم ، وهذا بالنسبة للمعاندين المجادلين بالباطل . وقوله تعالى ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** ﴾[3] أى وإن أحد الفريقين من الموحدين والمشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال الواضح ـــ فإن هذا بعد ماتقدم من التقرير البليغ الناطق بتعيين من هو على الهدى ، ومن هو فى الضلال أبلغ من التصريح بذلك لجريانه على سنن الإنصاف المسكن للخصم الألد .

والسر فى ذلك أن النفوس جبلت على الميل إلى العظمة وحب الكرامة ، وشبت فى الغالب على الأنفة والرعونة ، ونشأت على التقيد بالإلف والعادة فمن أراد صرفها عن غيها إلى رشادها ، وحاول الخروج بها عن مألوفاتها وعاداتها ولم يمزج مرارة الحق بحلاوة التلطف ، ولم يسهل صعوبة التكليف بطلاوة الرفق واللين ، كان إلى الانقطاع أقرب منه إلى الوصول ، ودعوته أجدر بالرفض من القبول وكان كمن رام أن يطهر ثوبا من الدنس فأوقد فيه ناراً فأحرقته ـــ ألا ترى قوله تعالى ﴿ **فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾[4] فإنه يفيد أن لين القول محل رجاء التذكر والاتعاظ ، والمعد للنفوس للخوف والانزجار .

(١) سورة يس الآيتان ، ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) سورةالنحل الآية ١٢٥ .
(٣) سورة سبأ الآية ٢٤ .
(٤) سورة طه الآية ٤٤ .

وروى أبو أمامة أن غلاما شابا أتى النبى ﷺ فقال : يانبى الله أتأذن لى فى الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبى ﷺ « أتحبه لأمك ؟ قال : لا جعلنى الله فداءك ، قال كذلك الناس لايحبونه لبناتهم ، أتحبه لأختك ؟ وزاد بن عوف أنه ذكر العمة والخالة وهو يقول فى كل واحدة لا ، جعلنى الله فداءك ، فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه ، وحصن فرجه ، فلم يكن شيء أبغض إليه منه ، يعنى الزنا » (رواه أحمد بإسناد جيد ورجاله رجال الصحيح) .

ومنها أن يذكره بخير ، ويصفه بجميل ، كأن يبين ماله من حسب ، ومافيه من فضل ، وماعليه من نعمة ، ليجذب قلبه إليه ، ويعدّه بذلك لقبول الموعظة .

ألا ترى قوله تعالى ﴿ **يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ، واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئاً ولايقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون** ﴾[1] حيث ناداهم باسم أبيهم يعقوب الذى هو أصل عزهم ومجدهم ، ومنشأ تفضيلهم وطلب منهم أن لاينسوا نعمته عليهم بشرائعه ورسله وتفضيله إياهم على العالمين بالنبوة والملك ولم يعرف شعب من الشعوب يزاحمهم فى هذه المزية إحياء لشعور الكرامة والفضل فى نفوسهم ، ثم حذرهم يوما عظيما سيقع فيه من الأهوال مالا منجاة منه إلا بتقوى الله سبحانه فى كل الأحوال ، ومراقبته تعالى فى جميع الأعمال .

وقوله تعالى ﴿ **ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً** ﴾[2] فإنه تعالى بعد أن امتن على بنى اسرائيل بإيتاء موسى التوراة لهدايتهم به ، ونهاهم عن أن يتخذوا رباً غيره تعالى يكلون إليه أمورهم ، ناداهم بهذا العنوان ليحملهم على التوحيد والطاعة بتذكير انعامه عليهم ضمن إنجاء آبائهم من الغرق فى سفينة نوح عليه السلام الذى أثنى عليه بأنه كان عبداً كثير الشكر له تعالى فى جميع حالاته وفى ذلك إعلام لهم بأن إنجاء من معه كان ببركة طاعته عليه السلام لربه ، وحث للذرية على الاقتداء به ، وزجر لهم عن الشرك الذى هو أقبح أنواع الكفران .

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٣ .

وهذا أسلوب حكيم فى الدعوة فينبغى للداعى أن يبدأ بإحياء إحساس الشرف وشعور الفضل والكرامة فى نفوس المخاطبين ، لتستعد بذلك لقبول النصيحة وتتغلب بهذا الإحساس ، وذلك الشعور على عوامل الهوى والغواية ، فإن النفس إذا عرفت علوها ، واستشعرت كرامتها ، وسمعت مالى الرذائل من الخسة حملها ذلك الشعور (شعور الرفعة والكرامة) على النفرة من التسفل بارتكاب تلك النقائص ، وكان ذلك من أحكم الوسائل إلى مساعدة المرشد على بلوغ غرضه من نفوس السامعين .

ومنها : أنْ يكون له فراسة يتوسم بها حال السامعين ليعرف مبلغ طاقتهم وقدر استحقاقهم وإقبالهم على الانتفاع ، ليعطيهم مايتحملون ، ويمسك عما لايطيقون ويوجز إذا خشى الانصراف أو رأى عليهم مللاً وسآمة :

أخرج البخارى عن ابن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ قال كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا :

وإذا كان المرشد بهذه الصفة لم يضع له عناء ولم يخب على يديه أحد ، وإن لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم كانوا وإياه فى عناء مكد . وتعب غير مجد . فإنه لايعدم أن يكون منهم ذكى يحتاج إلى الزيادة وقاصر يكتفى بالقليل ، فيضجر الذكى ويعجز القاصر ، ومن تردد أصحابه بين عجز وضجر ملوه وملهم .

وعلى الجملة فخير المرشدين الفطن الذى لايقل ولايمل والله الموفق للصواب .

مايلزم المرشد اجتنابه

ومما يلزم المرشد اجتنابه التحدث مع العوام بما لاتفهمه ولاتعقل معناه . فذلك وضع الحكمة فى غير موضعها وهو ظلم ـــ فسامعها إما أن يفهمها على غير وجهها وهو الغالب ، وهو فتنة تؤدى إلى العمل الباطل والتكذيب بالحق ، وإما أن لايفهم منها شيئاً وهو أسلم ، ولكن المحدث لم يعط الحكمة حقها من الصون بل صار فى التحدث بها معهم كالعابث بنعمة الله تعالى ـــ ثم إن ألقاها لمن لايعقلها فى معرض الانتفاع بعد تعقلها كان من قبيل التكليف بما ليس فى الوسع ـــ وقد جاء النهى عن ذلك : أخرج أبوداود أن رسول الله ﷺ « نهى عن الغلوطات » قالوا وهى صعاب المسائل أو شرارها .

وقالوا فى العالم الحكيم : إنه هو الذى يربى بصغار العلم قبل كباره ـــ وقد ترجم على ذلك الإمام البخارى فقال « باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا » وأخرج موقوفا على عليٍّ ـــ رضى الله عنه ـــ أنه قال : حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ماينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله » .

وأخرج مسلم مرفوعا عن ابن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ « ماأحد يحدث قوما بحديث لاتبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم » وذلك أن يتأولوه غير تأويله ويحملوه على غير وجهه وهو فتنة تؤدى إلى التكذيب بالحق وإلى العمل بالباطل .

وقال عيسى عليه السلام : لاتضعوا الحكمة فى غير أهلها فتظلموها ، ولاتمنعوها أهلها فتظلموهم كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء موضع الداء » .

وقال بعض العارفين : من كلم الناس بمبلغ علمه وبمقدار عقله ، ولم يخاطبهم بقدر حدودهم فقد بخسهم حقهم ، ولم يقم بحق الله تعالى فيهم ، ولذا قيل : كِلْ لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار فليحذر المرشد الشطح بكلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائعة معجبة ، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل ولامنها فائدة .

وبالجملة ينبغى أن لايفتح للعوام باب البحث والجدال فإنه ضياع لهم ، وليس من الحكمة فى شىء والله الهادى إلى سواء السبيل .

ومما لايجوز له .. الخوض فى دقائق علم الكلام كخلق الأفعال وآيات الصفات ، مخافة اختلال يتطرق إلى عقائد العامة يصعب عليهم الخلاص منه ، بل الصواب لهم الاقتصار فى أمر العقائد وواجب الإسلام على أن يملأ قلوبهم بالتصديق الجازم بكل ماجاء به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقبوله والإذعان له ، تصديقاً سليماً من كل شك بالمقدار الذى نطق به الكتاب وصحت به السنة ، ولايتعين على من حصل له هذا تعليم أدلة المتكلمين ـــ قال النووى رضى الله عنه ـــ هذا هو الصحيح الذى أطبق عليه السلف والفقهاء والمحققون من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم فإن النبى ﷺ لم يطالب أحداً بشىء سوى ماذكرناه وكذلك الخلفاء الراشدون ومن سواهم من الصحابة فمن بعدهم من الصدر الأول بل الصواب للعوام وجماهير المتفقهين والفقهاء الكف عن الخوض فى دقائق الكلام مخافة من اختلال يتطرق الى عقائدهم يصعب عليهم إخراجه بل الصواب لهم الاقتصار على ماذكرناه من الاكتفاء بالتصديق الجازم .

ثم قال النووى : واختلفوا فى آيات الصفات وأخبارها هل يخاض فيها بالتأويل أم لا ؟ فقال قائلون تتأول على مايليق به . وقال آخرون يوكل علمها إلى الله تعالى ويعتقد مع ذلك تنزيه الله تعالى وانتفاء صفات الحادث عنه : فيقال مثلاً نؤمن بأن الرحمن على العرش استوى ولا نعلم حقيقة معنى ذلك ، والمراد به مع أنا نعتقد أن الله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[1] وأنه سبحانه منزه عن الحلول وصفات الحدوث وهذه طريقة السلف أو جماهيرهم وهى أسلم إذ لايطالب الإنسان بالخوض فى ذلك والمخاطرة فيما لاضرورة بل لاحاجة إليه فإن دعت الحاجة إلى التأويل لرد مبتدع ونحوه تأولوا حينئذ . وعلى هذا يحتمل ماجاء عن العلماء فى هذا والله أعلم . .

(مستفاد من مقدمة المجموع للنووى) .

وقال الإمام الشاطبى — رحمه الله — فى كتابه الموافقات :

« كل مسألة لاينبى عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعى ، وأعنى بالعمل عمل القلب والجوارح ، من حيث هو مطلوب .

والدليل على ذلك استقراء الشريعة : فإنا رأينا الشارع يعرض عما لايفيد عملاً مكلفا به فقد قال تعالى بعد سؤالهم عن الساعة ﴿ أيان مرساها ﴾[2] ؟ ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾[3] أى أن السؤال عن هذا سؤال عما لايعنى ، إذ يكفى من علمها أنه لابد منها ، ولذلك لما سئل رسول الله ﷺ عن الساعة قال للسائل : « ماأعددت لها » إعراضاً عن صريح سؤاله إلى مايتعلق بها مما فيه فائدة ، ولم يجبه عما سأل ..

ومن هنا نهى رسول الله ﷺ « عن قيل وقال وكثرة السؤال » لأنه مظنة السؤال عما لايفيد .

وقال الشاطبى فى موضع آخر من الكتاب :

« كل علم شرعى فطلب الشارع له إنما يكون حيث هو وسيلة إلى التعبد لله تعالى ، لا من جهة أخرى ، فإن ظهر فيه اعتبار جهة أخرى فبالتبع والقصد الثانى ، لابالقصد الأول ، والدليل على ذلك أمور :

---

(١) سورة الشورى الآية (١١) .
(٢) سورة النازعات الآية (٤٢) .
(٣) سورة النازعات الآية (٤٣) .

أحدها : ماتقدم فى المسألة قبل : أن كل علم لايفيد عملاً فليس فى الشرع مايدل على استحسانه ، ولو كان له غاية شرعية لكان مستحسناً شرعاً ، ولو كان مستحسناً شرعاً لبحث عنه الأولون من الصحابة والتابعين ، وذلك غير موجود فما يلزم عنه كذلك .

والثانى : أن الشرع إنما جاء بالتعبد ، وهو المقصود من بعثه ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾[1] وقال تعالى ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾[2] وقال ﴿ وماأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[3] وماأشبه ذلك من الآيات التى لاتكاد تحصى كلها دال على أن المقصود التعبد لله ، وإنما بأدلة التوحيد ليتوجهوا إلى المعبود بحق وحده ، سبحانه لاشريك له ، ولذلك قال تعالى ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾[4] وقال ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾[5] ومثله فى سائر المواضع التى نص فيها على كلمة التوحيد ، لابد أن يعقب سبحانه بطلب التعبد لله وحده ، أو بجعل مقدمة لها .

والثالث : ماجاء من الأدلة الدالة على أن روح العلم هو العمل وإلا فالعلم عارية وغير منتفع به . فقد قال سبحانه ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[6] وقال ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾[7] وقال سبحانه ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ﴾[8] وروى عن أبى جعفر محمد بن على فى قول الله تعالى ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون ﴾[9] قال : قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم ، وخالفوه إلى غيره .

وقال سفيان الثورى : « إنما يتعلم العلم ليتقى به الله وإنما فضل العلم على غيره لأنه يتقى الله به » .

ولقد كان النبى ﷺ يستعيذ من علم لاينفع ، وذكر مالك أنه بلغه عن القاسم بن محمد قال : « أدركت الناس ومايعجبهم القول إنما يعجبهم العمل » .

---

(١) سورة إبراهيم الآية (١) .
(٢) سورة النساء الآية (٥٩) .
(٣) سورة الأنبياء الآية (٢٥) .
(٤) سورة محمد الآية (١٩) .
(٥) سورة هود الآية (١٤) .
(٦) سورة فاطر الآية (٢٨) .
(٧) سورة يوسف الآية (٦٨) .
(٨) سورة الزمر الآية (٩) .
(٩) سورة الشعراء الآية (٩٤)

موقف الخطيب

إن موقف الخطيب ليس مما يسهل على كل نفس أن تقفه ، ولايجترىء عليه إلا متمرس به قادر عليه متثبت من نفسه ، أو غر جاهل صفيق أديم الوجه ، لايبالى أن يدركه الحصر ، أو يقطع البهر أنفاسه .

وقد يألف بعض الخطباء المنابر وتألفهم ، ولكنهم مع ذلك لايملكون أنفسهم مما قد يعرض للخطيب فى الموقف الحرج والمقام الضيق ، إلا أن كثرة ممارسة المنابر قد تهون على النفس عناء هذا المركب الوعر ، الذى شابت له شعرات رأس خليفة مثل عبدالملك ابن مروان .

والحق — كما قال ابن مروان — إن الخطيب يعرض على الناس عقله ، فكيف لايشيب من يتعرض لمثل هذه التجربة الخطيرة ، مرة فى الأسبوع على الأقل ، حين كان الخليفة يخطب بالرعية فى صلاة الجمعة ؟ .

والخطيب معذور حين يتهيب موقف الخطابة ، لأنه يرى نفسه فرداً قد التفت حوله جماعات ، وتحلقت بين يديه فرق ، وشخصت إليه أبصار ، وأرهفت إليه أسماع فكأنها تحصى عليه الخطأ . أو تعد عليه الهفوات . ولهذا كان بعض الخطباء يتغلبون على هذا الشعور بأن يتناسوا أن أمامهم جمعاً ، ويمضوا فى الكلام على غايتهم ، لايصدمهم شعور طارىء ، ولا اعتبار مفاجىء .

وكثيراً مايعترى الخطيب من عوارض التهيب مايعترى الخائف الوجل من سرعة النبض ، ورشح الجبين بالعرق ، وانقطاع النفس ، وخفوق القلب .

ومما يؤكد لنا تهيب الخطيب وخوفه حين تشخص إليه الأبصار ، وترهف نحوه الأسماع ، ذلك الحادث الذى وقع لروح بن حاتم حينما صعد المنبر ، فقد ذكروا أنه حين رأى الناس مدوا أبصارهم وفتحوا أسماعهم نحوه ، حصر ، فقال : « نكسوا رؤوسكم ! وغضوا أبصاركم ! فإن المنبر مركب صعب ، وإذا يسَّر الله فتح قُفل تيسر .

وكثيراً ماكان بعض العمال والولاة ممن لايحسنون الخطابة ولايجزئون فى مواقفها يكرهون كل مقام يحتاج فيه إلى خطبة . ولو كانت خطبة الجمعة ! فلقد كان « عبد ربه اليشكرى » عاملاً لعيسى بن موسى العباسى على المدائن ، فصعد المنبر ، فحمد الله وارتج عليه فسكت ثم قال « والله إنى لأكون فى بيتى فتجىء على لسانى ألف

كلمة ، فإذا قمت على أعوادكم هذه — يقصد أعواد المنابر — جاء الشيطان فمحاها من صدرى ! ولقد كنت وماف الأيام يوم أحب إلىّ من يوم الجمعة ، فصرت وماف الأيام يوم أبغض إلىّ منه ، وماذلك إلا لخطبتكم هذه ! » .

ولقد رويت فى كتب الأدب والأخبار كثير من حوادث الحصر والارتاج لخطباء قطعت عليهم هيبة الموقف طريق القول ، وسدت منافذ الكلام ، حتى لقد بلغت هذه المواقف مبلغ الفكاهات يتندر بها وحتى ليظن الافتعال والصنعة فى بعضها ، كما ذكروا من أن مصعب بن حيان دعي مرة ليخطب فى حفل زواج فأدركه الحصر . فقال : لقنوا موتاكم بشهادة أن لا إله إلا الله فقالت أم العروس : عجل الله موتك ! ألهذا دعوناك ؟! .

وقد لانصدق أن خطيباً يدركه الرهب فلايفرق بين مايقال فى المآتم والأفراح ، ولكن النفس حين تضطرب يعمى عليها الصواب ، ويخفى عليها الحق فتلبس بالباطل وهى لاتعلم ، كما حدث لعتاب بن ورقاء الرياحى حين أخذ يحث الناس على الجهاد فى خطبة له ، فقال : « هذا كما قال الله تعالى فى كتابه : ثم قال :

كتب القتل والقتال علينا
وعلى الغانيات جر الذيول

فخلط المسكين فى رهبة المقام ، بين شعر ابن أبى ربيعة وبين كلام الله الذى لايدانيه فى علوه كلام .

****

عيــوب الخطيـــب

قد يكون فى الخطيب من عيوب الخلقة ، ونقائص الصورة مالايؤثر فى فنه الخطابى بقليل أو كثير ، وإذا كان الشكل الجميل أروح للعين وأمتع للنفس ، فإن الخطيب القبيح الشكل قد يأسر ببلاغته وفصاحته مايغطي على قبح صورته ودمامة خلقته .

وقد يكون سقوط الأسنان آفة الخطباء ، ولكنه لايمنعهم من الفصاحة قدر مايمنعهم من إبانة الحروف وتوضيح مخارجها . على أن سقوط الأسنان كلها أصلح فى الإبانة من سقوط بعضها وبقاء البعض الآخر ، فقد كان سفيان بن الأبرد القائد الأموى ساقط الأسنان جميعها ، ومع هذا كان خطيباً مبيناً .

وقد ذكر الجاحظ فى « البيان والتبين » طائفة من عيوب النطق عند الخطيب . مما يخرج الحروف على غير وجوهها ، ويعترض سهولة مخارجها ، وعد من ذلك اللثغة والحكلة ، والحبسة ، واللفق ، واللجلجة ، والفأفأة ، والتمتمة ، وهى عيوب قد تورث أو تكتسب ، ولكن الطب الآن خطا خطوات فساحاً فى معالجتها أو التقليل من خطرها .

ومن عيوب الخطيب اللحن ، وهو إخراج الكلام على غير وجوهه من النحو أو الصرف أو اللغة .

وقد يلجأ بعض الخطباء إلى الترداد فى عباراته توكيداً للذى يريده وتقريراً له فى ذهن السامع ، ولن يكون ذلك عيباً إلا إذا أبلغ حداً يمل معه الكلام ويسأم السماع : وإلا فهو يحلو فى الخطابة كما يحلو فى الكتابة ومقامات الكلام هى التى تحدد الترداد على قدر أحوال المستمعين ، وعلى قدر مايحتمله المقام من المقال .

وقد يستعين بعض الخطباء على متابعة الكلام بلوازم يكررونها فى أفواههم ويديرونها على ألسنتهم ، كأنما يجتلبون بها الألفاظ ، ويتصيدون بها العبارات . كأن يقول الواحد منهم عند مقاطع كلامه : ياهذا ، ياهيه ، اسمع منى ، افهم على ، استمع إلىّ ، وأشباه هذه الكلمات مما نسمعها تتردد على ألسنة بعض الناس حين يتحدثون حديثاً عادياً ،

وهي إذا كانت دلالة العجز فى الحديث فهى فى الخطابة أدل على العجز ، وأبين على العيِّ .

ومن عيوب الخطيب أن يتوقف أو يتحبس فى كلامه أو يتنحنح وليس التنحنح إلا حيلة يصل بها الخطيب إلى لفظ يستدعيه من بعد ، أو معنى يتصيده بعد استعصاء ، فهو وقفة فى الذهن يعبر عنها ذلك الصوت الخلص الذى يحمل من دلائل القصور ، أكثر مما يحمل من مطاوعة التعبير .

(مستفاد من كتاب الخطب والمواعظ للاستاذ محمد عبدالغنى حسن) .

تم بحمد الله وتوفيقه كتابنا « إلى فرسان المنابر » وفيه من الفوائد والمعالم والتوجيهات والإرشادات مالم يخف على ذوى الألباب الباصرة واولى الأفئدة المستنيرة والله نسأل أن ينفع به وأن يجعله نبراساً للدعاة المهدين والأخوة المرشدين الذين يبلغون رسالات الله يخشونه ولايخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيبا إنهم الذين أثنى الله تعالى عليهم بقوله ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ﴾ [1]

فضيلة الشيخ
عبدالحميد كشك

(١) سورة فصلت الاية (٣٣) .

فهرست الكتاب

من مطبوعات مكتبة الصحافة ـــ العباسية

ـــ سلسلة « هنا مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم » الخطب المنبرية للشيخ كشك .
الأجزاء من ١ : ٨ وقريبا الجزئ التاسع والعاشر إن شاء الله

ـــ سلسلة « دروس المساء بين المغرب والعشاء » لفضيلة الشيخ/ عبد الحميد كشك .
الجزء الثانى قريباً إن شاء الله .

ـــ « خذوا من أحداث التاريخ عبرة » للشيخ عبدالحميد كشك .

ـــ « بناء النفوس وأثره فى التربية » للشيخ عبدالحميد كشك .

رقم الإيداع ٥٣٩٢ / ١٩٩٠

طبع مطابع انترناشيونال برس ت : ٣٤٧٤٢٥٩

هــذا الكتــاب

● كتاب جديد لشيخنا وشيخ مشايخنا بلا منازع ، فضيلة الشيخ عبد الحميد كشك .. أمد الله فى عمره ، وبارك فى حياته ، ووقاه — عز وجل — شر الذين يؤرق لسانه مضاجعهم ، ويوتر قلمُه أعصابهم ..

● نقول : كتاب جديد موضوعاً ومنهجاً وأسلوباً جديد موضوعاً لأنه يعرض لقضية فرسان المنابر ، مالهم وما عليهم ، وجديد منهجا لأنه يحدد خصائصهم وواجباتهم والمبادىء التى تضوغ رسالتهم ، وجديد أسلوباً ، لأنه أسلوب السهل الممتنع ، يتسم بالهدوء وقوة الحجة وسلامة المنطق ، والتجرد من دخيل اللفظ ، وحشو العبارة ..

● إجل إنه كتاب جديد تقوم دراسته على التربية والتوجيه لفرسان المنابر ، وحسبنا أن مؤلفه من أبرز فرسان المنابر فى الآونة الأخيرة ..

● ومكتبة الصحافة — بالعباسية إذ يسعدها أن تقدم الفارس الممتحن الذى لم يلق سلاحه برغم محنته . لأن سلاحه هو إيمانه العميق بالقاهر فوق عباده ، تسأل المولى عز وجل أن يظل شيخنا عند حسن ظن شبابنا المسلم الذى يناضل من أجل أن يَرُدَّ للإسلام الأعزل اعتباره — وللأمة الإسلامية المضطهدة كيانها .

والله الموفــق

مكتبة الصحافة
للطبع والنشر والتوزيع

الثمن ٣٧٥ قرشاً